

المجلّد الخامس

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمّد الصالحي

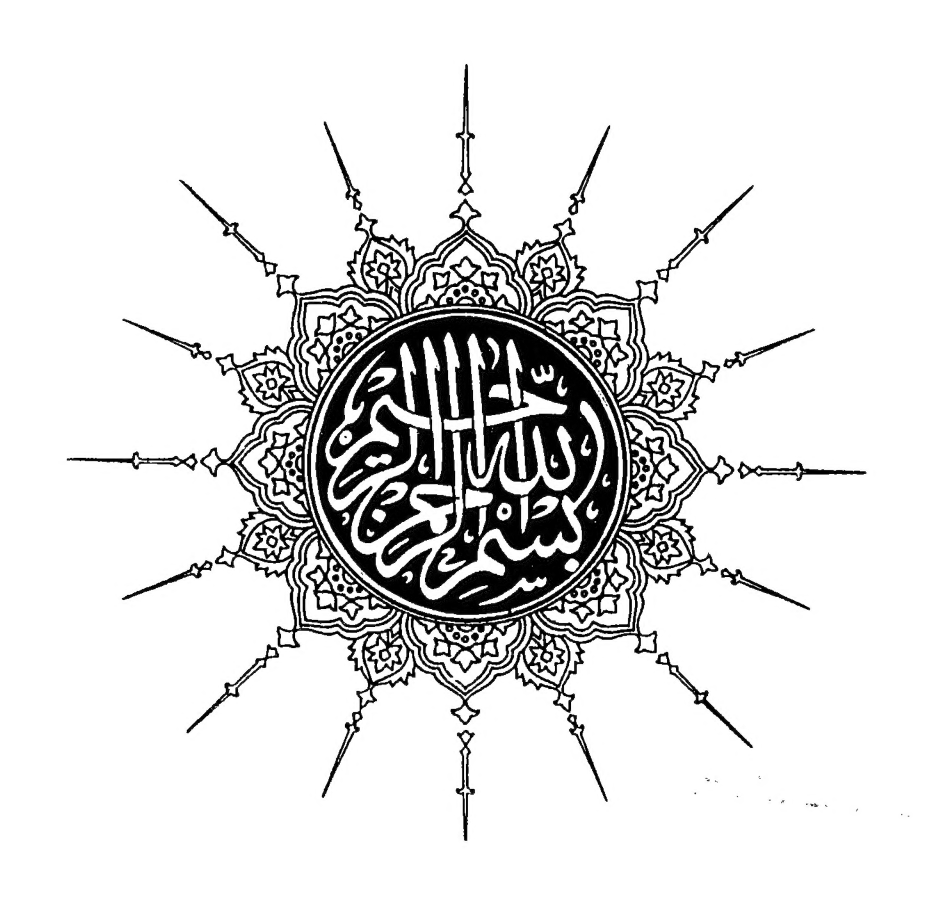
من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيّم الجوزيّة

الناشر

مؤسّسة النُّور للطّباعة والتّجليد

بالتّعاون مع

مكتبة دار السّلام



الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤ ، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة-شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

ت ٣٦٤٨٦٧٨ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ ، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**تأمل** قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَاأَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَايُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلاً**﴾ [الأحزاب: ١-٣]. كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه: محبةً له، وخشيةً، ورجاءً، فإن التَّقوى لاتَتِمّ إلَّا بذلك، واتِّباعِ ماأوحيَ إليه المتضمن لتركه ماسوى ذلك واتباعِ المنزَل خاصة، وبالتوكل عليه؛ وهو يتضمن اعتماد القلب [عليه] وحده، وثقته [به]، وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿**ما جَعل اللهُ لرجل من قلبين في جوفه**﴾ [الأحزاب: ٤]، فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلَّا وجهةٌ واحدة، إذا مال بها إلى جهةٍ لم يَمِلْ إلى غيرها، وليس للعبد قلبان: يطيع الله، ويتّبع أمره، ويتوكل عليه بأحدهما، والآخرُ لغيره، بل ليس إلَّا قلبٌ واحدٌ، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أُمَّه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيّه ابنه، فانظر: ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدةٌ فمنها قوله: ﴿**هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِليْهَا فلَمَّا تَغشَّاهَا حَمَلَتْ حَملاً خَفِيفاً فَمرَّتْ بهِ فلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتيتنا صالحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فلما آتاهما صالحاً جَعَلَا له شُركَآء فيما آتاهُمَا فتعالىٰ اللهُ عمَّا يُشرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٩. ١٩٠]. فالنفسُ الواحدةُ وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما: المشركون من أولادهما، ولا يُلْتَفت إلى غير ذلك، مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لا يعيش لهما ولدٌ، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه: عبدالحارث، ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن لِيُشرك به بعد ذلك، ونظيرُ هذا الاستطراد قوله: ﴿**يَسْألونَك عن الأَهِلَّة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ**﴾[البقرة:

---

(١) ٣٠٨ روضة المحبين.

١٨٩]، ثم قال: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورِهَا﴾[البقرة: ١٨٩]، فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلَّة استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

(١)الفصل الخامس: في أن التسمية حق للأب، لا للأم

هذا مما لا نزاع فيه بين الناس، وأن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد، فهي للأب، والأحاديث المتقدمة كلها تدل على هذا، وهذا كما أنه يدعى لأبيه لا لأمه، فيقال: فلان ابن فلان، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لأبائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾[الأحزاب: ٥]، والولد يتبع أمه في الحرية والرق، ويتبع أباه في النسب، والتسمية: تعريف النسب والمنسوب، ويتبع في الدين خير أبويه ديناً، فالتعريف: كالتعليم والعقيقة، وذلك إلى الأب، لا إلى الأم، وقال النبي ﷺ: ولد لي الليلة مولود، فسميته باسم أبي إبراهيم. وتسمية الرجل ابنه كتسمية غلامه.

(٢)**كان** النبي ﷺ أبا للمؤمنين كما في قراءة أبيّ: ﴿النَّبِيُّ أولىٰ بالمؤمِنِينَ مِنْ أَنفسِهِم﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو أب لهم، ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به، ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات: الجهل، والضلال، والغي إلى نور العلم، والإيمان، وفضاء المعرفة، والتوحيد، فشاهدت حقائق أخر وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿الٓر كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ من الظلماتِ إلى النُورِ بإِذنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿هُو الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمَةَ وإن كانوا من قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحكمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤].

(٣)**وبادر** زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها، وقدم أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي ﷺ؟

(١) ٧٩ تحفة المودود.　(٢) ١٦ طريق الهجرتين.　(٣) ١١٥ زاد المعاد.

فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقال: «ياابن عبدالمطلب، ياابن هاشم، ياابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تَفكُّون العانيَ، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامْنُنْ علينا، وأحْسِن إلينا في فدائه. قال: ومن هو؟ قالوا: زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «فهلَّا غيرَ ذلك». قالوا: ماهو؟ قال: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً». قالا: قد رددتنا على النَّصَف، وأحسنت، فدعاه، فقال: «تعرف هؤلاء؟» قال: نعم. قال: «من هذا؟» قال: هذا أبي، وهذا عمي. قال: «فأنا من قد علمتَ ورأيت، وعرفت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما». قال: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يازيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر، فقال: «أشهدكم أن زيداً ابني، يرثني وأرثه». فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما، فانصرفا، ودُعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ [الأحزاب: ٥]، فدُعي من يومئذ: زيد بن حارثة[1]». قال معمر في جامعه عن الزهري: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة، وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه: أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه».

[2]**قال** تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولىٰ به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا.

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولـوية والمحبـة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لايكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه

(١) أخرج القصة ابن إسحاق وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في الإصابة.　　(٢) ٢١ التبوكية.

للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط، إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولىٰ به منها.

فيا عجباً! كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره، واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين؟! إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه، وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة.

ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان: سعيه، واجتهاده، ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره، وتقريرها، والغضب، والمحبة لها، والرضا بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول عليها! فإن وافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ في رده ليًّا وإعراضاً، كما قال تعالى: ﴿**وإن تَلْوُوآ أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كانَ بِمَا تَعْملون خَبيراً**﴾ [النساء: ١٣٥].

فصل[1]

وأما الأزواج فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح وبها جاء القرآن، قال ـ تعالى ـ لآدم: ﴿**اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنَّة**﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال ـ تعالى ـ في حق زكريا: ﴿**وَأَصْلَحْنَا له زَوْجَهُ**﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ومن الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما في عائشة رضي الله عنها: «إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة».

وقال الفرزدق:

وإن الـذي يبغي ليفسـد زوجتي		كسـاع إلى أسـد الشرى يستبينهـا

---

(١) ١٢٩ جلاء الأفهام

وقد جمع على «زوجات» وهذا إنما هو جمع زوجة وإلا فجمع زوج «أزواج».

قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُم فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿أَنْتُم وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفرداً وجمعاً كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

والإخبار عن أهل الشرك بلفظ: «المرأة» وقال تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ إلى قوله: ﴿وامرأته حمالة الحطب في جيدها﴾.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]، فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم «المرأة».

وقال في فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرعَوْنَ﴾ [التحريم ١١]، لما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجاً له.

وقال في حق آدم: ﴿اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥].

وقال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]..

وقال في حق المؤمنين: ﴿وَلَهُم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

فقالت طائفة منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء الأزواج لأنهن لسن بأزواج لرجالهم في الآخرة ولأن التزويج حلية شرعية وهو من أمر الدين فجرد الكافرة منه كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ [مريم: ٥] وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: ٢٩].

وأجاب بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع؛ لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة فذكر المرأة أولى به، لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً.

قلت: ولو قيل: إن السر في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه: فإن الزوجين هما: الشيئان المتشابهان المتشاكلان والمتساويان.

ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «أزواجهم: أشباههم، ونظراؤهم». وقاله الإمام أحمد أيضاً.

ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. أي قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية: «الصالح مع الصالح في الجنة والفاجر مع الفاجر في النار»، وقاله الحسن، وقتادة، والأكثرون. وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول.

وقال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. ثم فسرها: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثنينِ ومن المَعْزِ اثنين﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿ومن الإِبلِ اثنين ومن البَقَرِ اثنين﴾ [الأنعام: ١٤٤] فجعل الزوجين هما: الفردان من نوع واحد، ومنه قولهم: «زوجا خف، وزوجا حمام»، ونحوه. ولا ريب أن الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال تعالى في حق مؤمن أهل الكتاب وكافرهم: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ١١٣]. الآية.

وقطع المقارنة سبحانه بينهما في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان؛ ولا يتناكحان ولا يتولى أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الوصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم، فأضاف فيها: «المرأة» بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ: «المرأة» دون «الزوجة» تحقيقاً لهذا المعنى والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنما سمّى صاحبة أبي لهب: «امرأته» ولم يقل لها زوجته لأن أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة بخلاف أنحكة أهل الإسلام، فإن هذا باطل بإطلاقه اسم «المرأة» على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح. وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ

أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب؛ والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث.

وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

فصل

وهذا أليق المواضع بذكر أزواجه ﷺ.

وأولهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب وقد تزوجها ﷺ بمكة. وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته، فآمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق. وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح. وقيل: بأربع وقيل: بخمس ولها خصائص.

منها : أنه لم يتزوج عليها غيرها. ومنها: أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم ـ رضي الله عنه ـ فإنه من سريته مارية. ومنها: أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها على عائشة ـ رضي الله عنها ـ على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف سألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة؛ فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها.

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنى كلامه. قلت: ومن خصائصها أيضاً أن الله ـ سبحانه ـ بعث إليها السلام مع جبريل فبلغها النبي ﷺ ذلك. قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: **«يارسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب، فيه ولا نصب»**، وهذه ـ لعمر الله ـ خاصة لم تكن لسواها.

وأما ـ عائشة رضي الله عنها ـ فإن جبرائيل سلم عليها على لسان النبي

ﷺ. قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال أبو سلمة: إن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «**ياعائشة، هذا جبرائيل يقرئك السلام**». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ.

ومن خواص خديجة - رضي الله عنها -: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط ولا هجر. وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة[1]...

فصل[2]

ووادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وبادر حَبْرُهم وعالمهم عبدالله بن سَلام، فدخل في الإسلام، وأبى عامتهم إلا الكفر. **وكانوا** ثلاث قبائل: بنو قَيْنقُاع، وبنو النضير، وبنو قُريظة، وحاربه الثلاثة، فَمَنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

فصل[3]

ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم، على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه - تبارك وتعالى -. فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قَيْنُقاع، وبني النَّضير، وبني قُريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد

---

(١) استمر المؤلف في ذكر خديجة وبقية زوجات النبي - ﷺ - قرابة كراسة لمن أراده. (ج).

(٢) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢. (٣) ١٨٤ زاد المعاد جـ٢.

بَدْر، وشَرَقوا بواقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد، فصارت إليهم جنود الله، يَقْدُمهم عبدالله ورسوله يومَ السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره.

وكانوا حلفاء عبدالله بن أبيٍّ ابنِ سَلول رئيس المنافقين. وكانوا أشجع يهود المدينة، وحاملُ لواء المسلمين يومئذ: حمزة بن عبدالمطلب. واستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبدالمنذر، فحاصرهم خمسة عشرة ليلة، إلى هلال ذي القعدة وهم أول من حارب من اليهود، وتَحَصَّنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب ـ الذي إذاأراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم، وقذفه في قلوبهم ـ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في: رقابهم، وأموالهم، ونسائهم، وذريتهم، فأمر بهم فكُتِّفوا، وكلَّمَ عبدُ الله بن أبيٍّ فيهم رسولَ الله ﷺ وأَلَحَّ عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أَذْرِعات من أرض الشام، فَقَلَّ أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وكانوا صاغة وتجاراً، وكانوا نحو الستمائة مقاتل. وكانت دارهم في طرف المدينة، وقبض منهم أموالهم، فأخذ منها رسول الله ﷺ: ثلاث قِسِيٍّ ودِرْعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رِماح، وخَمَّس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم: محمد بن مَسلمة. والله أعلم.

فصـــل

ثم نقض العهدَ بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر» قاله عروة. وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفرٍ من أصحابه، وكَلَّمهم أن يعينوه في دِيَةَ الكلابِيَّين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوَّلَ لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويَصْعَد، فيلقيها على رأسه يَشْدَخُه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جِحاش: أنا، فقال لهم سَلَّام بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحيُ على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هَمُّوا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما هَمَّت يهود به.

وبعث إليهم رسولُ الله ﷺ: أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي: أن لاتخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حِصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قُريظة وحلفاؤكم من غطفان، وطَمِعَ رئيسهم حُيَيُّ بن أَخْطَب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمثلِ الشيطانِ إذْ قال للإنسانِ: اكْفُرْ، فَلَمَّا كفرَ قالَ إنِّي بَريءٌ مِنك﴾ [الحشر: ١٦]. فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها.

فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحَرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ماحملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحَلَقة، وهي: السلاح، وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِف عِليها المسلمون بخيل ولا ركاب. وخَمَّس قريظة، قال مالك: «خمس رسول الله ﷺ قريظة، ولم يخمس بني النضير، لأن المسلمين لم يُوجفوا بخيلهم ولا ركابهم على بني النضير، كما أوجفوا على قريظة»، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حُيَيُّ بن أَخْطب كبيرهم، وقبض السلاح، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وقال: «هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش». وكانت قصتهم في ربيع الأول من سنة أربع من الهجرة.

فصل

وأما قريظة: فكانت أشدَّ اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم.

وكان سبب غزوهم: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق، والقوم

معه صُلْح: جاء حُيي بن أخْطب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعِزِّ الـدهـر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطْفَان على قادتها، وأنتم أهل الشَّوْكة والسلاح، فَهَلُمَّ حتى نُناجز محمداً ونَفْرُغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذُلِّ الـدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يَرْعُدُ وَيَبْرُق، فلم يزل حيي يُخادعه ويَعِدْه ويُمَنيه حتى أجابه، بشرط أن يدخل معهم، في حصنهم يصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سَبَّه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين». فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: أوضعت السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أُزَلْزِل بهم حصونَهم، وأقْذِف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار، وقال لأصحابه يومئذ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة، كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يُرِد منا ذلك وإنما أراد: سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يُعنِّف واحدة من الطائفتين.

واختلف الفقهاء: أيهما كان أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المصيبون، ولو كنا معهم لأخرناها كما أخروها، ولَمَا صليناها إلا في بني قريظة، امتثالاً لأمره، وتركاً للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلوها في الطريق في وقتها حازوا قَصَب السبْق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة في وقتها، وفهموا ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مَدفَعَ له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن «من فاتته فقد وُتر أهله

وماله»[1]، أو: «**قد حبط عمله**»[2]، فالذي جاء فيها أمر لم يجىء مثله في غيرها.

وأما المؤخرون لها: فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر، وأما أنْ يكونوا هم المصيبون في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً: فحاشا وكلا. والذين صلوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحَصَّلوا الفضيلتين. فلهم أجران. والآخرون مأجورون أيضاً، رضي الله عنهم.

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً مشروعاً، ولهذا كان عقب تأخير النبي ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيما أن ذلك كان قبل شرع صلاة الخوف؟ قيل: هذا سؤال قوي، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزاً بعد بيان المواقيت، ولا دليل على ذلك، إلا قصة الخندق. فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبي ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسياناً، وفي القصة ما يشعر بذلك، فإن عمر لما قال له: «يارسول الله، ما كدتُ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله: والله ما صليتها، ثم قام فصلاها» وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً بما هو فيه من الشغل والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخرها بعذر النوم في سفره وصلاها بعد استيقاظه، وبعد ذكره لتتأسى أمته به.

والجواب الثاني: أن هذا ـ على تقدير ثبوته ـ إنما هو في حال الخوف والمسايفة عند الدهَش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة في مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده، ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف فوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم. فهذا منتهى أقدام الفريقين في هذا الموضوع.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) رواه البخاري والنسائي من حديث بريدة بن الحصيب.

فصـــل

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم. ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسًا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كَعْبُ بن أسَد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا إليه بالسيوف مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكبسوهم يوم السبت، لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، وأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن، فبعثوا إليه: أن أرسل إلينا أبا لُبابة بن عبدالمنذر نستشيره، فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لبابة، كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه ـ يقول: إنه الذبح ـ ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله، فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد ـ مسجد المدينة ـ فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً. فلما بلغ رسولَ الله ﷺ ذلك قال: «**دعوه حتى يتوب الله عليه**». ثم تاب عليه، وحله رسول الله ﷺ بيده، ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلتَ في بني قَيْنُقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا. فأحسن فيهم. فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**». قالوا: قد رضينا. فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم، لجرح كان به فأُركِبَ حماراً، وجاء إلى رسول الله فجعلوا يقولون له ـ وهم كَنَفَتَيْه ـ ياسعد، أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم. فإن رسول الله ﷺ قد حكَّمك فيهم لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: «**قوموا إلى سيدكم**»، فلما أنزلوه قالوا: ياسعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: «وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من

ههنا؟ وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ، إجلالاً له وتعظيمًا ـ قال: نعم، وعليَّ. قال: فإني أحكم فيهم: أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال» فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». وأسلم منهم تلك الليلة نَفَر قبل النزول، وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يُعلم أين ذهب؟ وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد.

فلما حكم فيهم سعد بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرَت عليه الموسى منهم، ومن لم يُنْبِت أُلحقَ بالذرية، فحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، ولم يقتل من النساء أحد سِوى امرأة واحدة، كانت طرحت على رأس خَلَّاد بن سُويد بن ثعلبة[1] رحىً فقتلته، وجعل يُذْهَب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، فقالوا: لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب، ما تراه يَصنَع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعيَ لا يَنْزِع، والذاهبَ منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

قال مالك ـ في رواية ابن القاسم ـ: قال عبدالله بن أبيٍّ لسعد بن معاذ في أمرهم: إنهم أحدُ جناحَيَّ، وهم ثلاثمائة دارع وستمائة حاسر. فقال: «قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

ولما جيء بحُيَيٍّ بن أَخْطَب إلى بين يديه ووقع بصره عليه، قال: أما والله مالمتُ نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغْلَب، ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس، قَدَرُ الله، ومَلْحَمة كُتبت على بني إسرائيل، ثم حبس فضربت عنقه، واستوهب ثابتُ بن قيس الزَّبيرَ بن باطا وأهلَه وماله من رسول الله، فوهبهم له. فقال ثابت بن قيس للزبير: قد وهَبَكَ لي رسول الله ﷺ. ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك، فقال: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحِبَّة فضربت عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود.

فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب كل غزوة من الغزوات الكبار، فغزوة بني قَينقاع: عقبَ بدر. وغزوة بن النضير: عقب غزوة أحد. وغزوة بن قريظة: عقب الخندق.

فصل في غزوة الخندق (١)

وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال، على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع. ثم أخْلَفُوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس: جاءوا لِحَرْبِه ـ هذا قول أهل السِّير والمغازي.

وخالفهم موسى بن عقبة، وقال: بل كانت سنة أربع. قال أبومحمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين أنه: «عُرِضَ على النبي ﷺ يوم أُحُدٍ، وهو ابن أربع عشرة سنة: فلم يُجِزْهُ، ثم عُرض عليه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه» قال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة، وأجيب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن ابن عمر أخبر: أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مُطِيقاً. وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها. والثاني: أنه لعله كان يوم أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة.

فصـــل

وكان سبب غزوة الخندق: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، وأنه خرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل: خرج أشرافهم ـ كَسلاَم بن أبي الحُقيق، وسَلاَّم بن مِشْكَم وكنانة بن الربيع، وغيرهم ـ إلى قريش بمكة، يُحرِّضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غَطْفان، فدعوهم فاستجابوا لهم. ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش ـ وقائدهم أبوسفيان ـ في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سُليم بمَرِّ الظهران، وخرجت بنو أسد، وفَزارة، وأشْجَع، وبنو مُرَّة، وجاءت غطفان وقائدهم عُيينة بن حِصن، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بِحَفْر خَندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حَفْره من آيات نبوته وأعلام رسالته ماقد تواتر الخبر به. وكان حفر الخندق أمام سَلْع. وسَلْعُ: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار. وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق من أمامه. وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة. وهذا غلط من خروجه يوم أحد.

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذَّراري، فَجُعِلُوا في آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم مكتوم. وانطلق حُيَيّ بن أَخْطَب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم، فأبىٰ كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها وغطفان وأسد على قادتها وسادتها لحرب محمد. قال كعب: جئتني والله بذلُ الذهر، وبجَهام قد أراق ماءه، فهو يُرعِد ويَبْرُق. فلم يزل به حُيي حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ. ودخل مع المشركين في محاربته، فسر بذلك المشركون. وشرط كعب على حُيَيٍّ: أنه إن لم يظفروا بمحمد: أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووَفًى له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين ـ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ـ وخَوَّات بن جبير، وعبدالله بن رواحة، ليعرفوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم ولَحنُوا إلى رسول الله ﷺ لَحْناً يخبرونه: أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين**». واشتد البلاء، ونجم النفاق، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة، وقالوا: ﴿**إِنَّ بُيوتَنَا عَوْرَةٌ، وَمَاهِيَ بِعَوْرَةٍ، إن يُريدُونَ إلاّ فِراراً**﴾ [الأحزاب: ١٣]. وهمَّ بنو سَلمة بالفشل. ثم ثَبَّت الله الطائفتين.

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال؛ لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن فَوَارِسَ من قريش ـ منهم عمرو بن عبد وُدٍّ وجماعة معه ـ أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مَكِيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيّقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسَلْع. ودعوا إلى البراز فانتدب لعمرو عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فقتله الله على يدي عليّ، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم، وانهزم الباقون إلى أصحابهم، وكان شعار المسلمين يومئذ: **حَمَ لا يُنصرون.**

ولما طالت هذه الحال على المسلمين: أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف، رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك، فاستشار السَّعْدَين في ذلك، فقالا: «يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف؛ فصَوَّبَ رأيهما، وقال: «**إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رَمَتْكم عن قَوْسٍ واحدة**».

ثم إن الله عز وجل ـ وله الحمد ـ صنع أمرًا من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفَلَّ حَدَّهم، فكان مما هَيَّأ من ذلك: أن رجلاً من غطفان، يقال له: نُعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: **إنما أنت رجل واحد، فَخَذِّلْ عنا مااستطعت، فإن الحرب خُدْعَة**». فذهب من فَوْرِه ذلك إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاًإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمداً فانْتَقَمَ منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لاتقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون

وُدِّي لكم، ونصحي لكم؟قالوا: نعم. قال: إن يَهُودَ قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه، أنهم: يأخذون منكم رهائن، يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطْفان، فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاعُ والخُفّ، فانهضوا بنا حتي نُنَاجِزَ محمدا، فأرسل إليهم اليهود، إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب مَنْ قَبلنا حين أحدثُوا فيه. ومع هذا: فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم. فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان. وأرسل الله ـ عز وجل ـ على المشركين جنداً من الريح، فجعلت تُقَوِّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا قلعته، ولا يقرُّ لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد رَدَّ الله عدوه بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعزَّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فدخل المدينة ووضع السلاح، فجاءه جبريل وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: «**أَوَضَعْتُم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها، انهض إلى غزو هؤلاء**» ـ يعني: بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**». فخرج المسلمون سِرَاعاً، وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه، واستشهد يوم الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين.

فصل[1]

وقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن أَلَّبَ الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يُقتل مع بني قريظة، كما قُتل صاحبه حُيَيّ بن أخطب، ورغبت الخزرج في قتله مُسَاوَاةً للأوس من قتل كعب بن الأشرف. وكان الله ـ سبحانه ـ قد جعل هذين الحيَّيْنِ

(١) ٢٩٣ زاد المعاد جـ٢.

يَتَصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بني سَلِمة، وهم: عبدالله بن عَتِيك ـ وهو أمير القوم ـ وعبدالله بن أنيس وأبو قتادة، والحارث بن رِبْعِي، ومسعود بن سِنَان، وخزاعى بن أسود. فساروا حتى أتوه في خيبر في دارٍ له، فنزلوا عليه ليلاً فقَتَلوه، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، وكلهم ادَّعىٰ قتله، فقال رسول الله ﷺ: «أروني أسيافكم». فلما أروه، قال لسيف عبدالله بن أنيس: «هذا الذي قتله، أرى فيه أثر الطعام».

[(١)] **الأصل** الحادي عشر: أن البلاء الذي يُصيبُ العبدَ في الله لا يخرجُ عن أربعة أقسام، فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عِرْضه، أو في أهله ومَنْ يُحبُّ، والـذي في نفسه قد يكون بتَلَفِها تارةً، وبتألُّمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يُبتلىٰ به العبد في الله. وأشد هذه الأقسام: المصيبةُ في النفس.

ومن المعلوم: أن الخلق كلَّهم يمـوتـون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتاتِ وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القَرْصة، فليس في قتلِ الشهيد مصيبة زائدة على ماهو مُعتادٌ لبني آدم. فمن عَدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش، فهو جاهل، بل موتُ الشهيدِ من أيسرِ الميتات وأفضلها، وأعلاها، ولكنّ الفارَّ يظنّ أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظنَّ، حيث يقول: ﴿قُلْ لَن يَنفَعَكُمُ الفِـرَارُ إنْ فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوْ القَتْلِ وَإذاً لا تُمَتَّعُون إلا قليلاً﴾ [الأحزاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفعُ، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفعْ إلا قليلاً، إذ لابدَّ له من الموتِ، فيفوته بهذا القليل ما هو خيرٌمنه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إنْ أراد بكُمْ سُوءًا أو أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً؟ ولا يجدونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله وليًا وَلاَ نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنَّ العبدَ لا يعصمُه أحدٌ من الله، إن أراد به سوءا غيرَ الموت الذي فرَّ منه، فإنه فرَّ من الموت لَمَّا كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيرَه لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يَفرّ مما يسوؤه من القتل في سبيل الله،

---

(١) ١٩٣: إغاثة جـ٢.

فيقعُ فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن مَنْ بَخِلَ بماله أن يُنْفِقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سَلَبَه الله إيَّاه، أو قَيَّضَ له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادَّخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مَهْنَؤه وعلى مُخَلِّفه وِزْرُه، وكذلك من رَفَّهَ بدَنَه وعِرْضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله ـ سبحانه ـ أضعافَ ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناسُ بالتجارُب. قال أبو حازم: «لَمَا يَلْقَى الذي لا يَتَّقِي الله مِنْ مُعالجة الخلق أعظمُ مما يَلْقَى الذي يتقي الله من معالجة التَّقْوَى».

واعتبرْ ذلك بحال إبليسَ. فإن امتنع من السجود لآدم فِراراً أنْ يخضع له ويَذِلّ، وطلب إعزازَ نفسه، فَصَيَّره الله أذلّ الأذلِّين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذُريته، فلم يرضَ بالسجود له، ورضي أن يَخْدُم هو وبنوه فُسَّاق ذريته. وكذلك عُبَّادُ الأصنام. أنِفُوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلـهاً واحداً سبحانه، ورَضواْ أن يعبدوا آلهةً من الأحجار.

وكذلك كلُّ من امتنع أن يَذِلَّ لله، أو يبذل مالَه في مَرْضاته، أو يتْعِبَ نفسه وبدَنَه في طاعته، لا بدَّ أن يذلَّ لمن لا يسوى، ويَبذل له ماله، ويتعِب نفسه وبَدَنَه في طاعته ومَرْضاته، عقوبة له، كما قال بعض السلف: «مَنْ امتنع أن يمشي مع أخيه خَطَواتٍ في حاجته أمشاه الله ـ تعالى ـ أكثر منها في غير طاعته».

(١)**وفي** صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سمى المدينة طيبة [طابة]، ويكره تسميتها يثرب، كراهة شديدة، وإنما حكى الله ـ تعالى ـ تسميتها: يثرب، عن المنافقين، فقال: ﴿وَإذْ يقول المنافقون والَّذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ مَّا وَعَدَنا الله ورَسُولُهُ إلا غُرُوراً. وإذ قَالَت طَّآئِفَةٌ منهم يآ أَهْلَ يَثربَ لا مُقامَ لَكُم فَٱرْجِعُوا﴾** [الأحزاب: ١٢، ١٣]. وفي سنن النسائي من حديث مالك عن يحيى بن سعيد، أنه قال: سمعت أبا الحباب: سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) ٧٨ تحفة المودود.

«أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي: «المدينة» تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد».

فصل[1]

وأما إزاغة القلوب فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال عن عباده المؤمنين أنهم سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وأصل الزيغ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال.

والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها، متحيرة تنظر إليه. قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

[2]**وأما** قوله: «وإنما نطق به التنزيل: لفائدة. وهي كونه يبرد حرارة الخوف»[3]، فيقال: بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤملوه، ويرجوه، ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى، ويؤمل، ويسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب

---

(١) ١٠٠ شفاء العليل. (٢) ٥٠ مدارج جـ٢.

(٣) أول البحث ص٤١ جـ٢ من الأصل في الرجاء. والضمير يعود على الرجاء، وقد ناقش الشيخ ابن القيم صاحب المنازل مناقشة حادة فيما تقدم لمن أراد الاطلاع. (ج).

عليه». والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها : أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضىً به وعنه.

ومنها : أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعىٰ لشكره.

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داعٍ بها. قال الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها. ومنها أن المحبة لا تنفك عن الرجاء ـ كما تقدم ـ فكل واحد منهما يَمُدُّ الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: **﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا؟﴾** [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق : أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: **﴿قُل لِّلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُواْ لِلَّذينَ لا يَرْجُونَ أيامَ اللهِ﴾** [الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها : أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعلى قدر رجائهم

وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة وغيرها، ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة: التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فنى عن ذلك، وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات. إلى فوائد أخرى كثيرة، يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه. وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علم فَلْيَجُدْ به، أو فليعذر، ولا يبادر إلى الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان؟ وهو يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله. ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم.

(١)**فأما** قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.

وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ ـ فيما يروى عن ربه ـ عز وجل ـ: «**يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**». وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي

---

(١) ٤١ مدارج جـ٢.

ﷺ قال: «يقول الله ـ عز وجل ـ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً، اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». » رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله ـ تعالى ـ: أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿قُل ادْعُواْ الَّذين زعمتُمْ من دُونِه، فلا يَملِكُون كشف الضرِّ عنكُمْ وَلاَ تَحْويلاً، أُوْلَئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى ربِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَب وَيرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول ـ تعالى ـ: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

(١)**أخرجا** في الصحيحين من حديث أنس قال: «لم يشهد عمي مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، فإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: أين؟ فقال: واها لريح الجنة! أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل، قال، فَوُجِدَ في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمة الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُواْ الله عَلَيهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه».

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد.

وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من

---

(١) ١١٥ حادي الأرواح.

هذ القسم، وأن يكون من الأول، والله أعلم.

[(1)] **قال** تعالى: ﴿**يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ من النِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قلبه مرضٌ**﴾[الأحزاب: ٣٢]، أمرهن أن لا يَلِنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليَّان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشنّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفًا.

...[(2)]**قوله** تعالى لنساء نبيه: ﴿**يَانِساءَ النبيِّ لستُنَّ كأَحدٍ من النساء إن اتَّقيتُنَّ فلا تَخْضَعنَ بالقولِ فَيَطْمعَ الذي في قلبه مرضٌ وقُلْنَ قولاً معروفاً**﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢]. فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿**وقُلْنَ قولاً معروفا**﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا واتَّبعَتْهُمْ ذريتهم بإيمان أَلْحَقْنَا بهم ذريَّتَهُم وما أَلَتْنَاهم من عَمَلِهِمْ من شيء**﴾ لما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يُحطّ الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿**وماألتناهم من عملهم من شيء**﴾ أي مانَقَصْنَا من الآباء شيئاً من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ولم نَحُطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم. . . .

[(3)]**الوجه** السابع والثمانون: أنَّ القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته بهما. وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذين المرضين في كتابه. أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿**في قُلُوبهم مَرَضٌ فزادهُمُ اللهُ مَرَضاً**﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿**ولِيَقُولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً**﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿**لِيَجْعَل ما يُلقي الشيطانُ فِتنة للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قُلوبُهم**﴾، [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع، المراد بمرض القلب فيها: مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿**يَانِساء النبي لَستُنَّ كَأَحدٍ من النساء إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعْنَ بالقول فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ**﴾. [الأحزاب: ٣٢] أي لا تلن

---

(1) ١٤ إغاثة جـ١.　(2) ١٦٠ أعلام جـ٤.　(3) ١١٠ مفتاح جـ١.

في الكـلام؛ فيطمـع الـذي في قلبه: فجور وزناء. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها، وتقويه، ولا تلينه وتكسره، فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الـرياسـة والعلو في الأرض، وهـذا المـرض مركب من: مرض الشبهـة والشهـوة، فإنـه لابـد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة: كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكـبر المـركب من تخيل عظمتـه وفضله وإرادة تعـظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة، الذي أفتوه بالغسل فمات: «قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ إنما شفاء العي السؤال» فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به: مرضاً، وشفاؤه: سؤال العلماء.

فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمّى الله ـ تعالى ـ كتابه شفاءً لأمراض الصدور. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاء لما في الصُّدور وهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب: نسبة العلماء إلى القلوب: كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب، فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم؛ فإن كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره فهم: حياة الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء، بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب: مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب: كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس.

فصل(١)

وأما قوله: «وجعل حدّ الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا رَيْبَ أن الشارع فَرّق بين الحر والعبد في أحكام، وسَوَّى بينهما في أحكام؛ فسوَّى بينهما في: الإيمان، والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة، والصلاة، والصوم، لاستوائهما في سببها، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج، والزكاة، والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببها، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبحَ من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن جعله مالكاً لا مملوكاً، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوّض الله عنها من المباحات، فقابَلَ النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية، فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه مَنْ هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿يَانِساءَ النَّبيِّ مَن يأتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ يُضاعَفْ لَها العذابُ ضِعْفينَ وكان ذَلِكَ على اللهِ يَسيراً ومَنْ يقنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وتَعْمَل صالحاً نُؤتِها أَجْرَها مَرَّتَينِ وأَعْتَدْنا لها رِزقاً كَريماً﴾[الأحزاب: ٣٠ - ٣١]، وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء مَنْ عَصاهم من خواصِّهم وحَشَمهم، ومن هو قريب منهم ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعاً بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في: النكاح، والطلاق، والعدة، إظهاراً لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين،

---

(١) ١٠٩ اعلام جـ٢.

بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجراً، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

(١)**فإن** قيل: فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه يغفر له ما لايغفر للعالم، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها، وعقوبته عليها: أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل.

وقد دلت الشريعة، وحكم الله على أن من حُبِيَ بالإنعام وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات، فارتعها في مراتع الهلكات، وتجرأ على انتهاك الحرمات، واستخف بالتبعات والسيئات، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته، وعلى هذا جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يانِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسيراً**﴾ [الأحزاب]، ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر، ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»، قال بعض السلف: يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب، وقال بعضهم أيضًا: إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء.

فالجواب: إن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريب فيه، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لايحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**»، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً فدل على أن مقتضىٰ عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من

---

(١) ١٧٦ مفتاح جـ١.

المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ماله من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان - رضي الله عنه - تلك الصدقة العظيمة، قال: «**ما ضر عثمان ما عمل بعدها**». وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «**أوجب طلحة**».

وهذا موسى كليم الرحمن - عز وجل - ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ وقال: شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. وأخذ بلحية هارون، وجره إليه، وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه، وربه - تعالى - يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذيه في الله، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور، ولا تغير في وجهه، ولا تخفض منزلته، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم إن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ　　　جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا　　　فأفعاله اللاتي سررن كثير

والله - سبحانه - يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم.

وأيضاً: فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل. وأيضا فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه، ويزيل أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس

معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية، فلا يستوي هذا وهذا. وهذا فصل الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبين أن الأمرين حق وأنه لامنافاة بينهما، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها، ويزيل أثرها، فعاد القبح في الموضعين إلى الجهل وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه ، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق.

فصل[1]

فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بها لا يسامح به غيره. ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه، وكذلك العالم أيضاً، يغفر له ما لا يغفر للجاهل، كما روى الطبراني بإسناد جيد - مرفوعاً إلى النبي ﷺ: **«إن الله - سبحانه - إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أُعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم. اذهبوا فقد غفرت لكم»**. هذا معنى الحديث. وقد روي مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: **﴿يانِساءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مُّبَيِّنةٍ يُضاعَفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾** [الأحزاب: ٣٠] **﴿ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً. إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وَضِعْفَ المَماتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ علينا نصيراً﴾** [الإسراء: ٧٤ - ٧٥]. أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: **﴿ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيْلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الوَتِينَ﴾** [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأَخذنا منه بيمينه، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التَّقول عليه - سبحانه - وكم من راكن إلى أعدائه، ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به، كأرباب البدع كلهم،

---

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.

المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وماذكرتم من قصة يونس: هو من هذا الباب، فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت، ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق، ولا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمه غيره، فَحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصّ بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غَفَل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم، ويأخذهم، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولاتناقض بين الأمرين.

(1)**الوجه** الثاني: أن الله ـ سبحانه ـ أنزل على نبيه الحكمة، كما أنزل عليه القرآن، وامتن بذلك على المؤمنين، والحكمة هي: السنة، كما قال غير واحد من السلف، وهو كما قالوا، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بيوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ**﴾[الأحزاب: ٣٤]، فنوع المتلو إلى نوعين: آيات وهي: القرآن، وحكمة وهي السنة والمراد بالسنة ما أخذ عن رسول الله ﷺ سوى القرآن، كما قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إنه مثل القرآن وأكثر**».

وقال الأوزاعي: عن حسان بن عطية: كان جبرائيل ينزل بالقرآن والسنة، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن، فهذه الأخبار التي زعم هؤلاء: أنه لا يستفاد منها علم، نزل بها جبرائيل من عند الله ـ عز وجل ـ كما نزل بالقرآن. وقال إسماعيل بن

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

عبدالله: ينبغي لها أن تحفظ عن رسول الله ﷺ فإنها بمنزلة القرآن.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**وما كَانَ لِمؤمنٍ ولا مُؤْمِنةٍ إذا قَضَى الله وَرَسُولهُ أَمْراً أن يَكُونَ لَهُم الخِيَرةُ مِنْ أمرِهِم**﴾ [الأحزاب: ٣٦] فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في أي مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان، وقد حكى الشافعي - رضي الله تعالى عنه - إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي - رضي الله عنه، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع فضلاً عن أنه يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذاً بالله من الخذلان.

(٢)**قال** - تعالى -: ﴿**وما كان لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى الله ورسُولُهُ أمْراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطع - سبحانه وتعالى - التخيير بعد أمره وأمر رسوله. فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفى أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته: أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟

فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله، إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً، ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله: لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها، حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة: قبلت حينئذ، وإن خالفته: وجب ردها وإطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين: جعلت موقوفة، وكان

(١) ٢٧ التبوكية.

(٢) ٥ زاد المعاد جـ١.

أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين: فكلا. . .

(١)**فاختيار** الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا كان لمؤمنٍ ولامؤمنةٍ إذا قضىَ الله ورسولُهُ أمراً أنْ يَّكُونَ لهم الخِيَرةُ مِن أمرِهم**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيارٌ كونيٌّ قدري. لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فِراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً، وتارة يكون مستحبا، وتارة يكون مباحاً مستوى الطرفين، وتارة يكون مكروهًا، وتارة يكون حرامًا. وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قَدر المعائب والذنوب ـ فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضى بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضىٰ بالقضاء. . .

(٢)فصل

في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص، وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، وذكر إجماع العلماء على ذلك.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قضى اللهُ وَرَسُولُه أمراً أَنْ يكونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمرِهم وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَه فقدْ ضَلَّ ضلالاً مبيناً**﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الَّذِين آمَنوا لا تُقَدِّموا بين يَدِي الله ورسولِه، واتَّقوا اللهَ إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيْم**﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤْمِنِينَ إِذَا دُعَوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بينهُمْ أَنْ يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إليْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لتحكُمَ بين النَّاسِ بما أَرَاكَ الله ولا تكُن للخائنين خَصيمًا**﴾. [النساء: ١٠٥].

(٣)**وقد** كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على مَنْ عارض حديثَ رسول الله برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان،

(١) ١٨٨ مدارج جـ٢. (٢) ٢٦٠ أعلام جـ٢. (٣) ٢٤٤ أعلام جـ٤.

ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على مَنْ يضرب له الأمثال، ولا يُسوِّغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان، بل كانوا عاملين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى الله ورسُولُهُ أمراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ من أمْرِهِم﴾. وبقوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾[النساء: ٦٥].

وبقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِنْ رَبِّكم ولا تَتبعُوا مِنْ دُونِهِ أولياء قَلِيلاً ما تَذَكَّرُون﴾ [الأعراف: ٣]، وأمثالها، فدفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم: «ثبت عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا». يقول: مَنْ قال بهذا؟! ويجعل هذا دفعاً في صدر الحديث، أو يجعل جَهْله بالقائل [به] حُجَّة له في مخالفته وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام مِن أعظم الباطل، وأنه لا يحل له دفع سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل.

وأقبح من ذلك عذره في جهله؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد على مخالفة تلك السنة، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين، إذ ينسبهم إلى اتفاقهم على مخالفة سنة رسول الله ﷺ. وأَقبحُ من ذلك عذره في دعوى هذا الإجماع، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث، فعاد الأمر إلى تقديم جهله على السنة، والله المستعان.

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال: لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتى نعرف مَنْ عمل به، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به، كما يقول هذا القائل.

(١)**تزوج** ﷺ زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَرا زَوَّجْناكَهَا﴾[الأحزاب: ٣٧] وبذلك كانت تفتخر على نساء النبي ﷺ. وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات». ومن خواصها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان هو وليها الذي زوجها للرسول ﷺ من فوق سمواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله

---

(١) ٥٣ زاد المعاد جـ٢.

ﷺ تبناه، فلما طلقها زيد زوجه الله تعالى إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه.

(١)**وأما** قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير رسول الله ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولابد، فأخفى في نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان تبنى زيداً قبل النبوة، والرب ـ تعالى ـ يريد أن يشرع شرعًا عامًّا فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد، وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد، واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له من فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك **﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجناكها﴾**، فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك، وتقول: أنتن زوجكن أهلوكن وزوجني الله ـ عز وجل ـ من فوق سبع سموات. فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب، ولا ريب أن النبي ﷺ حبب إليه النساء، كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه، والطبراني في الأوسط عنه ﷺ قال: «**حبب إلى من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**». هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم: «**حبب إليَّ من دنياكم ثلاث**». زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث: «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**».

وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا: ما همه إلا النكاح، فرد الله ـ سبحانه ـ عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** [النساء: ٥٤]، الآية. وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر، وتسرى بها، وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه ـ عليه السلام ـ كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة. وقد سئل رسول الله

(١) ٣٢٥ الجواب الكافي.

ﷺ عن أحب الناس إليه قال: «عائشة رضي الله عنها». وقال عن خديجة: «إني رزقت حبها»، فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرهم نساء».

فصل في هديه ﷺ في علاج العشق(١)

هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عَزَّ على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه، وإنما حكاه الله ـ سبحانه ـ في كتابه عن طائفتين من الناس: من النساء وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط. فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لُوطًا: ﴿وجَاء أَهْلُ المدينةِ يَسْتبشِرُون. قال إنَّ هَؤلاَءِ ضَيْفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تُخزُون. قالوا أو لم نَنْهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتي إنْ كُنْتم فاعلين. لَعَمْرُكَ إنَّهم لَفِي سَكْرَتِهم يَعْمَهُون﴾ [الحجر: ٦٧، ٧٢]. وأما ما زعمه بعض من لم يَقْدِرْ رسول الله ﷺ حق قدره: من أنه ابْتُلِي به في شأن زينب بنت جَحْشٍ، وأنه رآها فقال: «سبحان مقلِّب القلوب»! فأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: «أمسكها» حتى أنزل الله عليه: ﴿وَإذْ تَقُولُ لِلَّذي أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وَأَنْعمتَ عَلَيه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله وتُخْفي في نَفْسِكَ مَاالله مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه﴾ فظن هذا الزاعم: أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لايحتمله، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تَبَنَّاه، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شَمَم وتَرَفُّع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله». وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوج امرأة ابنه. لأن زيداً كان يدعىٰ ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه. وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له. ولهذا ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه الآية، يُعَدد فيها نعمه

---

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أَحَلَّ الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرّج مما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زَوَّجه إياها بعد قضاء زيد وَطَرَه منها لتقتدي أمته به في ذلك. ويتزوج الـرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُم الّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾[النساء: ٢٣] وقال في هذه السورة: ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم﴾[الأحزاب: ٤٠] وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدعِيَاءَكُم أبنَاءَكُم ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُم﴾ [الأحزاب: ٤]، فتأمَّل هذا الذبَّ عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أَحَبُّهن إليه عائشة - رضي الله عنها - ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد - سوى ربه - نهاية الحب. بل صح أنه قال: **«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»**. وفي لفظ: **«وإن صاحبكم خليل الرحمن»**.

(١)**فلما** كان رسول الله ﷺ مشتملاً على ما يقتضي أن يحمد مرة بعد مرة سمي محمداً، وهو اسم موافق لمسماه، ولفظ مطابق لمعناه؛ والفرق بين «محمد» و«أحمد» من وجهين:

أحدهما: أن «محمداً» هو المحمود حمداً بعد حمد فهو دال على كثرة حمد، الحـامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية و«أحمد» زيادة في الكيفية فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.

الوجه الثاني: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم «وأحمد» هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين وهو «محمد» على كونه محموداً، ودل الاسم الثاني وهو: «أحمد» على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا يبنيان من فعل المفعول، بناء منهم على أن أفعل التعجب والتفضيل إنما يصاغان من الفعل اللازم لا من المتعدي ولهذا يقدرون نقله من فعل

(١) ١٠٤ جلاء الأفهام.

وفعل إلى بناء فعل بضم العين. قالوا: والدليل على هذا أنه تعدى بالهمزة إلى المفعـول، فالهمزة التي فيه للتعدية، نحو ما أظرف زيداً، وأكرم عمراً وأصلهما ظرف وكرم. . . .

الفصل الثالث[1]

في معنى اسم النبي ﷺ واشتقاقه

هذا الاسم هو أشهـر أسمائه ﷺ، وهو اسم منقول من الحمد، وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعـظيمه، هذا هو حقيقة الحمد وبنى على زنة «مفعل» مثل معظم، ومحبب، ومسود، ومبجل نظائرها لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل فمعناه: من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة: كمعلم، ومفهم، ومبين، ومخلص، ومفرج ونحوها، وإن اشتق منه اسم مفعول فمعناه: من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعـد أخـرى: إمـا استحقـاقاً، أو وقوعاً، فمحمد هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى.

ويقال: حمد فهو محمد كما يقال: علم فهو معلم، وهذا علم وصفة اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ وإن كان علماً مختصًا في حق كثير ممن تسمى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرب تعالى، وأسماء كتابه، وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو: الله، الخالق، الباريء، المصور، القهار، فهذه أسماء له دالة على معان هي: صفاته، وكذلك القرآن، والفرقان، والكتاب المبين، وغير ذلك من أسمائه. وكذلك أسماء النبي ﷺ: «محمد، وأحمد، والماحي، وفي حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الـذي يمحـو الله به الكفر»**. فذكر رسول الله ﷺ هذه الأسماء مبيناً ما خصه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها وإلا فلو كانت أعلاماً محضة لا معنى لها لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان ـ رضي الله عنه ـ: .

وشـق له من اسـمـه ليجـله		فذو العرش محمود وهذا محمد

(١) ٩٢ جلاء الأفهام.

فصل(١)

إذا ثبت هذا فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله: جحوداً، وعناداً، وجهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون: يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه - عز وجل - للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْموداً﴾. [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف على معنى المقام المحمود فليقف على ما ذكره سلف الأمة من: الصحابة، والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف.

وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم: مسلمهم، وكافرهم: أولهم، وآخرهم، وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من: الهدى، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتى نال أتباعه شرف الدنيا والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا، من استحسن شيئًا دعا إليه.

---

(١) ٩٦ جلاء الأفهام.

وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة، وقد نظر الله ـ سبحانه ـ إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم، وعجمهم، إلا بقايا على آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وكثّر بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمًّا، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم: غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ، وأعاد، واختصر، وأطنب في ذكر: أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، حتى تجلت معرفته ـ سبحانه ـ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف: لا إلى من قبله، ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[العنكبوت: ٥١].

روى أبو داود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة؛ أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على غير نبيهم**»، فأنزل الله ـ عز وجل ـ تصديق ذلك: **﴿أو لم يَكْفِهم أنا أنزلنا عليك الكتابَ يُتْلىٰ عَلَيْهِم إنَّ في ذلك لرحمةً وذِكرىٰ لِقوم ٍ يُؤمِنُون﴾**، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟!

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**»، قال أبو ذر: «لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً». وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم التعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم؛ إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته

أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وماأرْسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان.

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت: ظله، وعهده، وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى. والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوارة: «محمد عبدي ورسولي، سميته: المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً، حتى

يقولوا: لا إلـه إلا الله». وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم. . . [١].

فصـــل [٢]
في هديه ﷺ في الذكر

كان النبي ﷺ أكمـل الخلق ذكراً لله ـ عز وجل ـ بل كان كلامه كله في ذكر الله، وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله؛ ووعده ووعيده: ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائـه، وتمجيده وحمـده وتسبيحـه: ذكـراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته: ذكراً منه له، وسكوته وصمته: ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظَعْنِه وإقامته. وكان إذا استيقظ قال: **«الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»**[٣]

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«كان إذا هَبَّ من الليل: كبر الله عشراً، وحَمِـدَ الله عشراً، وقـال: سبحـان الله وبحمده عشراً، سبحان الملك القدوس عشراً، وأستغفر الله عشراً، وهلّل عشرا، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً، ثم يستفتح الصلاة»**.

وقالت أيضاً: **«كان إذا استيقظ من الليل قال: لا إلـه إلا أنت سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زِدْني علماً، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، وهَبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»**. ذكرهما أبو داود[٤]

[٥]**الذكر**: عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة . . .

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكـره استغـراقًـا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً

---

(١) البحث مطول من أراده فليرجع إليه (ج). (٢) ٣٧ زاد المعاد جـ٢.
(٣) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي من حديث حذيفة بن اليمان.
(٤) استمر في ذكر الاستيقاظ وغيره ـ رحمه الله ـ (ج). (٥) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

من كل شيء. به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان: كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

(١)**الذكر** ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها. وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء. والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية. وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

(٢) . . . **وذكر** العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده، به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى: **﴿فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة: ١٥٢]، وقال ـ فيما يروي عنه نبيه ﷺ ـ: **«من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**.

والذكر الذي ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له، ومن كَثُف فهمه عن هذا فليجاوزه إلى غيره. فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يوماً. فقلت له: إذا كان، الرب ـ سبحانه ـ يرضى بطاعة العبد، ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته، فهل

---
(١) ٤٣٠ مدارج جـ٢. (٢) ٤٣٣ مدارج جـ٢.

يجوز أن يؤثِّر المحدث في القديم حبًّا وبغضاً وفرحاً وغير ذلك؟

فقال لي: الرب ـ سبحانه ـ هو الذي خلق أسباب الرضى والغضب والفرح، وإنما كانت بمشيئته وخلقه. فلم يكن ذلك التأثُّر من غيره، بل من نفسه بنفسه. والممتنع أن يؤثر غيره فيه. فهذا محال، وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاءها ويقدرها تقتضي رضاه ومحبته، وفرحه وغضبه: فهذا ليس بمحال. فإن ذلك منه بدأ وإليه يعود. والله سبحانه أعلم.

(١)**والمقصود:** أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقًّا هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذْكُرُوا الله ذِكْراً كَثِيراً**﴾ [الأحزاب: ٤١]. وقال: ﴿**وَالذَّاكِرِيْنَ الله كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ**﴾[الأحزاب: ٣٥].

وقال: ﴿**يا أيُّها الذين آمنُوا لَا تُلْهِكُم أموالُكُم وَلَا أَوْلَادُكُم عَنْ ذِكرِ الله وَمَنْ يفعل ذَلِكَ فَأُولئكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**﴾[المنافقون: ٩].

وقال: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «**سبق المفردون**، قالوا: يارسول الله! وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً**» وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**ذكر الله**». وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء. قال معاذ بن جبل: «ماعمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» وذكر رسوله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة. فالذكر للقلب: كالماء

---

(١) ٢٦٦ جلاء الأفهام.

للزرع، بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به[1]. وهو أنواع: ذكره بأسمائه، وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه: ١٢٤]. فذكره هنا كلامه الذي أنزله على رسوله. وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]. ومن ذكره سبحانه: دعاؤه، واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر.

[2] **قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً**﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنْتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يَرَى**﴾ [العلق: ١٤] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور: ٤٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور**﴾ [غافر: ١٩]إلى غير ذلك من الآيات. **وفي** حديث جبريل عليه السلام: أنه «سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

«**المراقبة**» دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله: كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

قال الجريري: من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى، والمراقبة: لم يصل إلى الكشف والمشاهدة. وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات

---

(١) قد أوضح المصنف رحمه الله من فوائد الذكر وثمراته ما لم يسبق إليه من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب فارجع إليه فإنه نافع جدًا.

(٢) ٦٥ مدارج جـ٢.

جوارحه. وقيل لبعضهم: متى يَهُشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً. وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غيره. وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله.

(١)بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ

وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين: (أحدهما): الدعاء والتبريك. (والثاني): العبادة. فمن الأول قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطهِّرُهُمْ وتُزَكّيهم بهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُم**﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿**وَلاَ تُصلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَتَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾[التوبة: ٨٤] وقول النبي ﷺ: «**إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب؛ فإن كان صائماً فليصل**»(٢). فسر بها قيل: «فليدع لهم بالبركة»، وقيل: «يصلي عندهم» بدل أكله. وقيل: «إن الصلاة» في اللغة معناها الدعاء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داع، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفسر بهما قوله تعالى: ﴿**وَإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي فَإنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاع إذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦].

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين، وهذا لفظ متواطيء لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى: ﴿**قُلْ آدْعُوا الذين زَعْمَتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ فِي السَّموات وَلاَ فِي الأَرْضِ**﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذيْنَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون**﴾[النحل: ٢٠]، وقول تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبأُ بِكُم رَبِّي لَوْلا دُعَاؤكمْ**﴾[الفرقان: ٧٧]، والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أي شيء يعبأه بكم لولا عبادتكم إياه. فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل. وقال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكم تَضرُّعاً وخُفْية إنه لا يُحِبُّ المُعْتَدين. وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وادْعُوه خَوْفاً وطمعاً**﴾

---

(١) ٨١ جلاء الأفهام.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

وقال تعالى إخباراً عن أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى؛ ودعوى الخلاف في مسمى الدعاء، وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية، هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازاً شرعيًا. فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة، وهو الدعاء، والدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة، لا مجازاً، ولا منقولة، لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة، والرأس، ونحوهما فهذا غاية تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً ولا خروجًا عن موضوعه الأصلي، والله أعلم.

فصـــل: هذه الصلاة من الآدمي

وأما صلاة الله ـ سبحانه ـ فنوعان: عامة، وخاصة:

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلاَئِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي: ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»، وفي حديث آخر أن امرأة قالت له: «صل عليَّ وعلى زوجي، قال: **صلى الله عليك وعلى زوجك**» وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني: ، صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدهما: أنها رحمته. قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك قال: صلاة الله: رحمته، وصلاة الملائكة: الدعاء.

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رحمة واستدعاء الرحمة من الله. وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: أن صلاة الله مغفرته. قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد بن سواء، عن جويبر عن الضحاك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم﴾، قال:

(١) تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف تفسيراً موسعًا اهـ.

صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. وهذا القول هو من جنس الذي قبله وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله ـ سبحانه ـ فرق بين صلاته على عباده ورحمته فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ. اَلَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضىٰ ذلك تغايرهما، هذا أصل العطفَ، وأما قولهم:

وألفى قولها كذبا ومينا

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله ـ سبحانه ـ خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، وتفسير المغفرة بالستر؛ وهو جزء مسمى المغفرة، وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة، ونظائر ذلك كثيرة، قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين.

واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال سنذكرها فيها بعد إن شاء الله تعالى، فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال: «اللهم ارحم محمداً وآل محمد» وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه أنه صلى عليه، ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لابد فيها من كلام، فهي ثناء من المصلي على

من يصلي عليه، وتنويه به، وإشارة لمحاسنه وما فيه، وذكره.

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال: «صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة». وقال إسماعيل في كتابه: حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[الأحزاب: ٥٦] قال: صلاة الله - عز وجل - ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء.

الوجه الثامن: أن الله - سبحانه - فرق بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿إن الله وملائِكَتَهُ يُصَلُّون على النَّبيِّ﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه - سبحانه - وثناء ملائكته عليه، ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة:

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة منهم المبرد، وغيره وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقيًّا بسبب تعدد الواضعين، ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، وما حكى عن الشافعي - رضي الله عنه - من تجويزه ذلك؛ فليس بصحيح عنه، وإنما أخذ من قوله: «إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم» فظن من ظن أن لفظ «المولى» مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما، وهذا ليس بصحيح؛ فإن لفظ «المولى» من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي، وأحمد - رضي الله عنهما - في ظاهر مذهبهما يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ، وهو عندهما متواطيء لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي رضي الله عنه - أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]، وقد قيل له: قد يراد بالملامسة المجامعة، قال: «هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً» فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا كلام بعض الفقهاء المتأخرين، وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً

بضعة عشر دليلاً في مسألة ـ القرء ـ من كتاب التعليق على الأحكام.

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ. وسنعود إلى هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾.

الوجه التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ أمر بالصلاة عليه عقيب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه. والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضاً عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم. فينقض اللفظ والمعنى، فيصير التقدير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا، وهذا ليس مراد الآية قطعًا؛ بل الصلاة المأمور بها فيها هي: الطلب من الله، ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه. فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن: صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشارة بذكر شرفه، وفضله والإرادة والمحبة كذلك من الله ـ تعالى ـ فقد تضمنت: الخبر، والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي منا: صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه. فصلاة الله عليه: ثناؤه، وإرادته لرفع ذكره، وتقريبه. وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا الله ـ تعالى ـ أن يفعل ذلك به، وضد هذا في لعنه أعداءه الشانئين لما جاء به، فإنها تضاف إلى الله، وتضاف إلى العبد، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَاأَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيّناهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابَ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ**﴾[البقرة: ١٥٩]. فلعنة الله لهم تتضمن: مقته، وإبعاده، وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن: سؤال الله ـ تعالى ـ أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة.

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً، كما يقال لطالب المغفرة: مستغفراً له، ولطالب العطف: مستعطفاً، ونظائره، ولهذا لايقال لمن سأل الله المغفرة لغيره، قد غفر له، فهو غافر، ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه. وهنا قد سمي العبد مصلياً، فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحماً لمن صلى عليه، وكانَ يقال: قد رحمه برحمة، ومن رحم النبي ﷺ مرة رحمه الله بها عشرا، وهذا معلوم البطلان. فإن قيل: ليس معنى صلاة العبد عليه ﷺ رحمته، وإنما معناها: طلب الرحمة من الله. قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن طلب الرحمة مشروع لكل مسلم، وطلب الصلاة من الله يختص برسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عند كثير من الناس، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

الثاني: أنه لو سمي طالب الرحمة: مصلياً، لسمي طالب المغفرة: غافراً، وطالب العفو: عافياً، وطالب الصفح: صافحاً، ونحوه.

فإن قيل: فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصلياً.

قيل: إنما سمي مصلياً لوجود حقيقة الصلاة منه، فإن حقيقتها الثناء، وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة، وهذا حاصل من صلاة العبد؛ لكن العبد يريد ذلك من الله ـ عز وجل ـ والله ـ سبحانه ـ يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله.

وأما على الوجه الثاني، وأنه سمي مصلياً لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبر والإرادة، وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة: فإنها أفعال لا تحصل من الطالب، وإنما تحصل من المطلوب منه، والله أعلم.

الوجه العاشر: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: **«أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً، وأن الله ـ سبحانه ـ قال له: من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشرا»**، وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة: أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله على المصلى على رسوله جزاء لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول

ﷺ وإرادة من الله أن يعلي ذكره، ويزيده تعظيماً وتشريفاً؛ والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثنى عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له.

«من يسر على معسر يسر الله عليه حسابه ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» «ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» «ومن صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً»، ونظائره كثيرة. يوضحه:

الوجه الحادي عشر: أن أحداً لو قال عن رسول الله: «رحمه الله» أو قال: «رسول الله رحمه الله» بدل ﷺ لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وعدوه مبتدعاً غير موقر للنبي ﷺ ولا مصل عليه ولا مثنٍ عليه بما يستحقه ولا يستحق أن يصلي عليه بذلك عشر صلوات، ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك.

الوجه الثاني عشر: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] فأمر سبحانه أن لا يُدعى رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضاً، بل يقال: يا رسول الله، ولا يقال: يامحمد، وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار، وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه برسول الله، وإذا كان هذا في خطابه فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء، وهو الصلاة عليه. ومعلوم أن الرحمة يدعى بها لكل مسلم، بل ولغير الآدمي من الحيوانات، كما في دعاء الاستسقاء **«اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك»**.

الوجه الثالث عشر: أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هوالدعاء والتبريك والثناء قال:

وإن ذكرت صلى عليها وزمزما

أي برك عليها ومدحها، ولا تعرف العرب قط: **«صلى عليه» بمعنى «رحمه» فالواجب حمل اللفظ على معناه المتعارف في اللغة.**

الوجه الرابع عشر: أنه يسوغ بل يستحب لكل واحد أن يسأل الله أن يرحمه فيقول: اللهم ارحمني كما علم النبي ﷺ الداعي أن يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني**»، فلما حفظها قال: «أما هذا فقد ملأ يديه من الخير».

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول: «اللهم صلِّ عليّ» بل الداعي بهذا معتد في دعائه، والله لا يحب المعتدين، بخلاف سؤاله الرحمة، فإن الله يحب أن يسأله عبده: مغفرته ورحمته، فعلم أنه ليس معناهما واحداً.

الوجه الخامس عشر: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» وقوله: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿**وكَانَ بالمؤمِنينَ رَحِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقوله: ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٧]، وقول النبي ﷺ: «**الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**». وقوله: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»، وقوله: «**من لا يرحم لا يُرحَمُ**»، وقوله: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**» وقوله: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**».

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في كثير منها، بل في أكثرها، فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة، والله أعلم.

[١]**وقد** قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَته يُصَلونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾، قال: يباركون عليه، وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك من الله يتضمن ذلك، ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه، وقالت الملائكة لإبراهيم: ﴿**رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه عليكم أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾[هود: ٧٣] وقال المسيح: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَاكُنْتُ**﴾ [مريم: ٣١] قال غير واحد من السلف: معلماً للخير أينما كنت، وهذا جزء المعنى، فالمبارك: كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليماً وإقداراً ونصحاً وإرادة واجتهاداً، ولهذا يكون العبد مباركاً لأن الله بارك فيه وجعله كذلك، والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك. ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ**

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام.

لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى. . . . .

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال: معناها رقة الطبع، وهي مستحيلة في حق الله ـ سبحانه ـ كما أن الدعاء منه ـ سبحانه ـ مستحيل، وهذا الذي قاله هذاعرق جهمي ينض من قلبه على لسانه، وحقيقته إنكار رحمة الله جملة، وكان جهم يخرج إلى الجذمى ويقول: أرحم الراحمين يفعل هذا؟! إنكاراً لرحمته سبحانه.

(١)**وقال** عبيدالله بن عمرو: حدثني بعض إخواني ممن أثق به قال: رأيت رجلاً من أهل الحديث في المنام فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمني، أو غفر لي. قلت: وبم ذاك؟ قال: إني كنت إذا أتيت على اسم النبي ﷺ كتبت ﷺ. ذكرها محمد بن صالح عن ثوابة عن سعيد بن مروان عنه.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه عن جماعة من أهل الحديث أنهم رؤوا بعد موتهم، وأخبروا أن الله غفر لهم بكتابتهم الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث.

وقال ابن سنان: سمعت عباساً العنبري، وعلي بن المديني يقولان: ما تركنا الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث سمعناه، وربما عجلنا فنبيض الكتاب في كل حديث حتى نرجع إليه.

فصل: الموطن الثاني والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس عند التذكير والقصص، وإلقاء الدرس، وتعليم العلم، في أول ذلك وآخره. قال إسماعيل بن إسحاق في كتابه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي ـ وهو الجعفي ـ عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز: «أما بعد: فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك، والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته وإلقائه إليهم ودعوتهم إلى سنته

(١) ٢٤٨ جلاء الأفهام.

وطريقته ﷺ. وهذا من أفضل الأعمال وأعظمها نفعًا للعبد في الدنيا والآخرة. . .

(١)**التاسعة** والثلاثون أنها متضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعامه على عبيده بإرسـاله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله، وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله، كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمنة لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجوب الرب المدعو وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وصفاته وكلامه، وإرسال رسوله وتصديقه في أخباره كلها وكمال محبته ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه به ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال.

الأربعون : أن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان: أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

والثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه، وإثارة ذكره، ورفعه، ولا ريب أن الله ـ تعالى ـ يحب ذلك ورسوله يحبه، فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله ورسوله، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه، وآثر عنده فقد آثر ما يحبه الله ورسوله، فقد آثر الله ومحابه على ماسواه، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم إذا أرادوا التقرب والمنزلة عندهم، فإنهم يسألون المطاع أن ينعم على من يعلمونه أحب رعيته إليه، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه وإكرامه وتشريفه علت منـزلتهم عنـده وازداد قربهم منه وحظوا بهم لديه لأنهم يعلمون منه إرادة الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبه، فأحبهم إليه: أشدهم له سؤالاً ورغبة أن يتم عليه إنعامه وإحسانه، هذا أمر مشاهد بالحس، ولا يكون منزلة هؤلاء ومنزلة من سأل المطاع حوائجه هو وفارغ من سؤاله تشريف محبوبه والإنعام عليه واحدة، فكيف بأعظم محب وأجله الأكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له؟ ولو لم يكن من فوائد

(١) ٢٦٩ جلاء الأفهام.

الصلاة عليه إلا هذا المطلوب وحده لكفى المؤمن به شرفاً.

وههنا نكتة حسنة لمن علم أمته دينه، وما جاءهم به، ودعاهم إليه، وحضهم عليه، وصبر على ذلك، وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر عمله مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه والمعلم الخير للأمة إذا قصد توفير هذا الحظ على رسول الله ﷺ وصرفه إليه وكان مقصوده بدعاء الخلق إلى الله التقرب إليه بإرشاد عباده وتوفير أجور المطيعين له على رسول الله ﷺ مع توفيتهم أجورهم كاملة كان له من الأجر في دعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**وأما** السؤال الرابع: وهو ما معنى السلام المطلوب عند التحية: «ففيه قولان مشهوران»: أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم، ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه ـ عز وجل ـ اسم السلام دون غيره من الأسماء، لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده، واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: «السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو: السلام، ولكن قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**». فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله لأن السلام على(٢) المسلم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم، والله ـ تعالى ـ هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو ا لمسلم على عباده، كما سلم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يصفونَ وَسَلَامٌ على الْمُرْسَلِين**﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وقوله: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ ﴿**سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ**﴾ ﴿**سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٩، ٧٩، ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿**وسلام عليه**﴾ وقال لنوح: ﴿**اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**﴾. [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ**

(١) ١٤٠ بدائع جـ٢.

(٢) في نسخة هو للمسلم عليه.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، [يس: ٥٧، ٥٨]، فقولاً منصوب على المصدر وفعله ما تضمنه سلام من القول لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه(١)، من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار ـ جل جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ: قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾** [يس: ٥٨]، **ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**».

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «**أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر**».

وقال تعالى: **﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾** [الأحزاب: ٤٤]، فهذا تحيتهم يوم يلقونه ـ تبارك وتعالى ـ ومحال أن تكون هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منه لهم، والتحية هنا مضافة إلى المفعول، فهي التحيةالتي يحيون بها، لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله تعالى في سورة يس: **﴿قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾** لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة كما قال تعالى: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم. وأما التحية المذكورة في قوله: **﴿تَحِيَّتُهم يوم يَلْقَونَه سَلَامٌ﴾** فتلك تحية لهم وقت اللقاء كما يحيي الحبيب حبيبه إذا لقيه، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ!!

يكفي الذي غاب عنك غيبته		فذاك ذنب عقابه فيه

والمقصود أن الله ـ تعالى ـ يطلب منه السلام، فلا يمتنع في حقه أن يسلم على عباده ولا يطلب له، فلذلك لا يسلم عليه. وقوله ﷺ: «**إن الله هو السلام**» صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، قالوا: فإذا قال المسلم: سلام عليكم. كان معناه اسم السلام عليكم. ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: «**أن رجلاً سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر**»، قالوا: ففي هذا الحديث

---

(١) في نسخة وسنن أبي داود.

بيان أن السلام ذكر الله، وإنما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدءون بالسلام، فلا يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم: سلمك الله. وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه. فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة.

القول الثاني أن السلام مصدر بمعنى السلامة وهو المطلوب المدعوّ به عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يذكر[1]، بلا ألف ولام، بل يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرفاً، كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى، فيقال: ﴿السَّلامُ الْمُؤمِنُ الْمُهيمِنُ الْعَزِيْزُ الجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يدل على أن المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.

ومن حججهم أيضاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم فإن الاسم نفسه ليس عليهم ولو قلت اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم.

ونحو ذلك من التقدير ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء وكما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا ولهذا كان السلام أماناً لتضمنه معني السلامة وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه. قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى: السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه والتاء تفيد التحديد كما تقدم.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال الحق في مجموع القولين فكل منهما بعض الحق والصواب في مجموعهما، وإنما تبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مرارًا.

وهي أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه

---

(١) في نسخة: أنه ينكر بلا وفي المخطوطة منكر بلا ألف.

بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب علي أنك أنت التواب الغفور». فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولي: **اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**».

وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**». وهذا كثيراً جدًّا فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله، كما في حديث ابن عمر، والثاني طلب السلامة، وهومقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في آمين: إنه اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ وأنكر كثير من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه آمين. ولم يفهموا معنى كلامه، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه ـ تبارك وتعالى ـ فإن معناها: استجب، وأعط ما سألناك، فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب، وهذا التضمن في سلام عليكم أظهر، لأن السلام من أسمائه ـ تعالى ـ فهذا كشف سر المسألة.

فصل[1]

وأما السؤال الرابع والعشرون وهو: ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فجوابه: أن التأكيد واقع على الصلاة والسلام، وإن اختلفت جهة التأكيد، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر في أول الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه، مؤكداً لهذا الإخبار بحرف أن مخبراً عن الملائكة بصيغة الجمع المضاف إليه، وهذا يفيد العموم، والاستغراق، فإذا استشعرت النفوس أن شأنه ﷺ عند الله وعند

(١) ١٨٨ بدائع جـ٢.

ملائكته هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه، وإن لم تؤمر بها، بل يكفي تنبيهها والإشارة إليها بأدنىٰ إشارة، فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر، بل إذا جاء مطلق الأمـر بادرت وسـارعت إلى موافقـة الله وملائكتـه في الصـلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر، ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد دون الخبر حسن تأكيده بالمصدر ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته ويقوم تأكيد الفعل مقام تكريره، كما حصل التكرير في الصلاة خبراً وطلباً، فكذلك حصل التكرير في السلام فعلاً ومصدراً، فتأمله فإنه بديع جدًّا، والله أعلم، وقـد ذكرنا بعض ما في هذه الآية من الأسرار والحكم العجيبـة في كتـاب تعظيم شأن الصلاة والسلام على خير الأنام، وأتينا فيه من الفوائد بما يساوي أدناها رحلة مما لا يوجد في غيره، ولله الحمد، فلنقتصر على هذه النكتة الواحدة.

فصـــل

وأما السؤال الخـامس والعشرون: وهو ماالحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية.

فهذا سؤال أيضاً له شأن لا ينبغي الإضراب عنه صفحاً وتمشية، والنبي ﷺ كان شديد التحري لتقديم ما قدمه الله والبداءة بما بدأ به.

فلهذا بدأ بالصفا في السعي وقال: **نبدأ بما بدأ الله به**.

وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء، ولم يخل بذلك مرة واحدة، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا لم يقدم منه مؤخراً، ولم يؤخر منه مقدماً قط، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك؛ لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف، ومع هذا فوقع في الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة.

وذلك لسر من أسرار الصلاة نشير إليه بحسب الحال إشارة، وهو أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منهـا نصيب من العبـودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبـودية لله وذلًّا له وخضـوعـاً، فلما أكمل المصلي هذه العبودية وانتهت حركاته

ختمت بالجلوس بين يدي الرب تعالى جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته ـ عز وجل ـ كما يجلس العبد الذليل بين يدي سيده، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس وأعظمه خضوعاً وتذللاً، فإذن للعبد في هذه الحال بالثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بأبلغ أنواع الثناء، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات.

وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم، وتلك التحية تعظيم لهم وثناء عليهم، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه، فجمع العبد في قوله: التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله، وأخبر أن ذلك له وصفاً وملكاً، وكذلك الصلوات كلها لله فهو الذي يصلى له وحده لا لغيره، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له: فكلماته طيبات، وأفعاله كذلك، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، فكانت الطيبات كلها له ومنه وإليه، له ملكاً ووصفاً، ومنه مجيئها وابتداؤها، وإليه مصعدها ومنتهاها، والصلاة مشتملة على: عمل صالح، وكلم طيب، والكلم الطيب إليه يصعد والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى، فلما أتى بهذا الثناء على الرب ـ تعالى ـ التفت إلى شأن الرسول الذي حصل هذا الخير على يديه فسلم عليه أتم سلام معرف باللام التي للاستغراق مقروناً بالرحمة والبركة هذا هو أصح شيء في السلام عليه فلا تبخل عليه بالألف واللام في هذا المقام.

ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين، وبدأ بنفسه لأنها أهم، والإنسان يبدأ بنفسه، ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام، وهو التشهد بشهادة الحق التي هي أول الأمر وآخره، وعندها كمل الثناء والتشهد.

ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب، فالتشهد يجمع نوعي الدعاء: دعاء الثناء والخير، ودعاء الطلب والمسألة، والأول أشرف النوعين، لأنه حق الرب ووصفه، والثاني حظ العبد ومصلحته. وفي الأثر: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها شرع فيها النوعين وقدم

الأول منها لفضله، ثم انتقل إلى النوع الثاني وهودعاء الطلب والمسألة، فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وأخرته، كما ذكرناه في كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبي ﷺ وفيه أيضاً أن الداعي جعله مقدمةبين يدي حاجته وطلبه لنفسه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه. وكذلك في حديث فضالة بن عبيد إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصلِّ على النبي ﷺ ثم ليدع.

فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقاً لهذا منتظماً له أحسن انتظام، فحديث فضالة هذا هو الذي كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه فصلوات الله وسلامه على من أكمل لنا دينه وأتم برسالته علينا نعمته وجعله رحمة للعالمين وحسرة على الكافرين.

فصل

وأما السؤال السادس والعشرون: وهو: ماالحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة؟ فجوابه: يظهر مما تقدم.

فإن الصلاة عليه طلب وسؤال من الله أن يصلي عليه، فلا يمكن فيها إلا لفظ الغيبة، إذ لا يقال: اللهم صل عليك، وأما السلام عليه فأتى بلفظ الحاضر المخاطب تنزيلاً له منزلة المواجه لحكمة بديعة جدًّا وهي أنه ﷺ لما كان أحبَّ إلى المؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأولى به منها، وأقرب، وكانت حقيقته الذهنية ومثاله العلمي موجوداً في قلبه، بحيث لا يغيب عنه إلا شخصه كما قال القائل.

مثالك في عيني وذكرك في فمي		ومثـواك في قلبي فأين تغيب

ومن كان بهذه الحال فهو الحاضر حقًّا، وغيره وإن كان حاضراً للعيان فهو غائب عن الجنان، فكان خطابه خطاب المواجهة والحضور بالسلام عليه أولى من سلام الغيبة تنزيلاً له منزلة المواجه المعاين لقربه من القلب وحلوله في جميع أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزء إلا ومحبته وذكره فيه كما قيل:

لو شق عن قلبي يرى وسطه ذكرك

والتوحيد في سطر لا إلـه إلا الله محمد رسول الله.

ولا تستنكر استيلاء المحبوب على قلب المحب وغلبته عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطاب الحضور والمشاهدة مع غاية البعد العياني لكمال القرب الروحى فلم يمنعهم بعد الأشباح عن محادثة الأرواح ومخاطبتها، ومن كثفت طباعه فهو عن هذا كله بمعزل وأنه ليبلغ الحب ببعض أهله أن يرى محبوبه في القرب إليه بمنزلة روحه التي لا شيء أدنىٰ إليه منها كما قيل:

يا مقيماً مدا الـزمـان بقلبي		وبـعـيداً عن ناظـري وعياني
أنت روحي إن كنت لست أراها		فهي أدنىٰ إليّ من كل داني.....

فصل[1]

وأما السؤال السابع والعشرون وهو: ماالحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة مع كونه سبحانه هو المخاطب الذي يناجيه العبد والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب مع كونه غائباً (فجوابه) أن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر فيجيء بعده المضمر وهذا نحو قول المصلي: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِ الْعَالَمِيْنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]. وقوله في الركوع: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى» وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال فأتىٰ بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي يثني به ولأجله عليه تعالى ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولابد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتىٰ بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالة على جميع الأسماء والصفات نحو قوله في رفع رأسه من الركوع: «اللهم ربنا لك الحمد».

وربما اقتصر على ذكر الرب تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى فتأمله فإنه لطيف المنزع جدًا، وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة اللهم كما في سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك». الحديث. وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الـرب نحـو قول المؤمنـين: ﴿رَبَّنَا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]. وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «ربِّ اغفِر لي، ربِّ اغفِر لي» وسر ذلك أن الله تعالى يسئل بربوبيته المتضمنة قدرته

(١) ١٩٣ بدائع جـ٢.

وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره ويثني عليه بإلـهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنىٰ. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك. فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثلة، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مصدر باسم الرب.

وأما الثناء فحيث وقع فمصدر بالأسماء الحسنى وأعظم ما يصدر به اسم الله جل جلاله نحو: (الحمد لله) حيث جاء ونحو، (فسبحان الله) وجاء: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] ونحوه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، حيث وقعت. ونحو: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٧]. ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِيْنَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. و﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ [الفرقان: ١] ونظائره[١].

[٢]**وأما** السؤال الثامن والعشرون فقد تضمن سؤالين: أحدهما: ماالسر في كون السلام في آخر الصلاة. والثاني: لم كان معرفاً (والجواب): أما اختتام الصلاة به، فإنه قد جعل الله لكل عبادة تحليلاً منها.

فالتحليل: من الحج بالرمي وما بعده وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب فجعل السلام تحليلاً من الصلاة، كما قال النبي ﷺ: **«تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»**. تحريمها هنا هو بابها الذي يدخل منه إليها. وتحليلها بابها الذي يخرج به منها.

فجعل التكبير باب الدخول، والتسليم باب الخروج، لحكمة بديعة بالغة يفهمها من عقل عن الله وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم وسافر فكره في استخراج حكمه وأسراره، وبدائعه وتغرب عن عالم العادة والإلف، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم بها من الأرواح، فإن الله لم يشرع شيئاً سدى، ولا خلوا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه، فيسجد القلب خضوعاً وإذعاناً.

فنقول وبالله التوفيق: لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل، وقطع جميع العلائق، وتطهر، وأخذ زينته، وتهيأ للدخول على الله ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك، فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى، وهو قول: الله أكبر. فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن لا يوجد

---

(١) تكملة البحث في سورة المائدة لعلاقته به في طلب المسيح المائدة من ربه (ج). (٢) ١٩٥ بدائع جـ٢.

في غيره، ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ولايؤدي معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث.

فجعل هذا اللفظ، واستشعار معناه، والمقصود به: باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه، فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيى منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره، فلا يكون موفياً لمعنىٰ الله أكبر، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ، ولا أتىٰ البيت من بابه، بل الباب عنه مسدود.

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه. وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوزي في بعض وعظه حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة، فكان أول قرى الضيف اليقظة، وكشف الحجاب لعين القلب، فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية، وقد تبعث قلبك في كل واد، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب.

والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو قبلة قلبه في الصلاة، ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها. فلو قضى حق: الله أكبر، وأتى البيت من بابه، لدخل، وانصرف بأنواع التحف والخيرات، فهذا الباب الذي يدخل منه المصلي وهو التحريم. وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى، فيكون مفتتحاً لصلاته باسمه تبارك وتعالى ومختتمًا لها باسمه، فيكون ذاكراً لاسم ربه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه، وآخرها باسمه، فدخل فيها باسمه، وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله، فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفره، بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه ـ تبارك وتعالى ـ ابتدرته الآفات والبلايا والمحن، وتعرضت له من كل جانب، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى.

وكان من تمام النعمة عليه أن كون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه. فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافياً فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده. فكما أن المنعم به هو الله وحده

فالمحمود عليه هو الله وحده. وقد عرف بهذا جواب السؤال الثاني، وهو مجيء السلام هنا معرفاً ليكون دالاً على اسمه السلام. وليكن هذا آخر الكلام في مسألة: سلام عليكم فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلداً ضخماً، هذا ولم نتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله فإنها مملوءة منها فمن أرادها فليأخذها من هنا وهناك والحمد لله رب العالمين.

[1]**الدليل** الحادي عشر. قوله ـ تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** [الأحزاب: ٥٧]. وهذه الأفعال أذى لله ورسوله قطعاً، بل أذى الله ورسوله يحصل بدونها. وقال ـ تعالى ـ: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾** [النساء: ٥٢]، فيجب أن يكون هذا الملعون في الدنيا والآخرة عادم النصير بالكلية، فلو كان ماله ودمه معصومين لوجب على المسلمين نصرته، وكانوا كلهم أنصاره وهذه مخالفة لقوله: **﴿فلن تجد له نصيرا﴾** . . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحزاب

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٨٢٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .[(١)] **ومما** تقدم بالرتبة ذكر السمع والعلم حيث وقع؛ فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفِيِّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم، وإن كان علمه تعالى متعلقًا بما ظهر وبطن وواقعًا على ما قرب وشطن، ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم.

وأما تقديم الغفور على الرحيم فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة. وفي الحديث أن النبي، ﷺ، قال لعمرو بن العاص: «**أبعثك وجهًا يسلمك الله فيه ويغنمك وأرغب لك رغبة من المال**».

فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿**وهو الرحيم الغفور**﴾ في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم.

والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿**فاكِهةٌ ونَخْلٌ ورُمَّان**﴾. [الرحمن: ٦٨]. وكقوله: ﴿**وملائِكتِهِ وجِبْرِيلَ ومِيكال**﴾. [البقرة: ٩٨].

[(٢)] **وأما** تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ ففيه معنى غير ما ذكره يظهره لمن تأمل سياق أوصافه العلى؛ وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله وهو الرحيم الغفور.

فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿**الحمدُ لله الذي لهُ مَا في السَّمواتِ وما في الأَرض**﴾. [سبأ: ١].

---

(١) ٦٣ البدائع جـ١.　　(٢) ٧٩ البدائع جـ١.

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبدًا، فإنه حمد يستحق لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبدًا، وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر؛ فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفًا بحمد قبله وحمد بعده.

ثم عقب هذا الحمد والملك بإسمي الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفًا عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها. فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي فقال: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها**﴾. [سبأ: ٢].

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته فقال: ﴿**وهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورِ**﴾. [سبأ: ٢].

فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمته ومغفرته. وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿**ربَّنا وَسِعْتَ كُلّ شيَءٍ رَحْمَةً وعِلْمًا**﴾. [غافر: ٧].

ومن الثاني ﴿**والله عليم حليم**﴾ [النساء: ١٢]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة اثنان يقولان: سبحانك

اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير.

ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع.

ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.

[1]**وأما** تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن غالبًا تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته.

ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها، وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها. ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [يونس: ٦١]. وتأخيرها عنها في سبأ، فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار ﴿**لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾. [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا لأن الساعة إنما تأتي من قِبَلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتديء وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾. [الزمر: ٦٨].

---

(١) ٧٤ البدائع جـ١.

وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس فإنه لمَا كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء. فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا(١).

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وما يعزُبُ عن ربِّك مِنْ مِثْقال ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماء**﴾. بخلاف قوله في سبأ: ﴿**عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّةٍ في السَّموات ولاَ في الأَرْضِ**﴾. فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله، وهو السموات كلها والأرض، ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس(٣)...

(٤)**وقد** شهد الله سبحانه لمن يرى أن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق، لا آراء الرجال بالعلم. فقال تعالى: ﴿**ويَرَى الذينَ أُوتُوا العِلْمَ الذِي أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ويَهْدِي إلى صِراطِ العَزيزِ الحميد**﴾. [سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾. [الرعد: ١٩]. فمن تعارض عنده ما جاء به الرسول وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته فهو أعمى عن الحق.

(٥)**الوجه** السادس: أن الله تعالى شهد لهم بأنهم أوتوا العلم بقوله: ﴿**ويَرى الـذِينَ أُوتُـوا العِلْمَ الذي أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ**﴾. وقوله: ﴿**حتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قالُوا للذيْنَ أُوتوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا**﴾. [محمد: ١٦]. وقوله: ﴿**يَـرْفَـعِ الله الـذِينَ آمَنُوا مِنْكُم والذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾. [المجادلة: ١١]. واللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي العلم الذي بعث الله به نبيه، ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبًا.

(٦)**وصف** الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿**وقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُور**﴾. [سبأ: ١٣].

---

(١) ١١٦ البداع جـ١.
(٢) هذا البحث من المؤلف مبني على إيضاح المؤلف والسهيلي لما ذكره وسيبويه، ص٦١ جـ١ فإن شئت فارجع إليه فهو بحث مطول ومشوق (ج).
(٣) يأتي قريبًا.
(٤) ٦ الصواعق جـ١.
(٥) ١٣١ الإعلام جـ٤.
(٦) ١٢٤ عدة الصابرين.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن الله قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. وقال: ﴿إِلَّا الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وقليلٌ ما هُم﴾. [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبدًا شَكُورًا﴾. [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنا ذريَّته هُمُ البَاقِينَ﴾. [الصافات: ٧٧]. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ﴿إنه كانَ عبدًا شَكورًا﴾.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿واشْكُرُوا لله إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُون﴾. [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: ﴿يَا مُوسى إني اصْطَفَيْتُكَ على النَّاسِ بِرِسَالاتي وبِكَلامِي فخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ﴾. [الأعراف: ١٤٤]. وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿ووَصَّينا الإِنْسَانَ بوالدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ وفِصَالُهُ في عَامَينِ أَنِ اشْكُرْ لي ولِوَالِدَيكَ إليَّ المَصير﴾. [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وإِنْ تَشْكُرُوا يرضَهُ لكُم﴾. [الزمر: ٧].

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إِنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنيفًا ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾. [النحل: ١١٩، ١٢٠]. فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه ﴿قانتًا لله﴾، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه ﴿شاكرًا لأنعمه﴾ فجعل الشكر غاية خليله . . .

(١)**وقال** عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن

---

(١) ١٣٢ عدة الصابرين.

سعيد بن عبدالعزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء.

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود أحبني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي، قال: يارب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم؛ فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن. فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إلـه غيره.

وقال أحمد: حدثنا عبدالرزاق بن عمران قال: سمعت وهبًا يقول: وجدت في كتاب آل داود: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن يدعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه.

وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾. [سبأ: ١٣]. . .

الباب التاسع والعشرون[1]

في انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء إلى كوني متعلق بخلقه وإلى ديني متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال

هذا الباب متصل بالباب الذي قبله وكل منهما يقرر لصاحبه فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه.

وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله،

---

(١) ٢٨٠ شفاء.

والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدرًا وشرعًا، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري.

وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق.

والأمران غير متلازمين فقد يقضي ويقدر ما لا يأمر به ولا شرعه.

وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره.

ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم.

وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر.

وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور.

وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي.

إذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان:

كوني قدري كقوله: ﴿**فلمَّا قَضْينَا عليهِ المَوْتَ**﴾. [سبأ: ١٤]. وقوله: ﴿**وقُضِيَ بَينَهُمْ بالحَقِّ**﴾. [الزمر: ٦٩]. وشرعي ديني كقوله: ﴿**وقَضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ**﴾. [الإسراء: ٢٣]. أي أمر وشرع ولو كان قضاء كونيًا لما عبد غير الله.

والحكم أيضًا نوعان فالكوني كقوله: ﴿**قال ربِّ احْكُم بالحقِّ**﴾. [الأنبياء: ١١٢]. أي افعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك. والديني كقوله: ﴿**ذلكم حكم الله يحكُمُ بينَكُم**﴾. [الممتحنة: ١٠] وقوله: ﴿**إنَّ الله يَحكُمُ ما يُريدُ**﴾. [المائدة: ١].

وقد يرد بالمعنيين معًا كقوله: ﴿**ولا يُشْرِكُ في حُكمِهِ أَحَدًا**﴾. [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي. والإرادة أيضًا نوعان:

فالكونية كقوله تعالى: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُريد**﴾. [البروج: ١٦] وقوله: ﴿**وإذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَـةً**﴾. [الإسراء: ١٦]. وقوله: ﴿**إنْ كانَ الله يُريد أنْ يُغويكُمْ**﴾. وقوله: ﴿**ونُريدُ أنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ**﴾ [القصص: ٥]. والدينية كقوله: ﴿**يُريدُ الله بكمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكمُ العُسْرَ**﴾. [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿**والله يُريدُ أنْ يَتوبَ عليكُمْ**﴾. [النساء: ٢٧]. فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة هل هما متلازمان أم لا.

فقالت القدرية الأمر يستلزم الإرادة واحتجوا بحجج لا تندفع.

وقالت المثبتة الأمر لا يستلزم الإرادة واحتجوا بحجج لا تندفع .

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية ، ولا يستلزم الإرادة الكونية ، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعًا ودينًا وقد يأمر بما لا يريده كونًا وقدرًا كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان ، مراد له دينًا لا كونًا .

وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كونًا وقدرًا ، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كونًا وقدرًا .

وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق ، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده ، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال وأن يوطن نفسه عليه . وكذلك أمره محمد ، ﷺ ، ليلة الإسراء بخمسين صلاة .

وأما أمر من علم أنه لا يؤمن بالإيمان فإنه سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه ، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم وحصلت من الأمر بالذبح .

فصل

وأما الكتابة :

فالكونية كقوله : ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنَا ورُسُلي﴾ . [المجادلة : ٢١]. وقوله : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُور مِنْ بعدِ الذِّكْر أنَّ الأَرْضَ يرثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ . [الأنبياء : ١٠٥]. وقوله : ﴿كُتِبَ عليه أنَّهُ من تولَّاهُ فإنَّهُ يُضلُّهُ ويهدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعير﴾ . [الحج : ٤].

والشرعية الأمرية كقوله ﴿كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ﴾ . [البقرة: ١٨٣]. وقوله : ﴿حُرِّمت عليكُمْ أُمَّهاتُكم﴾ . إلى قوله : ﴿كتابَ الله عَليكم﴾ . [النساء : ٢٣ ، ٢٤]. وقوله : ﴿وكَتَبْنَا عليهِمْ فيهَا أنَّ النَّفْسَ بالنَّفس﴾ . [المائدة : ٤٥]. فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر.

فصل

والأمر الكوني كقوله : ﴿إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شيئًا أَنْ يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكون﴾ . [يس : ٨٢]. وقوله : ﴿وما أمرُنَا إلَّا واحدة كلَمْحٍ بالبَصَر﴾ [القمر: ٥٠]. وقوله : ﴿وكانَ أمرُ الله مَفْعُولاً﴾ . [الأحزاب: ٣٧]. وقوله : ﴿وكان أمرًا مقضِيًا﴾

[مريم: ٢١]. وقوله: ﴿وإذا أردنا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فيهَا﴾. [الإسراء: ١٦]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين أحدهما أمرناهم بطاعتنا. الثاني: فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور.

ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك: قيل: هذا يبطل بالوجه.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها؛ فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم.

قال تعالى: ﴿وما كَانَ رَبُّك لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأهلُهَا مصلحونَ﴾. [هود: ١١٧].

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمرًا كونيًا قدريًا لا شرعيًا دينيًا بالفسق في القرية فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم

فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك.

والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني.

ومن الديني قوله: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسَانِ﴾. [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكم أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا﴾. [النساء: ٥٨]. وهو كثير.

فصل

وأما الإذن الكوني فكقوله تعالى: ﴿ومَا هُمْ بِضَارِّين بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بإِذْنِ الله﴾. [البقرة: ١٠٢]. أي بمشيئته وقدره.

وأما الديني فكقوله: ﴿ما قطعْتُم من لِينَةٍ أو تركتمُوهَا قَائِمَةً على أُصُولها فبإِذْنِ الله﴾. [الحشر: ٥]. أي بأمره ورضاه وقوله: ﴿أَرَأَيتُم ما أَنْزَلَ الله لكم مِن رِزْقٍ فجعلتُمْ منهُ حَرَامًا وحَلالاً قل آلله أَذِنَ لكُم أم على الله تَفْتَرُون﴾. [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله﴾. [الشورى: ٢١].

فصل

وأما الجعل الكوني فكقوله: ﴿إِنَّا جعلنا في أَعْنَاقِهم أغلالاً فهِيَ إلى الأَذْقانِ فهُمْ مُقْمَحُونَ * وجَعلنَا مِنْ بينْ أَيْدِيهِمْ سدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾. [يس: ٨، ٩]. وقوله: ﴿ويَجعلُ الرِّجْسَ على الذينَ لاَ يَعقِلونَ﴾. وقوله: ﴿والله جَعَلَ لكم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْواجًا﴾. [النحل: ٧٢]. وهو كثير.

وأما الجعل الديني فكقوله: ﴿ما جَعَلَ الله مِنْ بحِيرةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ﴾. [المائدة: ١٠٣]. أي ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له واقع بقدره ومشيئته. وأما قوله: ﴿جَعَلَ الله الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِيامًا للنَّاس﴾. [المائدة: ٩٧]. فهذا يتناول الجعلين فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.

فصل

وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿وكذلكَ حقَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ على الذينَ فَسَقُوا أَنَّهُم لا يُؤمِنون﴾ [يونس: ٣٣]. وقوله: ﴿وتَمَّت كلمَةُ ربِّكَ الحُسْنَى على بَنِي إسرائيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾. [الأعراف: ١٣٧]. وقوله، ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما خلق» فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون،

ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الدينى فكقوله: ﴿**وإنْ أَحدٌ مِنَ الْمُشرِكِينَ اسْتَجارَكَ فأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله**﴾. [التوبة: ٦]. والمراد به القرآن، وقوله، ﷺ، في النساء: «**واستحللتم فروجهن بكلمة الله**» أي بإباحته ودينه وقوله: ﴿**فانْكِحُوا ما طَابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ**﴾. [النساء: ٣]. وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿**وصَدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكُتُبِه**﴾. [التحريم: ١٢]. فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهى ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه وكلمات تكوينه وتجعلها خلقًا من جملة مخلوقاته.

فصل

وأما البعث الكوني فكقوله: ﴿**فإذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عليكُم عِبادًا لَنا أُولِي بَأْسٍ شَديدٍ**﴾ [الإسراء: ٥]. وقوله: ﴿**فَبَعَثَ الله غُرابًا يَبْحَثُ في الأَرضِ**﴾. [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني فكقوله: ﴿**هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم**﴾. [الجمعة: ٢]. وقوله: ﴿**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبشِّرين ومُنْذِرينَ**﴾. [البقرة: ٢١٣].

فصل

وأما الإرسال الكوني فكقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلنَا الشَّياطِينَ على الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُم أَزًّا**﴾. [مريم: ٨٣]. وقوله: ﴿**وهُوَ الذي أرسَلَ الرِّياحَ**﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الديني فكقوله: ﴿**هوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودِينِ الحَقِّ**﴾. [التوبة: ٣٣]. وقوله: ﴿**إنَّا أَرْسَلنَا إليكُم رَسُولاً شاهِدًا عَليكُمْ كما أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً**﴾. [المزمل: ١٥].

فصل

وأما التحريم الكوني فكقوله: ﴿**وحَرَّمنا عليه المَراضِعَ من قَبْلُ**﴾ [القصص: ١٢]. وقوله: ﴿**قال فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عليهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾. [المائدة: ٢٦]. وقوله: ﴿**وحَرامٌ على قرية أهلَكْناها أنَّهمْ لا يَرجِعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وأما التحريم الديني فكقوله: ﴿**حُرِّمَتْ عليكُمْ أُمَّهاتُكم**﴾. [النساء: ٢٣]. و﴿**حُرِّمَت عليكُمُ المَيتَةُ**﴾. [المائدة: ٣]. ﴿**وحُرِّمَ عليكُمْ صيدُ البرِّ ما دُمتُم حُرُمًا**﴾. [المائدة: ٩٦].

﴿وأَحَلَّ الله البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾. [البقرة: ٢٧٥].

فصل

وأما الإيتاء الكوني فكقوله: ﴿والله يُؤتي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ﴾. [البقرة: ٢٤٧]. وقوله: ﴿قُلِ اللهم مَالِكَ المُلْكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾. [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿وآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ٥٤]. وأما الإيتاء الديني فكقوله: ﴿ومَا أتاكُم الرَّسولُ فَخُذُوهُ﴾. [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيْنَاكم بقُوَّةٍ﴾. [الأعراف: ١٧١]. وأما قوله: ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيراً كَثيراً﴾. [البقرة: ٢٦٩]. فهذا يتناول النوعين فإنه يؤتيها من يشاء أمرًا ودينًا، وتوفيقًا وإلهامًا.

فصل

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها، وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، ودين الرسل وأتباعهم دين الأمر. فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره. وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره لا يقولون نحن واقفون مع مراد الله[1]. نعم مع مراده الكوني أو الديني ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني ولا يكون ذلكم عذرًا لكم عنده إذ لو عذر بذلك لم يذم أحدًا من خلقه ولم يعاقبه ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله وبالله التوفيق.

[2]**وسئل** ﷺ، عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة، فقال: «**ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب؛ فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة؛ فأما الذين تشاءموا فلخْم وجُذَام وغسَّان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريُّون وحِمْيَر وكِندة ومَذحِج وأنمار**» فقال رجل: يارسول الله وما أنمار؟ فقال: «**الذين منهم خثعم وبجيلة**».

[3]**وهاهنا** نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه

(١) كذا وقع، وهو خطأ، والصواب: «... ويقولون...... نعم مع مراده الكوني لا الديني...» راجع الطبعة المحققة جـ٢ ص٢٩٦.

(٢) ٢٧٣ الإعلام جـ٤. (٣) ٢٢ الجواب.

من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سُلِّط عليه عقوبة له. قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرأْتَ القُرآنَ فاسْتَعذْ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيم * إنَّه ليْسَ لهُ سُلطانٌ على الذينَ آمَنُوا وعلى ربِّهِم يَتوكَّلون * إنَّما سُلطانُهُ على الـذِينَ يَتولَّونَهُ والذينَ هم بهِ مُشركون﴾. [النمل: ٩٨-١٠٠]. فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له ﴿وقَالَ الشَّيطانُ لمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ الله وَعَدَكُم وعْدَ الحَقّ وَوعدتُكُم فأَخْلَفتُكم وما كانَ لي عليكُم مِنْ سُلطانٍ إلاَّ أن دَعوتُكم فاسْتَجبتُم لِي﴾. [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ولَقَد صَدَّقَ عليهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَريقًا مِنَ المُؤمنِينَ وما كانَ لهُ عليهِمْ مِنْ سُلطانٍ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤمنُ بالآخرةِ مِمَّن هُوَ منها فِي شَكٍّ﴾. [سبأ: ٢٠-٢١].

قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم، وسوقه إيَّاهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجـة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته؛ فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصـود أن من قصـد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

. . . [1]**فحججه** سبحانه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات، مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد

---

(١) ٩٤ الصواعق جـ١.

وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها: ﴿قُلِ ادْعوا الذينَ زَعمْتُم مِنْ دونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّموات ولاَ فِي الأَرْضِ وما لَهُمْ فيهما مِنْ شِرْكٍ وما لهُ منهم مِنْ ظَهير * ولا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمَنْ أَذِنَ لهُ﴾. [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه. فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة لم يتعلق قلبه به.

وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكًا لمالكها. أو ظهيراً أو وزيرًا، أو معاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده.

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض. فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركها له.

فيقول المشرك: قد يكون ظهيراً أو وزيرًا أو معاونًا فقال: ﴿وَمَا لهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِير﴾. ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه؟

(١) **وقد** قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلّق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليًّا، أو شفيعًا. فهو ﴿كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ اتَّخَذَتْ بيتًا وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبيتُ العَنْكَبوتِ﴾. [العنكبوت: ٤١].

فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّموات ولاَ فِي الأَرْضِ وماَلَهُمْ فيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ومَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ * ولاَ تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أذِنَ لهُ﴾. [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

---

(١) ٣٤٣ المدارج جـ١.

إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك. فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيراً، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيراً كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلْكَ، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادِّهِ لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدَّع بتجريد متابعة الرسول، ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حيٌّ يرى ذلك عيانًا، والله المستعان.

(١)**قال** البخاري حدثنا الحميدي وعلي بن المديني قالا حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يحدث أن النبي، ﷺ، قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير**». الحديث ورواه النسائي في التفسير وابن ماجه وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

---

(١) ٢٧٨ الصواعق جـ٢.

وروى أبو داود من حديث علي بن الحسين بن أشكاب حدثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبدالله قال قال رسول الله، ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبرائيل فإذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم فيقولون: يا جبرائيل ماذا قال ربكم قال الحق، فينادون الحق الحق**». وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات.

وقد فسر الصحابة هذه الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح.

فقال أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن كامل بن خلف حدثنا محمد بن سعد حدثنا أبي حدثنا عمي حدثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**حتَّى إذَا فُزِّعَ عنْ قلوبِهِم قالُوا ماذَا قَالَ رَبُّكُم قالوا الحَقّ وهُوَ العَلِيّ الكَبِيرُ**﴾. [سبأ: ٢٣]. قال: لما أوحى الجبار جل جلاله إلى محمد، ﷺ، دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم فسألوا عما قال الله تعالى قالوا الحق علموا أن الله تعالى لا يقول إلا حقًّا وأنه منجز ما وعد. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خروا سجدًا فلما رفعوا رؤوسهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير، وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد متداول بين أهل العلم وهم ثقات...

(١)**فإن** قيل فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ أمْ مَنْ يملكُ السَّمْعَ والأَبْصَار**﴾. [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ ﴿**قلْ من يرزقكم من السَّمواتِ والأَرْضِ قل الله**﴾. قيل هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقًا فتدبر السياق تجده نقيضًا لما وقع فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه

---

(١) ١١٧ البدائع جـ١.

غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئًا من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾. [يونس: ٣١]. أي لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به. والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لا سيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب فإنه يسمى سماء لعلوه وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحابًا فيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ﴾. [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره[1].

[2] **وقال** تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِم يَرْجِعُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ القَوْلَ يَقُولُ الذينَ اسْتُضْعِفُوا للذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُم لَكُنَّا مُؤمِنين * قالَ الذينَ اسْتَكْبَرُوا للذينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكم عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنتُم مُجْرمين * وقالَ الذينَ اسْتُضْعِفُوا للذينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكفُرَ بالله ونَجْعَلَ لهُ أَنْدَادًا﴾. [سبأ: ٣١-٣٣].

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعَت بهِمُ الأَسْبَابُ * وقالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنهُم كَما تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وصح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**». وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان

(١) تكملة البحث تقدم في سورة يونس.
(٢) ٤١٢ الهجرتين.

واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يارب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعـرف سوى ما أنـا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق. فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلاً، والثاني كمن لم يطلبه بل مات على شركه ـ وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجـة أم لا، فذلـك مما لا يمكن الـدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿رُسُـلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْـذِرِينَ لِئـلَّا يَكُونَ للناس على الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾. [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلقِيَ فيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِير * قَالُوا بَلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبنَا وقُلْنا ما نَزَّلَ الله مِنْ شَيءٍ﴾. [الملك: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. [الملك: ١١].
وقال تعالى: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عليكُمْ آياتي ويُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا على أَنْفُسِنا وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا وشَهِدُوا على أَنْفُسِهِم أَنَّهُمْ كانُوا كَافِرِينَ﴾. [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالى: ﴿وما ظَلَمْناهُمْ ولكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾. [الزخرف: ٧٦]. والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم[1]؟.

[2] **وأما** تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿ومَا أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلَادُكم بالتي تُقَرِّبكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [الأنفال: ٢٨] وقوله: ﴿لا تُلهِكُمْ أموالُكمْ ولا أَولَادُكم عن ذِكرِ الله﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدمًا كما في قوله: ﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخوانُكمْ وأَزْواجُكم وعَشيرَتُكمْ وأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُموهَا﴾. [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ﴾. [آل عمران: ١٤]. فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة فلأنها ينتظمها معنى واحد وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة فهي في موضع عن الالتهاء بها.

وأخبر في موضع أنها فتنة وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم ففي ضمن هذا: النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم. وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

[3] **وذكر** البيهقي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الأعراف.	(٢) ٧٤ البدائع جـ١.	(٣) ٧٣ الروح.

النبي، ﷺ في هذه الآية: ﴿سُبحانَ الذي أسْرَى بعبدِهِ لَيلاً﴾. [الإسراء: ١]. إلا أنه قال: أتي بفرس فحمل عليه قال كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ﴿وما أنفقْتُم مِنْ شيءٍ فَهُوَ يخْلِفهُ وهُوَ خيرُ الرَّازِقين﴾. [سبأ: ٣٩]. ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء من ذلك قال ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.

قال ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد. . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**قُلْ إنَّما أَعِظُكُم بِواحِدة أنْ تقُومُوا لله مَثْنَى وفُرادَى ثُمَّ تَتَفكَّرُوا ما بِصَاحِبِكم مِنْ جِنَّة إنْ هُوَ إلاَّ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَاب شَديد**﴾. [سبأ: ٤٦].

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق حالتان:

إحداهما أن يكون مناظرًا مع نفسه. الثانية أن يكون مناظرًا مع غيره، فأمرهم بخصلة واحدة وهي أن يقوموا لله اثنين اثنين، فيتناظران ويتساءلان بينهما واحدًا واحدًا، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال. فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام.

(٢)**وكمال** هذه السعادة بأمرين آخرين: أحدهما دعوة الخلق إليه والثاني صبره واجتهاده على تلك الدعوة. فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربع:

إحداها العلم بما جاء به الرسول، ﷺ، والثانية العمل به. والثالثة نشره في الناس ودعوتهم إليه. والرابعة صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه. ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقًا:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم　　فقد وضحت للسالكين عيانًا

وقال تعالى لرسوله، ﷺ: ﴿**قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِي وإنِ اهْتَدَيْتُ**

(١) ١٠٠ الصواعق جـ١.　　(٢) ١٨٨ المدارج جـ٣.

فبِمَا يُوحِي إليَّ ربي إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ﴾. [سبأ: ٥٠]. فهذا نص صريح في أن هدي الرسول، ﷺ، إنما يحصل بالوحي، فيا عجبًا، كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن ﴿مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ تَجِدَ لهُ وليًّا مُرْشِدًا﴾. [الكهف: ١٧]. فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى والحمد لله رب العالمين.

(١)**جعل** الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى: ﴿وحِيلَ بينَهُمْ وبيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بأشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ إنَّهُمْ كانُوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾. [سبأ: ٥٤]. فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أيُّهُم أشَدُّ على الرَّحمنِ عِتِيًّا﴾. [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا أي تابعه ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُم وكَانُوا شِيَعًا﴾. [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿وحِيْلَ بينَهُم وبيْنَ ما يَشْتَهُونَ كما فُعِلَ بأشْيَاعِهِم مِنْ قَبْلُ﴾. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع. ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوًّا على الله وأعظمهم فسادًا فنلقيهم في النار.

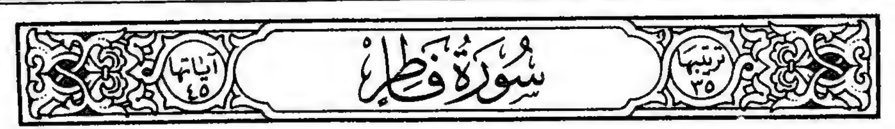
وفيه إشارة إلى العذاب يتوجه إلى السادات أولاً ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه كما كانوا تبعًا لهم في الدنيا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

---

(١) التبوكية.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل[1]

وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿**يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ**﴾. [فاطر: ١]. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**لا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذرَّةٍ من كِبر**» قالوا: يارسول الله: الرجلُ يحبّ أن يكون نعله حسنةً وثوبه[2] حسنًا فذلك من الكِبر؟ قال: «**لا؛ إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاس**»[3]. فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله.

وعلامته أن يكون لنفسه أشدّ ازدراء واستصغارًا منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا. . . .

[4]﴿**مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [فاطر: ٢].

فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلب القلوب، ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر

---

(١) ٢٣٧ روضة المحبين. (٢) في النسختين: ولونه.
(٣) قال في تيسير الوصول: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي. (٤) ٦٠ طريق الهجرتين.

من الأول، لكن من تدبر طريقة القرآن تبين له أن الله ـ سبحانه ـ يدعو عباده بهذا إلى الوجه الأول، فهذا الوجه يقتضي التوكّل على الله والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبته وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول.

وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة، أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرَّع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان به، والإنابة إليه وما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبيد إلى الله دون ما سواه من ذكر نعمائه عليهم، وذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات. . . .

. . . (1)**وبالجملة:** من نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها: وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص.

وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ**﴾. [فاطر: ٥].

وتنادي بلسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾. [الكهف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا**

(1) ٢٧٩ مدارج جـ٣.

إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها، فقال: ﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

[1] . . . **ومنها**: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه ـ سبحانه ـ ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه ـ سبحانه ـ والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره. فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين، ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه؛ وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية. فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوًا من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾. [فاطر: ٦]. فاتخاذه عدوًا أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

---

(١) ١٩٦ مدارج جـ٢.

ومنها أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد. فخُلِقَ الشيطان مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل. فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلومًا له مطابقًا لعلمه السابق. وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠]. فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم ـ سبحانه ـ بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية هلاك ثمود وقوط لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول ـ سبحانه ـ عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [الشعراء: ١٧٤، ١٧٥]. فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضًا: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل ـ وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب ـ لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلـهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها. . . .

(١)**والمعصية** تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله ـ تعالى ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾. [فاطر: ١٠]. أي فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعته. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. قال الحسن البصري: إنهم إن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه. وقال عبدالله بن مبارك:

رأيت الذنوب تميت القلو ... ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو ... ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها

(٢)**قال** الله ـ سبحانه ـ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. بين ـ سبحانه ـ في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًّا حميدًا ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير: فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة. كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنيّ بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له.

ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون. فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار.

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي (٢) ٨ طريق الهجرتين

وفقر العالم إلى الله ـ سبحانه ـ أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه ـ سبحانه ـ كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته ـ تعالى ـ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب ـ سبحانه ـ إلا غنيًّا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب ربًّا، إذا عُرف هذا، فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا مصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين. فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق. ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام. ومن عرف ربه بالعزّ التام عرف نفسه بالمسكنة التامة. ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل فالله ـ سبحانه ـ أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد.

ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره. فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحش العادية، وحفر

الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحيّل على مصالحه، والتحرّز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبًا من المُلك، وادعى لنفسه ملكًا مع الله ـ سبحانه ـ ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره.

كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله، ﷺ، بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «**قال الله تعالى: يابنَ آدم أنَّى تُعْجِزُني وقد خلقْتُكَ من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتك وعدلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟!**».

(١)**فتأمل** قوله تعالى في الآية: ﴿**أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ**﴾ [فاطر: ١٥]. باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين.

وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه، ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام.

(٢)**فقر** العبد إلى أن يعبد الله ـ سبحانه ـ وحده لا يشرك به شيئًا؛ ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلـهه الحق الذي لا إلـه إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحًا فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في حال، وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلـهه الحق فلابد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس

(١) ١١ طريق الهجرتين (٢) ٣٠ إغاثة جـ١

الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبخُس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة، لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالات من بخُس حظه من معرفة الرحمن، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار وزبالة الأذهان. بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشان، والله المستعان وعليه التكلان.

(١)**قال** تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. [فاطر: ٢٨]. فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علمًا. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه منه وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفًا وحبًّا، فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلاً عن الاستقامة، فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة عل ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف. وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه. فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه. وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران. لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان.

فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة، بل

(١) ٢٨٣ طريق الهجرتين

يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

وأما إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ـ عز وجل ـ، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. كما ثبت عن النبي، ﷺ. وكانت أكثر يمينه «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**».

(١)**الوجه** الحادي والعشرون: أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس بذلك، فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾. [فاطر: ٢٨].

وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾. [البينة: ٨]. وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

(٢)**قوله:** ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩]. وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء؛ إنما العالم من يخشى الله. وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علمًا وبالاغترار بالله جهلاً.

(٣)**ومن** علامات المعرفة: الهيبة، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. أي العلماء به. وقال النبي، ﷺ: «**أنا أعرفكُم بالله، وأشدُّكم له خشية**».

ومن عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١.	(٢) ١٧٢ شفاء.	(٣) ٤٣٢ روضة المحبين.

خوف المخلوقين، وأنسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

(١)**ومقام** الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي، ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**». **ومقام الهيبة جمع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم**.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس. ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الإيمان كله شكرًا. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣].

(٢)**السبب** الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. [فاطر: ٢٨].

(٣)**وقوله**: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني. فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل.

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١.		(٢) ٢٧١ طريق الهجرتين.

(٣) ١٧٢ شفاء العليل.

وبقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. [فصلت: : ١٧]. وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. [الإسراء: ٥٩]. وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. [النمل: ١٤]. وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾. [العنكبوت: ٣٨]. وقال موسى فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾. [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. [الأنعام: ٢٠]. يعني: القرآن أو محمدًا، ﷺ. وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القرآن، قيل حجج الله لا تتناقض، بل كلها حق، يصدق بعضها بعضًا، وإذا كان ـ سبحانه ـ قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقرَّ به وبرسالته، وبأنه حرم ذلك، وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق. وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. [الفرقان: ٦٣].

فالجاهلون هنا: الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال ـ تعالى ـ عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار.

[1]**عن** ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. قال:

---

(١) ٢٩ شفاء العليل.

الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير، وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعـرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها، ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها؛ بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به.

ومن لا يقر بأن الله ـ سبحانه ـ كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وأنه ـ سبحانه ـ مقلب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: «**من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**». وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى، كلمه منها. وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها. وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلى لهم يضحك. وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها، وينزوي بعضها إلى بعض.

إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير. فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن. وقد كان ابن عباس شديدًا على القدرية. وكذلك الصحابة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل(1)

وأما إماتة قلوبهم، ففي قوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾. [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿**لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا**﴾ [يس: ٧٠] وقوله: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢]. فوصف الكافر بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك

(1) ١٠٤ شفاء العليل.

أن القلب الحي هو الذي يعرف، الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

وكذلك وصف ـ سبحانه ـ كتابه ووحيه بأنه روح لحصول حياة القلب به، فيكون القلب حيًا ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، نور الوحي على نور الفطرة. قال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فجعله روحًا لما يحصل به من الحياة، ونورًا لما يحصل به من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها؛ فهو نور على نور، وحياة على حياة.

(١) **المتابعة** هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾. [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. [البقرة: ١٢١]. والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته، وقصصته: بمعنى تبعت خلفه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾. [الشمس: ١، ٢]. أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا، أي يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى، وهذه التلاوة وسيلة وطريقة.

والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقًا بخبره وائتمارًا بأمره،

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

وانتهاء بنهيه، وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت معه. فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا.

(١) **قال:** وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا عُقبة بن صهبان الهنائي قال: سألتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله، ﷺ، شهد له رسول الله، ﷺ، بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»، فجعلتْ نفسها معنا.

(٢) **والمقصود** الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه.

فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلى دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده.

فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب ـ سبحانه ـ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنًا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة

---
(١) ٨٦ إغاثة جـ١. (٢) ٢٠٣ طريق الهجرتين.

واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أمر، مكمِّلاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من: الخشوع، والمراقبة، والحضور بين يدي الرب. فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه. . .

. . . [1]**ثم** الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾. [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجًا وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره. وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

---

(١) ١٨٦ طريق الهجرتين.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيىء به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسرانًا بينا أن يمر عليه وقت في غير متجر. فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة. فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونًا ووعدًا بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله. وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها، قائمًا بأعيانها، مؤديًا واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول. فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته. فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب. وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار، ومقربون. وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**﴾. [فاطر: ٣٣]. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم، على قولين[1]...

الحزن: هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ**﴾ [فاطر: ٣٤]. فحمده على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها. وفي الصحيح عن النبي، ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال**». فاستعاذ ﷺ، من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان:

فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم، ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان، فإنّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

والمقصود أن النبي، ﷺ، جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف

---

(١) ٢٧٨ طريق الهجرتين.

القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠]. فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. . .

(١) . . . **طريقة** القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٩٨]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. وفي هذا معنى التعليل أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

(٢) **قال** تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]. فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**».

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته. وكلما منع شيئًا من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول

---

(١) ٩٥ جلاء الأفهام.	(٢) ١٨٩ فوائد.

ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

[(١)] **قال** تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما: الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلك؟ أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض. وأخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه ﴿**تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾[(٢)]. [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه.

ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد

[(٣)] **وإذا** أردت معرفة صبر الرب ـ تعالى ـ وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾. [فاطر: ٤١]. وقوله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا**﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. وقوله: ﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ [إبراهيم: ٤١]. على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما. وأمسكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره ـ تعالى ـ فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس

---

(١) ١١٧ الجواب الكافي.

(٢) يتفطرن يتشققن، وتخر تسقط، وهذا بتشديد الدال أي مهدودة، والآية من سورة مزيم.

(٣) ٣٠٥ عدة الصابرين.

العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعًا: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**». وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره، وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات. الرب - تعالى - يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك.

فجعل - سبحانه - في مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الأسباب وقاومتها. وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب.

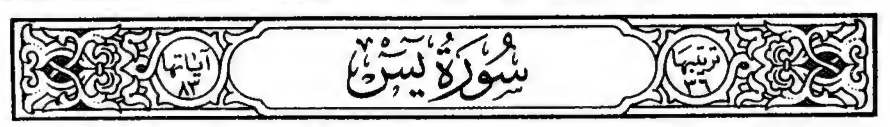
ولهذا استعاذ النبي، ﷺ، بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**».

فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقًا وكونًا، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدها وأمدها وسلطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء، ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: **أعوذ بك منك** من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه - تعالى - والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء، ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيد من فعله بفعله، وهو الذي - سبحانه - خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له، وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فاطر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله:** ﴿يس. والقرآنِ الحكيم. إنَّكَ لَمِنَ المرسَلِينَ﴾ والصحيح أن «يس» بمنزلة حمّ والمّ، ليست اسما من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله. وصحة نبوته ورسالته فتأمَّل قدر المقسم به والمقسم عليه. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾، وجوز فيه ثلاثة: أن يكون خبرا بعد خبر، فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أي أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلى بيان تقدير: المجعولين على صراط مستقيم، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره.

(٢)فصل

وأما الغل فقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ حَقَّ القوْلُ عَلى أَكْثَرِهِم فَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ. إِنَّا جَعلنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِي إلى الأذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ. وَجعلْنا مِن بين أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشيناهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٧، ٩]، قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله. قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل ما نعاً للمغلول من التصرف والتقلُّب، كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق.

قيل: ولما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿وكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزمناهُ طائره في عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك وهذا في عنقك. ومن هذا قوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً؛ حبسناهم عن الإنفاق.

قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه

(١) ٢٧١ التبيان. (٢) ١٤٠ شفاء.

كلزوم القلادة من بين مايلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثل قولهم طوّقتك كذا وقلدتك كذا، ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلانًا حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمّى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿ وَ يَضعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْـلاَلَ الّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم ﴾ [الأعـراف : ١٥٧] ، فشبهها بالأغـلال لشـدتهـا وصعوبتها، قال الحسن : هي الشدائد التي كانت في العبادة : كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم.

قال ابن قتيبة: هي تحريم الله ـ سبحانه ـ عليهم كثيراً مما أُطلقه لأُمة محمد ﷺ، وجعلها أَغْلالاً، لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله ﴿**فهي إلى الأذقان**﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي، وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها، قالوا. لأن الغل يكون في العنق، فتجمع إليه اليد، ولذلك سمّى جامعة. وعلى هذا فالمعنى فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم، هذا قول الفـراء والزجاج. وقالت طائفة الضمير يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر. وقوله: ﴿**فهي إلى الأذقان**﴾ أي واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿**فهم مقمحون**﴾ قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الأقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح، وقال الأصمعي: بعير قامح، إذا رفع رأسه على الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعداً كالإبل الرافعة رءوسها. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان.

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق، ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة.

ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه.

والسد الذي جَعَلَ مَن بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سدّ عليهم طريق الهدى، فأخبر ـ سبحانه ـ عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف والله المستعان.

فصل[1]

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدَّارَ دَارُ مَنعة، وأن القوم أهل حَلْقة وشَوْكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحوقه بهم، فيشتدُّ عليهم أمره.

فاجتمعوا في دار النَّدوة ولم يتخلَّف أحد من أهل الرأي والحِجَىٰ منهم، ليتشاوروا في أمره، وحَضَرهم وَلِيُّهم وشيخهم: إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نَجْد، مشتمل الصَّماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فأشار كل أحد منهم برأي، والشيخ يَرُدُّه ولا يرضاه.

إلى أن قال أبو جهل: قد فُرِق لي فيه رأى، ما أراكم قد وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذَ من كل قبيلة من قريش غلاماً نَهْداً جَلْداً نسيبًا وسيطاً، ثم نُعطِيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك: كيف تصنع؟ ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ: لله در الفتى، هذا والله الرأي، قال: فتفرقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه ـ تبارك وتعالى ـ

(١) ١٣٦ الزاد جـ٢.

فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مَضْجَعه تلك الليلة.

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصفَ النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها مُتَقَنِّعاً، فقال له: «أَخْرِجْ عني مَنْ عندك؟» فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمي إحدىٰ راحِلَتيَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمن»، وأمر عليًّا أن يبيت في مضجعه تلك الليلة».

واجتمع أولئك النفر من قريش يتَطَلَّعُون من صِيْرِ الباب، ويرصُدونه، ويريدون بياته، ويأتمرون أيُّهم يكون أشقاها. فخرج رسول الله ﷺ عليهم، فأخذ حَفْنة من البَطْحاء فجعل يَذُرُّه على رءوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ومن خَلْفهم سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُم لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر: فخرجا من خُوخة في دار أبي بكر ليلاً. وجاء رجل، ورأى القومَ ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خِبْتُم وخسرتم، قد والله مَرَّ بكم وذَرَّ على رءوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا يَنفضُون التراب عن رءوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي مُعيَط، والنَّضر بن الحارث، وأُمَيَّة بن خَلَف، وزمعه بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونُبيه، ومُنَبَه ابنا الحجاج. فلما أصبحوا قام عليٌّ عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ؟ فقال: لا علم لي به. ثم مضىٰ رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، فدخلاه، وضرب العنكبوت بيتاً على بابه. . . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحيْي المَوْتَى وَنَكْتُبُ ماقَدّموا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. قال ابن عباس: ما أثروا من خير أو شر، فسمى ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر على من أطلق عليه في القرآن والسنة كما قال النبي ﷺ لبني سلمة: «دياركم تكتب آثاركم». أي الزموا دياركم ويخصونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار كما قال أخوة يوسف تالله لقد آثرك الله علينا.

(٢)**قال** تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيْء

(١) ١٣٤ شفاء. (٢) ٣٩ شفاء.

أحصيناه في إمام مُبِينْ﴾. [يس: ١٢]. فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها على ذلك، قال: **﴿ونكتب ما قدموا﴾** من خير أو شر فعلوه في حياتهم: **﴿وآثارهم﴾** ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ماأثروا من خير أو شر، كقوله: **﴿يُنَبأُ الإنْسَانُ يومئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّر﴾** [القيامة: ١٣].

الإنْسَانُ يومئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّر﴾ [القيامة: ١٣].

(فإن قلت): قد استفيد هذا من قوله قدموا فما أفاد قوله: آثارهم على قوله.

(قلت): أفاد فائدة جليلة وهو أنه ـ سبحانه ـ يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم فآثارهم هي أثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسيراللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة: أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: **﴿إنا نحن نحيي الموتىٰ ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾**، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم**».

وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس.

وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية وقصة بني سلمة بالمدينة إلا أن يقال هذه الآية وحدها مدنية. وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها وذكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم، قال عمر بن الخطاب: لو كان الله ـ سبحانه ـ تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة.

والمقصود أن قوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر، الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه.

(١). . . **ومن** هذا ما حكاه الله سبحانه من محاجة صاحب يس لقومه، بقوله: ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يٓس: ٢٠-٢١].

فنبه على وجوب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن ينبغي أن لا يخالف ولا يعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع، وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه، منتف، وهو طلب العلو والفساد وطلب الأجر، ثم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، وأنعامه كلها تابعة لإيجاده وخلقه.

وقد جبل الله العقول والفطر والشرائع على شكر المنعم ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً تخويف الناصح فقال: ﴿وَإليهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دون الله أنها باطلة فقال: ﴿أَءَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُم شيئاً ولا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]. فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وأنه إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ماينقذوني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه ولا يخلص من ذلك الضر فبأي وجهة تستحق العبادة ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ إن عبدت من دون الله من هذا شأنه.

(٢)**ومن** هذا قوله تعالى حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجا عليهم بما تقربه فطرهم وعقولهم: ﴿وَمَا لي لا أعبُدُ الذي فَطَرَني وإليه تُرْجَعُونَ﴾

---

(١) ١١١ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ٨ مفتاح جـ٢.

[يسٓ: ٢٢]. فتأمَّل هذا الخطاب كيف تجَد تحته أشرف معنى وأجله، وهو أن كونه ـ سبحانه ـ فاطراً لعباده يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه، ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته، ثم احتج عليهم بما تقربه عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وإنها أقبح شيء في العقل وأنكره، فقال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيئًا ولا يُنقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ٢٣-٢٤]. أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة.

(١)**والمعبود** ينبغي أن يكون ربًّا خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صيحة ووضح لك شرحه وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل؛ فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون ما موصولة قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبـرازه. ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطـلاق أن يكـون خالقهـا بجملتهـا، أعني مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك؛ لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم، الذي حصلت به الصورة لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعـل ما مصـدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يسٓ: ٤١-٤٢]

(١) ١٥٠ بدائع جـ١.

والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن لا لغة ولا حقيقة فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر. وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيْخَ لَهُمْ﴾ [يس: ٤٣]، عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما ركوبهم إياها.

والثاني أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق، ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيْكُم الحَرَّ وَسَرَابِيْلَ تَقِيْكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل ٨١]. والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جلُودِ الأَنْعَامِ بيُوتًا﴾ والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتًا بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة. (قلت): المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

(١)**وقال** سعيد بن منصور حدَّثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، قال: في افتضاض الأبكار. وقال عبدالله بن أحمد حدَّثنا أبو الربيع الزَّهراني ومحمد بن حميد قالا: حدَّثنا يعقوب بن عبدالله حدثنا حفص بن حميد عن بشر بن عطية عن شفيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُون﴾ قال: شغلهم افتضاض العذارى.

وقال الحاكم: أنبأنا الأصم أنبأنا العباس بن الوليد أخبرني شعيب عن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أصحابَ الجَنَّةِ اليومَ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]

---

(١) ١٧١ حادي الأرواح.

قال: شغلهم افتضاض الأبكار. قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار، فلا يذكرونهم، ولا يهتمون لهم.

وقال أبو الأحوص: شغلوا بافتضاض الأبكار عن السرر في الحجال.

وقال سليمان التيمي عن أبي مجلز قلت لابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿**إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون**﴾ ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار.

وقال ابن أبي الدنيا حدَّثنا فضيل بن عبدالواحد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿**في شغل فاكهون**﴾ قال: في افتضاض العذارى.

[١] . . . . **وفي** سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**وبينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم؛ فإذا الرب ـ تعالى ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم**».

وفي الصحيحين من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها؛ كما يربي أحدكم فلوَّه، حتى تكون مثل الجبل**» ـ الفلو ـ المُهر بلغ السنة.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً**». وروى ابن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن زهرة بن معبد عن ابن عمر رضي الله عنهما أخبره أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن وضوءه، ثم رفع نظره إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء**».

---

(١) ٥٦ اجتماع الجيوش الإسلامية.

(١)**وقال** القاضي أبو يعلىٰ: فأما قوله في حديث جابر «**بينا أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور من فوق رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً من رَبٍّ رَحيم﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه قال**: فلا يمتنع حمله على ظاهره، وأنه نور ذاته، لأنه إذا جاز أن تظهر لهم ذاته فيرونها جاز أن يظهر لهم نورها فيرونه، لأن النور من صفات ذاته، وهو قوله: ﴿**وأَشْرَقَتِ الأَرضُ بِنُورِ رَبِّها**﴾ [الزمر: ٦٩]. وذكر في موضع آخر قولين في ذلك ورجح هذا القول قال: وهو أشبه بكلام أحمد.

(٢)**وفي** سنن ابن ماجه وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤوسَهُم، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم ياأهل الجنة، وذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَولاً من رب رحيم﴾ فيرفعون رؤوسهم فينظرونَ إليه وينظرُ إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم**» لفظ حديث حرب: فما ظنُّ المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم؟ وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**». ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه.

(٣)**وذكر** عثمان الدارمي، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدث عمر بن عبدالعزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، فيسلم على أهل الجنة في أول درجةٍ، فيردون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في القرآن: ﴿**سَلَامٌ قولاً من رَبٍّ رحيم**﴾ فيقول: سلوني يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستوي على عرشه، ثم تأتيهم التُّحف من الله تحمله الملائكة إليهم. وقال عبدالواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا، وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة. . . . .

(١) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.	(٢) ٤٤٩ روضة المحبين.	(٣) ٤٦٥ روضة المحبين.

فصـــل(١)

ثبت بالعقل إمكان رؤيته تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجوداً كان أحق أن يرى، فالباري ـ سبحانه ـ أحق أن يرى من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه.

يوضحه: إن تعذر الرؤية: إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب سبحانه أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه. فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة لأنها دائمة فقويت على رؤيته تعالى. وإذا جاز أن يرى، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم: عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم: أن يكون المرئي مقابلاً للرائي مواجهاً له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي لزم ضرورة أن يكون مرئيًا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم، لا من تحتهم. كما قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ـ ثم قرأ ـ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَحِيمٍ﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**».

فلا يجتمع الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة. ولهذا فإن الجهمية المغول تنكر علوه على خلقه ورؤية المؤمنين له في الآخرة ومخانيثهم يقرون بالرؤية وينكرون العلو. وقد ضحك جمهور العقلاء من القائلين بأن الرؤية تحصل من غير مواجهة المرئي ومباينته. وهذا رد لما هو مركوز في الفطر والعقول. . . . .

(٢)**قال** تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ**

---
(١) ٢٨٠ مختصر الصواعق. (٢) ١٩١ الجواب الكافي.

إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قالوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كانوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها. وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبدالله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُم يا بني آدم أَنْ لا تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدُوٌّ مُّبِينٌ وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم﴾** [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيْعاً يَامَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ استَكْثَرْتُم مِّنَ الإنس﴾** [الأنعام: ١٢٨]. أي من إغوائهم وإضلالهم. **﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنس رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا ببعْضٍ وبَلَغْنَا أَجلَنَا الذي أَجَّلت لنا قالَ النَّارُ مَثْواكُم خَالِدِينَ فيها إلَّا ما شاءَ الله إنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾** [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلـهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلـهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

(١)**قال** الله تعالى: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وما يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إلاّ ذِكرٌ وقُرآنٌ مُّبِينٌ. لِّيُنذِرَ من كان حيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ﴾** [يس: ٦٩-٧٠].

---

(١) ٢١٨ مدارج جـ١.

فأخبر سبحانه: أن الناس قسمان: حيٌّ قابل للانتفاع، يقبل الإنذار، وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان، بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ٣٣] وحق عليه العذاب، كقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كلمةُ ربك على الذين كفروا أَنَّهُمْ أصحابُ النَّارِ**﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى: ﴿**وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلى الْكافِرِيْنَ**﴾ [الزمر: ٧١] وكلمته ـ سبحانه ـ إنما حقَّت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته. وحاصل هذا كله: أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده. وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم، فأمرهم ونهاهم. فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم اهـ.

[1]. . . . **لفظ** اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً، ومثنى، ومجموعاً. فالمفرد كقوله: ﴿**بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾. [تبارك: ١]، والمثنى كقوله: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥]. والمجموع: ﴿**عَمِلتْ أَيْدِينَا**﴾ [يس: ٧٢].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿**خلقت بيديَّ**﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء. فهذه ثلاثة فروق، فلا يحتمل: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ من المجاز

(١) ٣٨ مختصر الصواعق جـ١.

ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عملت أيدينا﴾ مايفهمه من قوله: عملنا وخلقنا كما يفهم ذلك من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم﴾.

وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمت يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده».

فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون: «ياآدم أنت أب البَشَرِ خلقك الله بيده».

وكذلك قال آدم لموسى في محاجته له: «اصطفاك الله بكلامه، وخط لك الألواح بيده». وفي لفظ آخر: «كتب لك التوراة بيده». وهو من أصح الأحاديث.

وكذلك الحديث المشهور: «إن الملائكة قالوا: يارب خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله تعالى: ألا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن فكان»؟ وهذا التخصيص إنما فهم من قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان مثل قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]. لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين على من أمر أن يسجد له وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ [يس: ٧١]، خطأً محضاً.

كذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى». وقوله ﷺ: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء[1] الليل والنهار.

(١) السحاء: كثيرة العطاء.

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع . . . ».

(١)**وقال** ـ سبحانه ـ في تثبيت أمر البعث: **﴿وضَرَبَ لَنا مَثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال من يُحْيِيَ العظامَ وهي رميمٌ. قُل يُحْيِيها الذي أنشأَها أوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ﴾**. إلى آخر السورة فلو رام أفصح البشر وأعلمهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووصف حينئذ الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضىٰ جواباً، وكان في قوله سبحانه: **﴿ونسي خلقه﴾** ما وفى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة لولا ما أراد الله تعالى من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه تعالى أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلق نفسه وبدء كونه لكانت فكرته فيه كافية.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: **﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾**. وصرح به جواباً له عن مسألته بقوله: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضروريًّا إن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى بل كان أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: **﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾** فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله ومواده وصورته وكذلك هو عليم بالخلق الثاني. فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ أكد الأمر بحجة تتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة في الأبدان تكون مادتها طبيعية حارة، فقال: **﴿الَّذِي جَعَلَ لكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فإذا أنتم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾** [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة. فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

(١) ١٠٠ مختصر الصواعق جـ١.

ثم أكد الدلالة بالتنبيه على أن من قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر وأقدر فقال تعالى: ﴿**أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ بقَادِرٍ عَلَىٰ أن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ [يٓس: ٨١].

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يخلق عظاماً صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿**لَخَلْقُ السَّموَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ولم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الموتىٰ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم بين ذلك بياناً آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبه كل ملحد وجاحد، وهو أنه سبحانه ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلق ما يريد خلقه كن فيكون.

فأخبر أن نفوذ إرادته ومشيئته وسرعة تكوينه وانقياد الكون له. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو إليه الحاجة من تقرير الدليل وجواب الشبهة بألفاظ لا أعذب منها للسمع ولا أحلىٰ من معانيها للقلب ولا أنفع من ثمراتها للعبد.

(١)**وقد** جمع سبحانه بين النشأتين في قوله: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثىٰ. من نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى. وَأَنَّ عَلَيهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى**﴾ [النجم: ٤٥-٤٧] وفي قوله: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى**﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨]إلى قوله: ﴿**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى**﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي قوله: ﴿**وضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قال من يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أنشأها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أنتُم منه تُوقِدُون. أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمواتِ**

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.

والأرضَ بقادرٍ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وهُوَالخلاقُ العليمُ. إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لَهُ كُن فيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الذي بيدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ وإلَيْهِ ترجَعُونَ﴾

فتضمنت هذه الآياتُ عشرة أدلة: أحدها قوله: **﴿أوَ لَمْ يَر الإنسانُ أنَّا خَلَقْناهُ من نطفةٍ﴾** [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدلَّه به على النشأة الثانية.

ثم أخبر أن هذا الجاحِد لو ذكر خَلْقه لما ضربَ المثلَ، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فَتَحْتَ قوله: **﴿ونسي خلقه﴾**. ألطفُ جوابٍ وأبينُ دليلٍ، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئًا: فلانٌ جحدني الإحسان إليه ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جَحَده فقال: **﴿قل يحييها الذي أنْشأَها أول مرة﴾** فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعني بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق، فإنَّ تعذُّرَ الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السموات والأرض؟.

ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شُبَهِ المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقر بها إلى العقل، فقال: **﴿الذي جَعَلَ لَكُم مِن الشَّجر الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾** فإذن هذا دليل على تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء.

وفي ذلك جوابٌ عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموتُ باردٌ يابس والحياة طَبْعُها الرطوبة والحرارة، فإذا حَلَّ الموتُ بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموتَ في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذا أوجَدَ الله فيه الحياة وطَبْعهَا ارتَفع الموتُ وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعُه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السَّموات والأرض مع

عظمهما وسعتهما وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومَنْ لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

ثم قرر هذا المعنى بذكر وَصْفَين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال: **﴿بَلى وَهُوَ الخَلاَّقُ العليمُ﴾** فكونه خَلاّقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يَقْصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: **﴿إنَّما أمْرُهُ إذَا أراد شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فيكون﴾** [يس: ٨٢]، فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: **﴿فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [يس: ٨٣] فنزَّهَ نفسه عما نَطَق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرفَ المالكِ الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناعُ عن أي تصرف شاءه فيه.

ثم ختم السورة بقوله: **﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** كما أنهم ابتدأوا منه هو فكذلك مرجعهم إليه فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول الآخر، وأن إلى ربك المنتهىٰ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يسٓ

والحمد لله رب العالمين

سورة الصافات

آياتها ١٨٢ — ترتيبها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **قوله تعالى**: ﴿**والصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ [الصافات: ١]. أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأول، وتراصون في الصف**». وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون**﴾[الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله. فالتاليات التي تتلو لكلام الله.

وقيل: الصافات الطير: كما قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَىٰ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾ [النور: ٤١]. والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله. والتاليات: الجامعات لكتاب الله تعالى. وقيل: الصافات القتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه. فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته، واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة، فإن الأقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان.

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلـهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال: ﴿**إِنَّ إِلـٰهَكُم لَوَاحِدٌ. رَّبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ**﴾ [الصافات: ٤، ٥]. من أعظم الأدلَّة على أنه إلـه واحد. ولو كان معه إلـه آخر لكان الإلـه مشاركاً له في ربوبيته، كما شاركه في إلـهيته. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلـهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده. وخصَّ المشارق ههنا بالذكر إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمر أن المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر. وإما لكون المشارق مطلع

(١) ٢٧١ التبيان.

الكـواكب ومـظاهـر الأنـوار. وإمـا توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكـواكب، وجعلهـا حفـظاً من كل شيطان. فذكر المشارق أنسب بهذا المعنىٰ وأليق. والله تعالى أعلم.

[١]**قـوله** تعـالى: ﴿**إنَّا زَيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد**﴾. فجمل ظاهرها بالكواكب وباطنها بالحراسة من الشياطين.

[٢]فصـــل

وأما الْوَصَب فهو: أَلم الحب ومرضه، فإن أصل الوَصب: المرض، وقَد وَصِب الرجلُ يَوْصَب فهو وصِبٌ، وأَوْصبَه الله فهو مُوصَبٌ، والمُوَصَّب بالتشديد الكثير الأَوجاع. وفي الحديث الصحيح: «**لاَ يُصيبُ ٱلْمُؤْمنَ مِن هَمٍّ ولاَ وَصَب حَتَّىٰ ٱلشَّوْكَة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»[٣] ووصبَ الشيُ يَصِبُ وُصُوباً إذا دام، تقول: وَصَب الرجلُ عَلىٰ الأَمر إذا داوم عليه، قال الله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ**﴾ [الصافات: ٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً**﴾ [النحل: ٥٢]. أي الطَّاعة دائمةً.

...[٤]**قـال** ابن زيد: ينادي منادٍ يوم القيامة، حتى يجتمع الخلائق: ﴿**مَا لَكُمْ لاَ تَناصَرُونَ**﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: مَن عُبد من دون الله، لا ينصرُ اليوم مَنْ عَبدَه، والعابد لا ينصرُ إلـهه. ﴿**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**﴾ [الصافات: ٢٦]. فهـذا حال عبـاد الشيطان يوم لقـاء الرحمن، فواسُوءَ حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ آعْبُدُوني هـٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾. [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ٣.

(٢) ٤٢ روضة المحبين.

(٣) الحديث في صحيح مسلم وغيره بألفاظ متقاربة.

(٤) ٢٤٣ إغاثة جـ٢.

[(١)]الباب التاسع والخمسون
في زيارة أهل الجنة بعضهم بعضاً
وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ. قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٧].

فأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدَّثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ويقول ماحكاه الله عنه يقول: أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه، هذا أظهر الأقوال.

وفيها قولان آخران: (أحدهما): أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً هل أنتم مطلعون رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني أنه من قول الله ـ عز وجل ـ لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون. والصحيح القول الأول، وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: «بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى».

وقوله: فاطلع أي: أشرف، وقال مقاتل لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون قالوا له: أنت أعرف به منا فاطَّلع أنت فأشرف، فرأى قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه إيَّاه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه، وغيره العذاب أشد تغيير، فعندما قال: تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين.

---

(١) ١٨٥ حادي الأرواح.

أي إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله عليَّ بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب.

...[1]قال تعالى في شجرة الزَّقُّوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]. قال قتادة: لما ذكر الله تعالى هذه الشجرة افتَتَنَ بها الظَلَمَةُ، فقالوا: يكون في النار شجرةٌ والنارُ تأكلُ الشَّجَر؟ فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي غُذِيَتْ بالنار.

قال ابن قُتيبة: قد تكون شَجَرةُ الزَّقوم نَبتاً من النارِ، ومن جَوْهَرٍ لا تأكله النار، وكذلك سلاسلُ النار وأغلالُها وأنْكالُها، وعقارِبُها، وحَيَّاتها، ولو كانت على ما يُعلم لم تَبْقَ على النار، وإنما دلَّنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء مُتَّفِقَةُ الدّلالةِ، والمعاني مختلفةٌ وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخبارُه ـ سبحانه ـ بأن عِدّةَ الملائكة الموكَّلين بالنار تسعةَ عشر، كان فتنةً للكفار، حيث قال عدوُّ الله أبو جَهْلٍ: أيُخَوِّفكم محمدٌ بتسعةِ عَشر، وأنتم الدُّهْم، أَفَيعْجِزُ كلُّ مائةٍ منكم أن يَبطِشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشرَ قريش، إذا كان يومُ القيامة فأنا أَمْشي بين أيديكم على الصراط، فأدفعُ عشرة بمَنْكِبِي الأيمن، وتسعة بمنكِبِي الأيسر في النار، ونمضِي فندخل الجنة». فكان ذكرُ هذا العدد فتنةً لهم في الدنيا، وفتنةً لهم يوم القيامة.

والكافرُ مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سألَ المؤمنون أنْ لا يجعلهم فتنةً للذين كفروا، كما قال الحُنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥]، وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تُظهِرهم علينا، فيظنُّوا أنهم على حَقٍّ، فيُفتنوا بذلك. وقال الفَرّاء: لا تُظهر علينا الكفارَ، فيرَوْا

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

أنهم على حق وأنّا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّرْ علينا الرِّزقَ وتبسُطه عليهم، فيكون ذلك فتنةً لهم.

وقد أخبرَ الله ـ سبحانه ـ أنه قد فَتن كلًّا من الفريقين بالفريق الآخر، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم ببعض لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصود: أن الله ـ سبحانه ـ فَتَنَ أصحابَ الشهواتِ بالصُّوَر الجميلة، وفَتن أولئك بهم. فكلٌّ من النوعين فتنةٌ للآخر، فمن صبرَ منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظمُ منها، ومن أصابَتْه تلك الفتنةُ سَقط فيما هوشرٌّ منها، فإن تدارَك ذلك بالتَّوبة النَّصوح وإلا فسبيل مَنْ هَلَكَ، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ من النساء على الرجال»(١) أو كما قال.

فالعبدُ في هذه الدار مفتونٌ بشهواته ونفسه الأمَّارة، وشَيطانه المغْوي المزَيّن، وقُرنائِه وما يراه، ويُشاهده، مما يَعجزُ صبرُهُ عنه، ويَتفقُ مع ذلك ضعفُ الإيمانِ واليقين، وضعفُ القلب ومَرارةُ الصبر، وذَوْقُ حلاوةِ العاجل، ومَيْلُ النفس إلى زَهْرةِ الحياة الدنيا، وكونُ العِوَض مؤجَّلاً في دارٍ أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهَدة لغيبٍ طُلِبَ منه الإيمانُ به:

فوالله، لولا الله يُسْعِدُ عبدَه　　بتوفيقه، واللهُ بالعبد أرحمُ
لما ثبتَ الإيمانُ يوماً بقلبه　　على هذه العِلّاتِ، والأمرُ أعظمُ
ولا طاوعته النفسُ في ترك شهوةٍ　　مخافةَ نارٍ، جَمْرُها يَتضرَّمُ
ولا خاف يوماً من مَقام إلهه　　عليه بحكم القِسْطِ، إذ ليس يَظلمُ

فصل

والفتنة نوعان: فتنةُ الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبدِ، وقد ينفردُ بإحداهما. ففتنة الشبهاتِ من ضعفِ البَصيرة، وقلة العلم، ولا سِيَّما إذا اقترنَ بذلك فسادُ القصد، وحصولُ الهوَى، فهنالك الفتنةُ العظمىٰ، والمصيبةُ الكبرَى، فقُلْ ما شئتَ في ضلال سيِّء القصدِ، الحاكم

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

عليه الهَوى لا الهُدَىٰ، مع ضعف بَصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، **فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعونَ إلاَّ الظَّنَّ وَما تَهوىٰ الأَنْفُسُ﴾** [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ أنَّ اتباعَ الهوَىٰ يُضِلُّ عن سبيل الله، **فقال: ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوى فيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إِنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾** [ص: ٢٦].

وهذه الفتنةُ مآلُها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنةُ المنافقين، وفتنة أهل البِدَع، على حَسب مراتب بِدَعِهم. فجميعهم إنما ابتدَعُوا من فتنة الشبهات التي اشْتَبَه عليهم فيها الحقُّ بالباطل، والهدى بالضلال.

ولاينجي من هذه الفتنة إلا تجريدُ اتِّباع الرسول، وتحكيمه في دقِّ الدين وجلِّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقَّى عنه حقائقَ الإيمان وشرائعَ الإسلام. وما يُثبتُه لله من الصفات والأفعال، والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقَّىٰ عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادَها، ومقادير نُصُب الزَّكاة ومُستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدِّين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمَّة في العلم والعمل، لا يُتلقَّى إلا عنه، ولا يُؤخَذُ إلا منه، فالهدى كلُّه دائِرٌ على أقواله وأفعاله، وكلُّ ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه، ووزَنَه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبِلَه، لا لِكون ذلك القائل قالَه، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رَدَّه، ولو قاله مَنْ قاله، فهذا الذي يُنْجِيه من فتنةِ الشُّبُهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنةُ تنشأ تارةً من فهم فاسد، وتارةً من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متَّبع، فهي من عمىً في البصيرة، وفساد في الإرادة.

فصل

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنةُ الشهوات. وقد جمع ـ سبحانه ـ بين ذكر الفتنتين في قوله: **﴿كالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم كانوا أشدَّ منكم قُوَّةً وأَكْثَرَ أموالاً وأولاداً**

فاستَمتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُم﴾ [التوبة: ٦٩]. أي: تمتعوا بنصيبهم من الـدنيا وشهـواتهـا. والخـلاقُ هو النَّصيبُ المقـدَّر، ثم قال: ﴿وخُضْتم كالذي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] فهذا الخوْضُ بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار - سبحانه - في هذه الآية إلى ما يحصلُ به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاعِ بالخَلاق، والخوضِ بالباطل، لأنَّ فساد الدِّين إما أن يكون باعتقادِ الباطل والتكلُّم به، أو بالعملِ بخلافِ العلم الصحيح. فالأول: هو البدعُ وما والاها، والثاني: فسق الأعمال. فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحبَ هَوىً قد فتنـه هواه، وصاحبَ دُنيا أَعْمته دُنياه»[1]. وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون». وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرعِ، والهوى على العقل. فالأول: أصلُ فتنة الشُّبهة، والثاني: أصلُ فتنة الشهوة.

ففتنـة الشبهـات تُدفـعُ باليقين، وفتنة الشهواتِ تُدفعُ بالصبر، ولذلك جعل - سبحانه - إمامة الدِّين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعلْنَا مِنْهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لـمَّا صَبَرُوا وكانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فدلَ على أنه بالصَّبرِ واليقين تُنالُ الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قولـه: ﴿وَتَـواصَـوْا بِالْحَقِّ وتَـواصَـوْا بالصَّـبْرِ﴾، فتـواصـوا بالحق الذي يَدْفعُ الشبهـاتِ، وبالصبر الذي يكفُّ عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله: ﴿وَاذْكُر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ أولي الأيدي والأبْصارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القُـوَى والعزائم في ذاتِ الله، والأبصارُ: البصائر في أمر الله. وعبـاراتُ السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس: «أولي القوّة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولي القوّة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوّة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق».

وقال سعيد بن جُبير: «الأيدي: القوّة في العمل، والأبصار: بصرهُم بما هم فيه من دينهم».

(١) تقدم في سورة التوبة تفسير هذه الآية بأوسع مما هنا (ج).

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يُحِبُّ البصرَ النافِذَ عند ورُود الشُبهات، ويحبُّ العقل الكامل عند حُلول الشهواتِ». فبكمالِ العقل والصبر تُدفعُ فتنةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

الباب السادس[1]

في الصلاة على غير النبي ﷺ تسليماً

أما سائر الأنبياء والمرسلين فيُصلىٰ عليهم ويسلم. وقال تعالى عن نوح: ﴿وتركْنا عليْهِ في الآخِرينَ. سَلامٌ على نُوحٍ في العَالَمِينَ. إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ - ٨٠]. وقال عن إبراهيم خليله: ﴿وَتركْنا عليهِ في الآخِرينَ. سَلامٌ عَلى إبراهيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩]. وقال في موسى وهارون: ﴿وَتَركْنَا عَلَيْهِمَا في الآخرينَ. سَلامٌ على مُوسَى وهارونَ﴾ [الصافات: ١١٩، ١٢٠]. وقال: ﴿سَلامٌ على إلْياسينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]. فالذي تركه سبحانه على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقد قال جماعة من المفسرين، منهم مجاهد وغيره: وتركنا عليهم في الآخرين: الثناء الحسن ولسان الصدق للأنبياء كلهم. وهذا قول قتادة أيضاً، ولا ينبغي أن يحكى. هذا قولان للمفسرين كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال.

بل هما قول واحد. فمن قال: إن المتروك هو السلام عليهم في الأخرىٰ نفسه. فلا ريب أن قوله: ﴿سلام على نوح﴾ جملة في موضع نصب بتركنا، والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء، ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبه، وهو الثناء عليهم، وما جعل لهم من لسان الصدق الذي لأجله إذا ذكروا سلم عليهم. . . .

[2]. . . **الشرك** والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَإِفْكاً آلهةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]

وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه

---

(١) ٢٧١ جلاء الأفهام.

(٢) ٦٢ إغاثة جـ١.

غيره، وجعلتم له نداً؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وإما أن يظن أن الله ـ سبحانه ـ إنما تتم قدرته بقدرة الشريك. وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم. أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج إلى أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّره به من القِلَّة، وتعززه به من الذِّلة. أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق. أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك. أو يظن أن للمخلوق عليه حقًّا، فهو يُقْسِم عليه بحقّ ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة ـ الله تعالى ـ وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه ـ لكفى في شناعته.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبىٰ، ولهذا اقتضىٰ حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يُخلّد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقىٰ البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة. فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاقّ لله ورسوله.

فصـــل(١)

ومن الدليل على خلق أعمال العباد قوله ـ تعالى ـ: ﴿**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم**﴾ [النحل: ٨١] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل، وهي: الدروع، والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها: صورتها، ومادتها، وهيآتها.

ونظير هذا قوله: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم**﴾ [النحل: ٨٠]، فأخبر ـ سبحانه ـ أن البيوت المصنوعة المستقرة والمنتقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالق الفلك المصنوع للعباد. وأبعد من قال: إن المراد بمثله هو الإبل، فإنه إخراج المماثل حقيقة، واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة.

ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿**أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون**﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم؛ فالاستدلال ظاهر وليس بقوي، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من: عبادة تلك الآلهة، ونحتها، وغير ذلك. فالأولى أن تكون ما موصولة أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم، وقد حله عملهم وصنعهم. ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

فصـل(٢): قال أبو القاسم السهيلي: اعلم أن [ما] إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه: عمل، أو صنع، أو فعل، وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري ـ سبحانه ـ فلا يصح وقوعها إلا على مصدر لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام، لا تقول:

---

(١) ٥٤ شفاء.	(٢) ١٤٦ بدائع جـ١.

عملت جملاً، ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا حجراً ولا تراباً، فإذا قلت: أعجبني ما عملت وما فعل زيد، فإنما يعني الحدث فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله ـ تعالى ـ: ﴿والله خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُون﴾ إلا قول أهل السنة: إن المعنى والله خلقكم وأعمالكم. ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول، لأنهم زعموا أن [ما] واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناماً، وقالوا: تقدير الكلام: خلقكم والأصنام التي تعملون، إنكاراً منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله ـ سبحانه ـ واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ماقالوا، لأنه تقدم قوله: ﴿أتعبدون ماتنحتون﴾ [الصافات: ٩٥] فما واقعة على الحجارة المنحوتة، ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى: أما النحو، فقد تقدم أن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، وأما المعنى: فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما كانوا يعبدون المنحوتات، فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة، ويكون التقدير: تعبدون حجارة منحوتة، والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون. هذا كله معنى قول المعتزلة، وشرح ماشبهوا به. والنظم على تأويل أهل الحق أبدع، والحجة أقطع، والذي ذهبوا إليه فاسد محال، لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام. **فإن قيل**: فقد تقول: عملت الصحيفة، وصنعت الجفنة، وكذلك الأجسام معمولة على هذا.

قلنا: لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل. وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا، فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر، هذا إجماع منا ومنهم، فلا يصلح حملهم على غير ذلك، وأما ما زعموا من حسن النظم وإعجاز الكلام فهو ظاهر، وتأويلنا معدوم في تأويلهم، لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون، فقال: ﴿أَتعْبدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ أي: من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون، ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية، وقد نسبها إليهم بالمجاز، لما قامت له حجة من نفس الكلام؛ لأنه كان يجعلهم خالقين

لأعمالهم وهو خالق لأجناس أخر، فيشركهم معه في الخلق ـ تعالى ـ الله عن قول الزائغين ولا لعا(١) لعثرات المبطلين فما أدحض حجتهم! وما أوهىٰ قواعد مذهبهم! وما أبين الحق لمن اتبعه، جعلنا الله من أتباعه وحزبه. وهذا الذي ذكرناه قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع الحرم وصنعته، واستشهد بالآية، وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط، فغلط أشد الغلط، ووافق المعتزلة في تأويلها، وإن لم يقل بقيلها، هذا آخر كلام أبي القاسم. ولقد بالغ في رد ما لا تحتمل الآية سواه، أو ما هو أولىٰ بحملها وأليق بها، ونحن وكل محق مساعدوه على أن الله خالق العباد وأعمالهم، وأن كل حركة في الكون، فالله خالقها، وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من: القرآن، والسنة، والمعقول، والفطر، ولكن لا ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها، حرصاً على جعلها عليهم حجة، ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك، على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون [ما] بمعنى الذي، سنبينه إن شاء الله تعالى. والكلام ـ إن شاء الله ـ في الآية في مقامين: أحدهما في سلب دلالتها على مذهب القدرية. والثاني في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم. فههنا مقامان: مقام إثبات، ومقام سلب.

فأما مقام السلب، فزعمت القدرية: أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ أضاف الأعمال إليهم، وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها، وليس المراد ههنا نفس الأعمال، بل الأصنام المعمولة، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالقهم، وخالق تلك الأصنام التي عملوها، والمراد مادتها وهي التي وقع الخلق عليها. وأما صورتها وهي التي صارت بها أصناماً؛ فإنها بأعمالهم، وقد أضافها إليهم فتكون بإحداثهم وخلقهم، فهذا وجه احتجاجهم بالآية.

وقابلهم بعض المثبتين للقدر، وأن الله هو خالق أفعال العباد، فقالوا: الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله، فإن [ما] ههنا مصدرية، والمعنى: والله خلقهم، وخلق أعمالهم، وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره.

ولما أورد عليهم القدرية: كيف تكون [ما] مصدرية هنا، وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى: والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا: فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له،

(١) كذا في المخطوطة والمطبوعة.

فكيف ينهانا عنها؟! وإذا كانت مخلوقة مرادة، فكيف يمكننا تركها؟! فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم.

أجابهم المثبتون بأن قالوا: لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها لعرفتم صحة الاحتجاج؛ فإن الله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلاً وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم، فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم، فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئاً لاذواتكم ولاأعمالكم، وهذا من أحسن الاحتجاج. وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً، وسوّى بينه وبين الخالق، لقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله: ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. [النحل: ٢٠]. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فأروني مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١٠]. إلى أمثال ذلك، فصح الاحتجاج، وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات، فهذا منتهىٰ إقدام الطائفتين في الآية كما ترى، والصواب أنها موصولة، وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والعناية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد العناية إلى بيان بطلان تلك الدعوىٰ، وأن ما ادَّعىٰ له ذلك الوصف هو متصف بضده، لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

وإذا تقرر هذا، فالله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادتهم الأصنام، وبيّن أنها لا تستحق العبادة ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنىٰ الذي إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم، وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ماقرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة

فلابد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبيَّن هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة. وتأمَّل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿والَّذِينَ يدْعون مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقون شَيْئاً وهُم يُخْلَقُون﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له ـ سبحانه ـ وهي غير خالقة. فهذا يبين المراد من قوله: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق. وتأمَّل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته وانفراده بالخلق كقول صاحب يس: ﴿ومَالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني﴾ [يس: ٢٢]. فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها، ذكر الموجب لذلك، وهي: كونه خالقاً لعابده فاطراً له، وهذا إنعام منه عليه، فكيف يترك عبادته؟! ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم، وخالق أعمالهم؛ فتأمَّله فإنه واضح. وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو ليس كذلك، أما قوله: إن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، فقد تقدَّم بطلانه، إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم، لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبما كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقوله: ﴿بما كنتم تُعَلِّمُونَ الكتاب﴾ وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تمرحُون﴾ [غافر: ٧٥]. إلى أضعاف ذلك، فإن هذه كلها أفعال خاصة، وهي أخص من مطلق العمل، فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى. قولهم: إنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة، فإن الكلام في [ما] المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت فإنها لا تحتمل غير الموصولة، ولا يلزم من كون الثانية مصدرية كون الأولى كذلك، فهذا تقرير فاسد. وأما تقريره كونها مصدرية أيضاً بما ذكره فلا حجة له فيه. أما قوله: أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام، فيقال: مامعنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام؟ أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادهم، أم تعني به أنها لا تتعلق

بتغييرها وتصويرها، أم تعني به أعم من ذلك وهو المشترك بين القسمين؟ فإن عنيت الأول فمسلم، لكن لا يفيدك شيئاً، فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك، فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم، بل هو على حد قولهم: عملت بيتاً، وعملت باباً، وعملت حائطاً، وعملت ثوباً، وهذا إطلاق حقيقي ثابت: عقـلاً، ولغة، وشرعاً، وعرفاً، لا يتطرق إليه رد، فهذا ككون الأصنام معمـولة سواء. وإن عنيت: أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعاً، وإن عنيت: القـدر المشترك فباطل أيضاً، فإنه مشتمل على نفي حقٍ وباطل، فنفي البـاطل صحيح، ونفي الحق باطل. ثم يقال: إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسـام يجوز أن يطلق فيه العمـل الخاص وشاهده في الآية: **﴿أتعبدون ما تنحتـون﴾**. فـ[ما] ههنا موصولة، فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم، وحينئـذ فأي فرق بين إيقـاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم، وبين إيقاع أفعالهم العامة عليه، لا بمعنىً أن ذاته مفعولة له، بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به صنـماً، واستحق أن يطلق عليه اسمـه، كما أنه بعملهم صار منحوتاً، واستحق هذا الاسم، وهذا بيِّنٌ. وأما قوله بجواب النقض: بعملت الصحيفة، وصنعت الجفنـة، أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل، فكذلك هو أيضاً متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنماً منحوتاً سواء. وأما قوله: الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق فقد تقدم جوابه، وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق معبوديهم للعبادة، لأنها مخلوقة لله، وذكرنا شواهده من القرآن.

فإن قيل: كان يكفي في هذا أن يقال: أتعبدون ما تنحتون. والله خالقه؟! فلما عدل إلى قوله: **﴿والله خلقكم وما تعملون﴾** علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته ـ سبحانه ـ وهو خالقهم وخالق أفعالهم.

قيـل: في ذكـر خلقه ـ سبحانه ـ لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم وفساد رأيهم وعقولهم في عبادتها دونه ـ تعالى ـ ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط؛ فإنه إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم، فهي مخلوقة أمثالكم، فكيف يعبد العاقل من هو مثله، ويتألهه، ويفرده بغاية التعظيم

والإجلال والمحبة؟! وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم وفي حق ربكم! وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد، فإنه إذا كان مثله كان عبداً مخلوقاً، والمعبود ينبغي أن يكون ربًّا خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق: صيحة، ووضح لك شرحه، وانجلىٰ بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل، فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات. فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون [ما] موصولة.

قيل: نعم، قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضىٰ صحة هذا الإطلاق: أن يكون خالقها بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله، كما أن مادتها كذلك، لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل [ما] مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس ٤١، ٤٢] والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد. وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر، وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن: لا لغة ولا حقيقة؛ فإن المثلين ما سدّ أحدهما مسدّ الآخر؛ وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك، لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك

التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما: ركوبهم إياها. والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق. ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾. [النحل: ٨٠]. والبيوت التي من جلود الأنعام هي: الخيام، وإنما صارت بيوتاً بعملهم. فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة.

قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها، وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

(١)الفصل الخامس
في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

وهذا الاسم من النمط المتقدم، فإن إبراهيم بالسريانية معناه: «أب رحيم» والله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل إبراهيم: الأب الثالث للعالم.

فإن أبانا الأول: آدم، والأب الثاني: نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ الصافات: ٧٧].

وبهذا يتبيَّن كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم. وقد أكذبهم الله ـ عز وجل ـ في ذلك.

فالأب الثالث: أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن وشيخ الأنبياء، كما سماه النبي ﷺ بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: «**قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام**».

---
(١) ١٥٤ جلاء الأفهام.

ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال ـ تعالى ـ: **﴿ثُمَّ أَوْحَينَا إِلَيْكَ أَنِ اتبعْ مِلةَ إِبْرَاهِيمَ حَنيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٣. وأمر أمته بذلك، فقال ـ تعالى ـ: **﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُم في الدين من حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسلمينَ من قَبْل وَفي هذا﴾** [الحج: ٧٨]. «وملة» منصوب على إضمار فعل أي: اتبعوا، والزموا ملة إبراهيم.

ودل على المحذوف ما تقدَّم من قوله: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِه﴾** [الحج: ٧٨]. وهذا هو الذي يُقال له: الإغراء.

وقيل: منصوب انتصاب المصادر والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا على: فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وماكان من المشركين**». وتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إلـه إلا الله.

والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة. وهي التوحيد وعبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة. والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسماه الله ـ سبحانه ـ: «**إماماً، وأمة، وقانتاً، وحنيفاً**».

قال ـ تعالى ـ: **﴿وإِذْ ابْتَلَىٰ إبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلماتٍ فَأَتمَّهُنَّ قَالَ إِني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً قَالَ وَمِن ذُرِيتِي قَالَ لاَ ينالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة: ١٢٤]. فأخبرـ سبحانه ـ أنه جعله إماماً للناس، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة. والظالم هو المشرك. وأخبرـ سبحانه ـ أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به.

وقال تعالى: **﴿إِنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَة وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]. فالأمة هو القدوة المعلم للخير. والقانت المطيع لله الملازم لطاعته. والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى. فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها.

قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللهِ الَّتِي فَطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿**فأقِمْ وجهك للدين**﴾.

ولهذا فسرت: «مخلصاً» فتكون الآية: قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين، هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك، الأول توحيد الطلب والثاني توحيد المطلوب.

والمقصود: أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب: عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتوليه ومحبته. وكان خير بنيه سيد ولد آدم محمد ﷺ يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه.

ففي الصحيحين من حديث المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم**» وسماه شيخه، كما تقدم.

وثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون: حفاة، عراة، غرلاً. ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم**». وكان رسول الله ﷺ أشبه الخلق به، كما في الصحيحين عنه قال: «**رأيت إبراهيم، فإذا أقرب الناس شبهاً به بصاحبكم**». يعني نفسه ﷺ. وفي لفظ آخر: «**فانظروا إلى صاحبكم**». وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسناً وحسيناً بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق. ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أبا كما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**».

وكان ﷺ أول من قرى الضيف، وأول من اختتن، وأول من رأى الشيب. فقال: «**ما هذا يا رب؟**» قال: «**وقار**». قال: «**رب زدني وقاراً**».

وتأمل ثناء الله ـ سبحانه ـ عليه في إكرام ضيفه الملائكة، حيث يقول سبحانه: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخلوا عليهِ فقالُوا**

سَلاماً قَالَ سلامٌ قومٌ مُنكَرُونَ. فراغ إلى أَهْلِهِ فجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقربه إِلَيْهِمْ قَال ألا تَأْكُلُون﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧] ففي هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا على أحد القولين: أنه إكرام إبراهيم. والثاني: أنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ دخلوا عليه﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان قد عرف: بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة، مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: سلامٌ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، فإن قولهم (سلامًا) يدل على: سلمنا سلامًا. وقوله: (سلام) أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿قوم منكرون﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله، فقال: ﴿منكرون﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليخبرهم بنزلهم. والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معدًّا عندهم، مهيئاً للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم، فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿فجاء بعجل سمين﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب، وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببعضه منه، وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه، ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم، ولم يقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه، ويحمله إلى حضرته، ولا تضع الطعام في ناحية، ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿ألا تأكلون﴾ وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها. وهذا مما يعلم الناس بعقولهم: حسنه ولطفه، ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل، لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل، قال لهم: ألا تأكلون؟!، ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها، وأضمرها في نفسه، ولم يبدها لهم، وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم، ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة، التي هي أشرف الآداب، وماعداها من التكلفات، التي هي تخلف وتكلف، وإنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين.

وقد شهد الله ـ سبحانه ـ بأنه وفّى ما أمر به فقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفّى جميع شرائع الإسلام، ووفّى ما أمر به من تبليغ الرسالة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

[البقرة: ١٤٢]. فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به.

وكان ﷺ كما قيل: قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان.

ولما اتخذه ربه خليلاً ـ والخلة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة، وكان قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره ـ امتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد: إيثاراً لمحبة خليله على محبته فسح الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر به فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة، فنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا: سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل، وكسر حججهم وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين، ومناظرته مع قومه المشركين وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم. قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم؛ ولما غلب أعداء الله معه بالحجة، وظهرت حجته عليهم، وكسّر أصنامهم فكسّر حججهم ومعبودهم، هموا بعقوبته وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا، وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لأجعلنَّكَ من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]. فأضرموا له النار، وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه فإنه ما سافر سفرة أبرك، ولا أعظم، ولا أرفع لشأنه، وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣]. قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار، فجعل

الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم».

وهو الذي بنى بيت الله، وأذّن في الناس بحجه، فكل من حجه واعتمره حصل لإبـراهيم من مزيد ثواب الله وإكرامه بعدد الحجاج والمعتمرين، قال ـ تعـالى ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَـا الْبَيْتَ مَثَابَـةً لِلنَّـاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى﴾. [البقرة: ١٢٥]. فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

ومناقب هذا الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب، وإن مدّ الله في العمر أفردنا كتاباً في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل، جعلنا الله ممن ائتم به، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه.

وقد روى لنا عنه النبي ﷺ حديثاً، وقع لنا، متصل الرواية إليه، رويناه في كتاب الترمذي وغيره من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد اقرىء أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربـة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر**». قال الترمذي: هذا حديث حسن.

[1]**العاشرة:** (مرتبة الخَلة» التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ كما صح عنه أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً**». وقال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**». والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول س قال: «الخلة» لإبراهيم. و«المحبة» لمحمد، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه.

و«الخلة»: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني　　ولـذا سمي الخليـل خليـلاً

وهذا هو السر الذي لأجله ـ والله أعلم ـ أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلْذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلّقت به شعبة من قلبه.

---

(١) ٣٠ مدارج جـ٣.

و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وَطَّن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيا﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]. أي عملت عمل المصدق. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]. نجزي من بادر إلى طاعتنا، فَنُقِرُّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إيَّاه فيؤثر مرضاته، فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً[١].

[٢]**منصب** الخلة: منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب، وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب. غار الحبيب على خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه، فأمره بذبحه، فلما أسلم للامتثال، خرجت تلك المزاحمة، وخلصت المحبة لأهلها، فجاءته البشرى، وفديناه بذبح عظيم: ليس المراد أن يعذب، ولكن يبتلي ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها: مثابة للقلوب، تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها.

فصل[٣]

وإذا تأمَّلت حكمته ـ سبحانه ـ فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله: كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة.

فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان.

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من: الاصطفاء، والاجتباء،

---

(١) تقدم في سورة هود ذكر من هو الذبيح والخلاف فيه. (ج).

(٢) ٢٢٣ بدائع جـ٣.　　(٣) ٢٩٩ مفتاح جـ١.

والتوبة، والهداية، ورفعة المنزلة، لولا تلك المحنة التي جرت عليه؛ وهي إخراجه من الجنة، وتوابع ذلك، لما وصل إلى ما وصل إليه. فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته. وجعله خامس خمسة وهم: أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنىٰ عليه بالشكر، فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**﴾ فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمَّل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ: إمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ جازاه على تسليمه ولده لأمر الله، بأن: بارك في نسله، وكثّره، حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً، أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه، رضاء منهما، وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله. وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض؛ فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ وقال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾. [إبراهيم: ٤٠].

فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثره حتى ملؤا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

وقد ذكر أن داود ـ عليه السلام ـ أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر

بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك، فأوحى الله إلى داود: أن قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمري، أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم، وقد أردت أن تحصي عدداً قدرت أنه لا يحصى، وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم، وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل، هذا سوى ما أكرمه الله به، من: رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم، وفي السموات بين الملائكة، فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتبًّا لمن عرفه ثم عامل غيره! ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!.

(١)**قال - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** [الصافات: ١٥٩، ١٦٠]. فنزه - سبحانه - عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده وهم الرسل ومن اتَّبعهم، كما قال في الآية الأخرى: **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وَسَلَامٌ على الْمُرْسَلِينَ. والحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾**. فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلم على المرسلين لسلامة ماوصفوه به من كل نقص وعيب، وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد وينزه عن كل نقص ينافي كماله وحمده.

(٢)**والله** سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم. أما الأول فقال - تعالى -: **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين﴾**، وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهًا مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد.

---

(١) ٩١ جلاء الأفهام. (٢) ١٧١ بدائع جـ٢.

أعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال. وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾. [النمل: ٥٩]. فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ماجاءوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله ـ تعالى ـ كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قَالَ رَبِّ احْكُم بِالحَقِّ وَرَبُّنا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ**﴾ [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: ﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [المؤمنون: ١١٨]. وقوله: ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بيننا وبيْنَ قَوْمِنَا بالحَقِّ وأَنتَ خَيْرُ الفاتِحِيْنْ**﴾. [الأعراف: ٨٩]. ونظائره كثيرة جدًّا.

وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاماً واحداً، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام: كلام الرب ـ تبارك وتعالى ـ فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فهو توحيد منه لنفسه، وأمر للمخاطب بتوحيده. فإذا قال العبد قل هو الله أحد كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظه قل تحقيقاً لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ [الفلق: ١]، و﴿**قل أعوذ بربِّ الناس**﴾ [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: أعوذ برب الناس. فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿**قل هو الله أحد**﴾، فإنه خبر عن توحيده، وهو ـ سبحانه ـ يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان.

فصل(١)

ثم تأمَّل حال الكليم موسى ـ عليه السلام ـ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهىٰ أمره حتى كلمه الله. تكليماً وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلىٰ السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ﷺ وربه يحبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاساته الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم الله لم يكن ذلك.

ثم تأمَّل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه، وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلب ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فصل

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، من: سلم، وخوف، وغنىً، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذىٰ، من: القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله مااحتمله ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً وساقه بها إلى أعلىٰ المقامات، وهذا حال ورثته من بعده، الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له.

---

(١) ٣٠٠ مفتاح جـ١.

ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له جعل خلاقه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغداً، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب، يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد، همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله ـ سبحانه ـ من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة، إلا على جسر المحنة والابتلاء.

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها ... فاعبر إليها على جسر من التعب

[1]**فالأعمال** تشفع لصاحبها عند الله، وتذكّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾. [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له، وقال: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾ [يونس: ٩٠]. قال له جبريل: ﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟**﴾. [يونس: ٩١].

وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكّرون من جلال الله ـ من التسبيح، والتكبير، والتحميد ـ يتعاطفن حول العرش، لهن دويّ كدويّ النحل. يذكّرن بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟**» ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته. ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه ما لا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل

---

(١) ٣٢٩ مدارج جـ١.

بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه. ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إلـه إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور: قوةً، وضعفاً، لا يحصيه إلا الله تعالى. فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه: كالشمس. ومنهم: من نورها في قلبه: كالكوكب الدري. ومنهم: من نورها في قلبه: كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً. . . .

[1] **يقطين:** وهو الدباء والقَرْع. وإن كان اليقطين أعم. فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق، كالبطيخ والقثاء والخيار. قال الله تعالى: ﴿**وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**﴾. [الصافات: ١٤٦].

فإن قيل: ما لا يقوم على ساق يسمى نَجْماً، لا شجراً. والشجر ماله ساق. قاله أهل اللغة. فكيف قال: ﴿**شجرة من يقطين**﴾؟.

فالجواب: أن الشجر إذا أطلق كان ما له ساق يقوم عليه. وإذا قيد بشيء تقيد به. والفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء: باب مهم عظيم النفع في الفهم ومراتب اللغة. و«اليقطين» المذكور في القرآن: هو نبات الدباء. وثمره يسمى الدباء والقَرْع، وشجره اليقطين. . . .

[2] فائـــدة

[**أو**] وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه من حيث كان الشك تردداً بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، لا أنها وضعت للشك فقد تكون في الخبر الذي لا شك فيه إذا أبهمت على المخاطب ولم تقصد أن تبين له: كقوله ـ سبحانه ـ : ﴿**إلى مائة ألفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٧]. أي أنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم: هم مائة ألف أو يزيدون. فـ [أو]، على بابها دالة على أحد الشيئين: إما مائة ألف بمجردها،

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣.　　(٢) ١٩٨ بدائع جـ١.

وإما مائة ألف مع زيادة، والمخبر في كل هذا لا يشك.

وقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. ذهب في هذه الزجاج كالتي في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]. إلى أنها [أو] التي للإباحة أي أبيح للمخاطبين أن يشبهوا بهذا أو هذا؛ وهذا فاسد، فإن [أو] لم توضع للإباحة في شيء من الكلام، ولكنها على بابها.

أما قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾، فإنه ـ تعالى ـ ذكر مثلين مضروبين للمنافقين في حالتين مختلفتين فهم لا يخلون من أحد الحالتين فـ [أو] على بابها من الدلالة على أحد المعنيين وهذا كما تقول زيد لا يخلو أن يكون في المسجد أو الدار ذكرت [أو] لأنك أردت أحد الشيئين. وتأمل الآية بما قبلها، وافهم المراد منها، تجد الأمر كما ذكرت لك، وليس المعنى أبحت لكم أن تشبهوهم بهذا وهذا.

وأما قوله فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فإنه ذكر قلوباً ولم يذكر قلباً واحداً، فهي على الجملة قاسية أو على التعيين لا تخلو من أحد أمرين إما أن تكون كالحجارة وإما أن تكون أشد قسوة ومنها ما هو كالحجارة ومنها ما هو أشد قسوة. منها. ومن هذا قول الشاعر:

فقلت لهم شيئان لابد منهما صدور رماح أشرعت أو سلاسل

أي لابد منهما في الجملة ثم فصل الاثنين: بالرماح والسلاسل، فبعضهم له الرماح قتلاً، وبعضهم له السلاسل أسراً، فهذا على التفصيل والتعيين، والأول على الجملة، فالأمران واقعان جملة، وتفصيلهما بما بعد [أو]. وقد يجوز في قوله تعالى: ﴿أو أشد قسوة﴾. مثل أن يكون: ﴿مائة ألف أو يزيدون﴾. وأما [أو] التي للتخيير فالأمر فيها ظاهر. وأما [أو] التي زعموا أنها للإباحة نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين، فلم توجد الإباحة من لفظ. [أو]. ولا من معناها، ولا تكون [أو] قط للإباحة، وإنما أخذت من لفظ الأمر الذي هو للإباحة.

ويدل على هذا أن القائلين بأنها للإباحة يلزمهم أن يقولوا: إنها للوجوب إذا دخلت بين شيئين لابد من أحدهما نحو قولك للمكفر أطعم عشرة مساكين أو اكسهم فالوجوب هنا لم يوجد من [أو] وإنما أخذ من الأمر، فكذا: جالس الحسن أو ابن سيرين.

[(١)] **لفظة** «أو» في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ. فَهِيَ كالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوةً**﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله: ﴿**وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾. [الصافات: ١٤٧]. هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

[(٢)] **قوله:** «آيس العقول بقوله: [أو] دنا» يعني: أن العقول لا تقدر أن تثبت على معرفة اتصال هو أدنىٰ من قاب قوسين. وهذا بناء على ما فهمه من الآية، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري، حتى صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنىٰ من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد، ومخلوق من مخلوق. يبقى أن يقال: فما فائدة ذكر «أو»؟ فيقال: هي لتقرير المذكور قبلها، وأن القرب إن لم ينقص عن قدر قوسين لم يزد عليهما. وهذا كقوله: ﴿**وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٧]. والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على المائة الألف لم ينقصوا عنها. فهو تقرير لنصية عدد الألف. فتأمله.

[(٣)] **وفي** الترمذي أنه سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ كم كانت الزيادة؟ قال: «عشرة آلاف».

[(٤)] **ولهذا** يسمي ـ سبحانه ـ الحجة: سلطانًا قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو الحجة كما قال تعالى: ﴿**أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأتوا بِكِتَابِكُمْ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ**﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿**إن هي إلَّا أَسْماء سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُم وآباؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون**﴾ [الروم: ٣٥]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه وإن كان عاجزاً عنه بيده. وهذا هو أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنَا والَّذِيْنَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنْيَا وَيوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾ [غافر: ٥١]

---

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١. (٢) ٣٢٢ مدارج جـ٣. (٣) ٤١٠ أعلام جـ٤. (٤) ٢٧ الفروسية.

[1] **ومنه** الجِنة بالكسر: الجن كما قال تعالى: ﴿**من الجِنَّة والنَّاسِ**﴾ [هود: ١١٩]، وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن الملائكة يسمون: جنة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً**﴾ [الصافات: ١٥٨]. قالوا: وهذا النسب قولهم: الملائكة بنات الله. ورجحوا هذا القول بوجهين: **أحدهما**: أن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه لا بين الجن وبينه.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**ولَقَدْ عَلِمت الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**﴾ [الصافات: ١٥٨]. أي قد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب. والصحيح خلاف ماذهب إليه هؤلاء، وأن الجنة هم الجن أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿**من الجنة والناس**﴾. وعلى هذا ففي الآية قولان: أحدهما: قول مجاهد قال: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن. وقال الكلبي: قالوا: تزوج من الجن، فخرج من بينهما الملائكة. وقال قتادة: قالوا: صاهر الجن. والقول الثاني هو: قول الحسن قال: أشركوا الشياطين في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه.

والصحيح قول مجاهد وغيره، وما احتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم، فإنهم لما قالوا: الملائكة بنات الله، وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن.

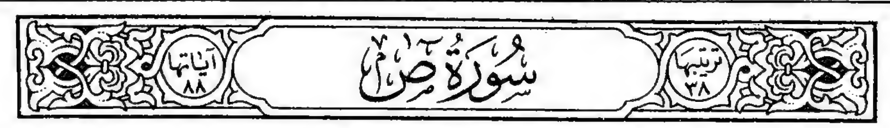
وأما قوله: ﴿**ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون**﴾. فالضمير يرجع إلى الجنة أي: قد علمت الجنة أنهم محضرون الحساب، قاله مجاهد. أي: لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب، كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكم؟**﴾ [المائدة: ١٨]، فجعل - سبحانه - عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعواهم الكاذبة وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصافات

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٧١ حادي الأرواح.



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **قوله** تعالى: ﴿**صٓ والقرآنِ ذِي الذِّكر**﴾ [صٓ:١] فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. وأما قول بعضهم: إن الجواب قوله تعالى: ﴿**كم أهلكنا مِن قبلِهم من قرنٍ**﴾ [صٓ:٣] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿**بَلِ الذين كفروا في عِزَّةٍ وشِقاق**﴾ [صٓ:٢] فبعيد؛ لأن «كم» لا يتلقى بها القسم، فلا تقول: والله كم أنفقت مالاً. وبالله كم أعتقت عبدًا. وهؤلاء لما لم يخفَ عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب، أي لكم أهلكنا. و أبعد من هذا قول من قال: الجواب وقوله: ﴿**إن كلٌّ إلا كذَّب الرُّسل**﴾ [صٓ:١٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب ﴿**إن هذا لرزقُنا ماله من نَفَاد**﴾ [صٓ:٥٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿**إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النَّار**﴾ [صٓ:٦٤]. وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا، وإن كان بعيدًا معنى عن قتادة وغيره: إنه في قوله: ﴿**بل الذين كفروا**﴾ كما قال ﴿**قٓ والقُرآن المجيد * بل عجِبوا أن جاءهم منذِرٌ مِنهم**﴾ [قٓ:١،٢].

[(٢)] **تأمل** سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: ﴿**إنَّه هو يُبدِيء ويُعيدُ * وهو الغَفورُ الوَدود**﴾ [البروج:١٣،١٤] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال: لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدًا، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه، وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفًا على ربه ـ الذي لا إله إلا هو ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولابد له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبدًا. واحتجوا أيضًا بأن العبد قد يكون بعد

---

(١) ٨ التبيان.

(٢) ٢٣٣ طريق الهجرتين.

التوبة خيراً منه قبل الخطيئة؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية، والانكسار والتذلل لله، والتضرع بين يديه، والبكاء على خطيئته والندم عليها، والأسف والإشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته. ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال. والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه، واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن.

ولهذا قال بعض السلف: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. وقيل إن في بعض الآثار يقول الله تعالى لداود عليه السلام: ياداود كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك. واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك.

قالوا وقد قال غير واحد من السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، قالوا: لهذا قال سبحانه: ﴿**فَغَفَرنا له ذلك وإن له عِندنا لزُلفَى وحُسنَ مآب**﴾ [صۤ: ٢٥] فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ماقلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان. . .

(١)**وقد** أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى: ﴿**يَاداوُدُ إنَّا جَعلناك خليفةً في الأرضِ فاحكُم بينَ النَّاس بالحَقِّ ولا تتبعِ الهَوى فيضِلك عن سبيلِ الله**﴾ [صۤ: ٢٦]، ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: ﴿**إنَّ الذين يَضِلون عن سبيل اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يومَ الحساب**﴾ [صۤ: ٢٦]. وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿**أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءَهم**﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبي ﷺ أن العاجز هو الذي اتَّبع هواه وتمنّى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد،

---

(١) ٤٢٨ روضة المحبين.

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما تحتَ [ظلّ] السَّماء إله يُعبد أعظم عند الله من هوًى متَّبع . . .

[١] **قال** تعالى في حق نبيه داود: ﴿**وإنَّ له عِندنا لزُلفى وحُسنَ مآب**﴾ [ص: ٢٥] فالزلفى منزلة القرب، وحسنُ المآب: حسن الثواب والجزاء. وقال تعالى: ﴿**لِلَّذين أحسنُوا الحُسنَى وزِيادةٌ**﴾ [يونس: ٢٦] فـ«الحسنى» الجزاء. و«الزيادة» منزلة القرب. ولهذا فُسرت بالنظر إلى وجه الله عز وجل. وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى، فقالوا له: ﴿**إنَّ لنا لأجرًا إن كُنَّا نحن الغالبين * قال نعم وإنَّكم لمن المقربين**﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] وقال تعالى: ﴿**وعَد الله المؤمنين والمؤمِنات جَنَّاتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جنَّاتِ عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر**﴾ [التوبة: ٧٢].

[٢] فصل

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين، كالتسوية بين الأبرار والفجار فقال تعالى: ﴿**أم نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعَلُ المتقين كالفجار**﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿**أم حَسِبَ الذين اجتَرَحُوا السَّيئاتِ أن نَجْعَلَهُم كالذين آمنوا وعمِلوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾ [الجاثية: ٢١] فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله، ووقوع أفعاله كلها على السداد والعواقب والحكمة. فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله.

ومن هذا أيضًا إنكاره سبحانه على من جوز أن يترك عباده سدى فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، وأن هذا الحسبان باطل، والله متعال عنه لمنافاته لحكمته وكماله كما قال تعالى: ﴿**أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترك سُدىً**﴾

---

(١) ٧٦ مدارج جـ٢.　　(٢) ١١ مفتاح جـ٢.

[القيامة: ٣٦] قال الشافعي رضي الله عنه: أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والقولان واحد؛ لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي. فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة. فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى إنكارَ من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين.

ومثله قولـه تعالى: ﴿**أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون * فتعالى الله الملكُ الحق لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريم**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه، ولا يليق به لقبحه ولمنافاتـه لحكمته وملكه وإلهيته. أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه، وبثوابه وعقابه، وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل كما يدل على إثباته بالسمع. وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت في العقول جملة، ثم علم بالوحي. فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده، وأنه سبحانه دعا عباده على ألسنة رسله إلى ما وضع في العقول حسنه والتصديق به جملة، فجاء الوحي مفصلاً مبينًا، ومقررًا ومذكرًا لما هو مركوز في الفطر والعقول.

ولهذا سأل هرقل أبا سفيان في جملة ما سأله من أدلة النبوة وشواهدها عما يأمر به النبي ﷺ قال: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف، فجعل ما يأمر به من أدلة نبوته فإن أكذب الخلق وأفجرهم من ادعى النبوة وهو كاذب فيها على الله، وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه، فدعوته تليق به. وأما الصادق البار الذي هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها، وأجلها وأعظمها؛ فإن العقول والفطر تشهد بحسنها وصدق القائم بها. فلو كانت الأفعال كلها سواء في نفس الأمر لم يكن هناك فُرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه، إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهي. وكذلك مسألة النجاشي لجعفر وأصحابه عما يدعو إليه الرسول. فدل على أنـه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه، وأن الرسل تدعو إلى حسنِها وتنهى عن قبيحها، وأن ذلك من آيات صدقهم

وبراهين رسالتهم، وهو أولى وأعظم عند أولى الألباب والحجى من مجرد خوارق العادات، وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان، فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفًا بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم.

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك، كحال الكُمَّل من الصحابة كالصديق رضي الله عنه. ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس، فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة. فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذى، وأصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلىء بالإيمان، واثق بأنه سيظهر على الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيمانًا من إيمانه إيمان العادة والمربَّى والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين، وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما، ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه. فهذا دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته

وكماله، وشهدت قبح ما خلفه ونقصَه ورداءته، خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خُيِّر بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار دينًا غيره. وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله. ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أنه من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره، هم خواص الخلق. والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه.

(١)**قال الله تعالى** - حاكيًا عن نبيه سليمان عليه السلام -: ﴿**رُدُّوها عليَّ فَطَفِقَ مَسحًا بالسُّوقِ والأعناق**﴾ [صٓ: ٣٣]. ووجه استشهاده بالآية: أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل، فشغله استحسانها، والنظر إليها - لما عُرضت عليه - عن صلاة النهار، حتى توارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل، إذ استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه. فقال: ﴿**ردوها علي**﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله.

(٢)**وحدثني** داود بن عمر الضبي حدثنا عبدالله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي». وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسن حدثني عبدالله بن أبي بكر حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار في قوله عز وجل: ﴿**وإنَّ له عِندنا لزُلفَى وحُسنَ مآب**﴾ [صٓ: ٢٥]. قال: إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة ثم نودي ياداود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في دار الدنيا قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان فذلك قوله تعالى: ﴿**وإن له عندنا لزُلفى وحُسن مآب**﴾ [صٓ: ٢٥].

---

(١) ٤٧ مدارج جـ٣.

(٢) ١٨٢ حادي الأرواح.

وذكر حماد بن سلمة عن ثابت البناني وحجاج الأسود عن شهر بن حوشب قال: «إن الله جل ثناؤه يقول للملائكة: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدَعونه من أجلي فأسمعوا عبادي، فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط». وقال عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثني سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار في قوله عز وجل: ﴿**وإن له عِندنا لزُلفى وحسن مآب**﴾ قال: يقيم الله سبحانه داود عند ساق العرش فيقول: ياداود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم فيقول: إلهي كيف أمجدك وقد سلبتنيه في دار الدنيا؟ قال: فيقول الله عز وجل: فإني أرده عليك، قال: فيرده عليه فيزداد صوته قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنة»...

... [1]**وصف** الله بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿**إنَّا وجدناه صابِرًا**﴾ [صٓ: ٤٤] ثم أثنى عليه. فقال: ﴿**نِعم العبد إنه أوَّاب**﴾ [صٓ: ٤٤]. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان ـ كما تقدم ـ فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك...

... [2]**قوله** تعالى لنبيه أيوب عليه السلام: ﴿**وخُذ بيدِك ضِغثًا فاضرب به ولا تَحنَثْ**﴾ [صٓ: ٤٤] فقال شيخنا: الجواب أن هذا ليس مما نحن فيه؛ فإن للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين، يعني إذا حلف ليضربَنَّ عبده أو امرأته مائة ضربة، أحدهما: قول من يقول موجبها الضرب مجموعًا أو مُفرقًا، ثم منهم من يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق. والقول الثاني: أن موجبه الضرب المعروف، وإذا كان هذا موجبه في شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا؛

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ٢. (٢) ٢٢١ أعلام جـ٣.

لأنا إن قلنا: «ليس شرعًا لنا مطلقًا» فظاهر، وإن قلنا: «هو شرع لنا» فهو مشروط بعدم مخالفته لشرعنا، وقد انتفى الشرط.

وأيضًا، فمن تأمل الآية علم أن هذه الفُتيا خاصة الحكم؛ فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يَخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة؛ فإنما يقص ما خرج عن نظائره لنعتبر به ونستدل به على حكمة الله فيما قَصه علينا. أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص. ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها. فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفْتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفًا عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين. وأيضًا فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفْتاه بهذه الفُتيا لئلا يحنث، كما أخبر تعالى.

وهذا يدل على أن كفارة الأيمان لم تكن مشروعة بتلك الشريعة، بل ليس في اليمين إلا البر والحنث، كما هو ثابت في نذر التبرر في شريعتنا؛ وكما كان في أول الإسلام. قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن أبوبكر يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين»، فدلَّ على أنها لم تكن مشروعة في أول الإسلام. وإذا كان كذلك صار كأنه قد نذر ضربها، وهو نذر لا يجب الوفاء به؛ لما فيه من الضرر عليها، ولا يغني عنه كفارة يمين؛ لأن تكفير النذر فرع عن تكفير اليمين، فإذا لم تكن كفارة النذر إذ ذاك مشروعة فكفارة اليمين أولى. وقد علم أن الواجب بالنذر يحتذى به حَذو الواجب بالشرع، وإذا كان الضرب الواجب بالشرع يجب تفريقه إذا كان المضروب صحيحًا، ويجوز جمعه إذا كان المضروب مريضًا مأيوسًا منه عند الكل، أو مريضًا على الإطلاق عند بعضهم، كما ثبتت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ، جاز أن يقام الواجب بالنذر مقام ذلك عند العذر. وقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال مائة ضربة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفْتاه بجمع الضربات بالضِّغْثِ كما خفف عن المريض.

ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أنه يجزيه الثلث، فأقام الثلث في النذر مقام الجميع رحمة بالناذر وتخفيفًا عنه. كما أقيم مقامه في

الوصية رحمة بالوارث ونظرًا له. وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتُهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه، كطواف الوداع عن الحائض.

وأفتى ابن عباس وغيره مَن نذر ذبح ابنه بشاة إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل. وأفتى أيضا من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين، إقامة لأحد الأسبوعين مقام طواف اليدين. وأفتى أيضًا هو وغيره من الصحابة رضي الله عنهم المريض الميئوس منه والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما كل يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفتى أيضًا هو وغيره من الصحابة الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام الصيام. وهذا كثير جدًّا. وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله تعالى الشيء منها عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأن الرجل لو حَلف ليضربَنَّ أمته أو امرأته مائة ضربة أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلى حيلة وتخفيف الضرب بجمعه. ولو نذر ذلك فهو نذر معصية فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين. وأيضًا فإن المطلَق من كلام الآدميين محمول على ما فسر به المطلق من كلام الشارع خصوصًا في الأيمان؛ فإن الرجوع فيها إلى عُرف الخطاب شرعًا أو عادة أولى من الرجوع إلى موجب اللفظ في أصل اللغة، والله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿**الزَّانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ**﴾ [النور: ٢] وقال: ﴿**والذين يَرْمُون المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شُهداء فاجلدوهم ثمانين جَلدةً**﴾ [النور: ٤].

وفهم الصحابة والتابعون ومَن بعدهم من ذلك أنه ضربات متعددة متفرقة لا مجموعة، إلا أن يكون المضروب معذورًا عذرًا لا يُرجى زواله، فإنه يضرب ضربًا مجموعًا، وإن كان يُرجى زواله فهل يؤخر إلى الزوال، أو يقام عليه مجموعًا؟ فيه خلاف بين الفقهاء. فكيف يقال: إن الحالف ليضربن موجَب يمينه هو الضرب المجموع مع صحة المضروب وقوته؟ فهذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه أرباب

الحيل، وعليها بَنوا حيَلَهم، وقد ظهر بحمد الله أنه لا متمسك لهم فيها البتة.

(١)**أصلُ** كل فتنة إنما هو من تقديم الرأيِ على الشرعِ، والهَوى على العقلِ. فالأول: أصلُ فتنة الشُّبهة، والثاني: أصلُ فتنة الشهوة. ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهواتِ تُدفع بالصبرِ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدِّين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿**وجعلنا مِنهم أئمةً يهْدون بأمرِنا لَّما صبرُوا وكانو بآياتنا يوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤]. فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿**وتَواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر**﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكفُّ عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿**واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولِي الأيدي والأبصَارِ**﴾ [صٓ: ٤٥].

فالأيدي: القُوى والعزائم في ذات الله. والأبصارُ: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس «أولى القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولى القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق». وقال سعيد بن جُبير: القوة في العمل، والأبصار: بصرُهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يُحِبُّ البصرَ النافِذَ عند ورُود الشبُهات، ويحب العقل الكامل عند حْلول الشهواتِ». فبكمالِ العقل والصبر تُدفعُ فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

فصل(٢)

وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام. أحدها: من عدم بصيرة الإيمان جملة، فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق، فهو يجعل أصبعيه في أذنه من الصواعق، ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية. فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأسًا، ولم يقبل هدي الله الذي هدى به عباده ولو جاءته كل آية؛ لأنه ممن سبقت له الشقاوة، وحقت عليه الكلمة. ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه.

---

(١) ١٦٧ إغاثة جـ٢.
(٢) ٢٠٣ مفتاح جـ١.

القسم الثاني أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس، فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ، وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «أو منقادًا للحق لا بصيرة له في إصابة»، فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولاريب فهم على سبيل نجاة.

القسم الثالث وهو خلاصة الوجود، ولباب بني آدم، وهم أولو البصائر النافذة، الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين، فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود، وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم. فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم، كما قال فيهم علي بن أبي طالب، «أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق».

هذا علامة من عدم البصيرة، فإنك تراه يستحسن الشيء وضده، ويمدح الشيء ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه. فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيمًا مخالفته، ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفيًا لما أثبته، ومعاداة للقائمين بسنته. وهذا من عدم البصيرة. فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر، وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل، كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال: إنما كانوا يعملون على البصائر، وما أوتي أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل. قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾ [ص: ٤٥] قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله. وقال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصرًا في الدين. وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصرًا في العمل. وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله. إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب، ولا يزداد به إلا ضلالة. والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده. والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق، وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد، وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى: ﴿وما يَتذكرُ إلا أولُو الألباب﴾.

(١) **وقد** أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم: ﴿**بخالصةٍ ذكرَى الدارِ * وإنهم عندنا لمن المصطفَين الأخيار**﴾ [ص: ٤٦ - ٤٧]. ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه مكانًا عليًّا على سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحدًا منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى ﴿**شَرع لَكم مِنَ الدين ما وصَّى به نوحًا والذي أوحَينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم ومُوسى وعِيسَى**﴾ [الشورى: ١٣]. وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

(٢) **قال** الله عز وجل: ﴿**وإنَّهم عِندنا لمن المصطفَين الأخيار**﴾ [صٓ: ٤٧] «الصفا» اسم للبراءة من الكدر. وهو في هذا الباب سقوط التلوين أما الاستشهاد بالآية: فوجهه أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة. وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه. ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أي خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصَّفِيُّ» وهو السهم الذي كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة...

... (٣) **كمال** الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿**واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**﴾ [صٓ: ٤٥].

---

(١) طريق الهجرتين.
(٢) ١٤١ مدارج جـ٣.
(٣) ١٢٣ الجواب الكافي.

فالأيدي القوة في تنفيذ الحق، والأبصار البصائر في الدين. فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى. القسم الثاني عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون، وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف. والمؤمن القوي خير وأحب إلا الله منه. القسم الرابع من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة. يحسب الورم شحمًا والدواء النافع سمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول قال الله تعالى: ﴿**وجَعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبرُوا وكانوا بآياتنا يوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين. وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى: ﴿**والعَصر * إن الإنسان لفي خسرٍ * إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر: ١-٣] فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضًا ويرشده إليه ويحثه عليه.

(١)**فالمناظرة** في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل. والأول يشبه السباق والنضال. والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار. وقال تعالى: ﴿**وتِلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه؛ فإن العلم بالحجج، والقوة على

---

(١) ٢٧ الفروسية.

الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم كما قال تعالى: ﴿**يرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات**﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**﴾ [صٓ: ٤٥]. فالأيدي القوى التي يقدرون بها على إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه.

[1]**ومن** أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى: ﴿**واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرَى الدار**﴾ [صٓ: ٤٥-٤٦] أي خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿**واجعل لي لِسانَ صِدقٍ في الآخرين**﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿**ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لِسانَ صدقٍ عليا**﴾ [مريم: ٥٠] وقال لنبيه ﷺ: ﴿**ورفعنا لك ذكرَك**﴾ [الشرح: ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم. وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

[2]**روى** الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن ﴿**مفتَّحةً لهمُ الأبوابُ**﴾ [ص: ٥٠] قال أبواب ترى. وذكر أيضًا عن خليد عن قتادة قال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تتكلم وتكلم، وتفهم ما يقال لها: انفتحي، انغلقي. وقال أبوالشيخ أنبأنا محمد بن عبدالله بن محمد القيسي أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا أحمد بن الحواري أنبأنا عبدالله بن غياث عن الفزاري قال: «**لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب: فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين، وباب مقفل فيما بينه وبين أهل النار يفتحه إذا شاء ينظر إليهم لتعظم النعمة عليه، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه على ربه إذا شاء**».

---

(١) ١٠٥ الجواب الكافي.
(٢) ٥٥ حادي الأرواح.

وقد روى سهيل بن أبي صالح عن زياد النميري عن أنس بن مالك قال: قال رسـول الله ﷺ: «**أنـا أول من يأخـذ بحلقـة باب الجنة ولا فخر**». وفي حديث الشفاعة الطويل من رواية ابن عيينة عن علي بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها**» وهذا صريح في أنها حلقة حسية تحرك وتقعقع.

وروى سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي**» ويذكر عن علي رضي الله عنه: «من قال لا إله إلا الله الملك الحق المبين في كل يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر ومن وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع به باب الجنة».

(١)**قوله** سبحانه: ﴿**جنَّاتِ عدنٍ مفتَّحةً لهم الأبوابُ * متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشرابٍ**﴾ [ص: ٥٠-٥١]. كيف تجد تحته معنى بديعًا وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقى مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبـوابها كما قال تعالى: ﴿**مؤصدة * في عَمَدٍ ممددة**﴾ [الهمزة: ٨، ٩] قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل يعني أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها من غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وأيضًا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم، وذهابهم وإيابهم، وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت. وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا.

(٢)**فهم** يتنـاولـونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿**قطوفها دانية**﴾ ومعنى تذليل القطف تسهيل تناوله، وأهل المدينة يقولون: ذلل النخل أي سَوِّ عروقهـا وأخـرجهـا من السعف حتى يسهل تناولها. وفي نصب دانية وجهان: أحـدهمـا: أنه على الحال عطفًا على قوله متكئين. والثاني: أنه صفة الجنة وقال تعالى: ﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الجنتين الأخريين: ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾ [الرحمن: ٦٨] وخص النخل والرمان من بين الفاكهة بالذكر

---

(١) ٤٥ حادي الأرواح.   (٢) ١٢٥ حادي الأرواح.

لفضلهما وشرفهما، كما نص على حدائق النخل والأعناب في سورة النبأ؛ إذ هما من أفضل أنواع الفاكهة وأطيبها وأحلاها وقد قال تعالى: ﴿**ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربهم**﴾ [محمد: ١٥] وقال الطبراني حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا ريحان بن سعيد عن عبادة بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن إسماعيل عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى**» وقال عبدالله بن الإمام أحمد حدثني عقبة بن مكرم العمي حدثنا ربعي بن إبراهيم بن علية حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهبط الله آدم من الجنة عليه السلام وعلمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أنها تغير وتلك لا تغير**». وقد تقدم أن سدرة المنتهى نبقها مثل القلال.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الـزبـير عن جابـر عن النبي ﷺ قال: «**عرضت على الجنة حتى لو تناولت منها قطفًا أخذته**» وفي لفظ: «**فتناولت منها قطفًا فقصرت عنه يدي**» وقال أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيدالله حدثنا ابن عقيل عن جابر قال: «**بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يارسول الله صنعت اليوم في صلاتك شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: إنه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه**».

وقال ابن المبارك: أنبأنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ثمر الجنة أمثال القلال والدلاء، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عجم». وقال سعيد بن منصور حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قيامًا وقعودًا ومضطجعين على أي حال شاءوا».

[1]**وفي** الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**».

---

(١) ٤٧ حادي الأرواح.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان**. فقال أبوبكر: بأبي أنت وأمي يارسول الله ماعلى من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: **نعم وأرجو أن تكون منهم**»...

(١)**وقال**: ﴿**جَنَّاتِ عدن مفتحةً لهم الأبوابُ * متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشرابٍ**﴾ [صٓ: ٥٠-٥١]. وقال تعالى: ﴿**يَدْعُون فيها بكل فاكهة آمنين**﴾ [الدخان: ٥٥] وهذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها. وقال تعالى: ﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة**﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣] وقال تعالى: ﴿**وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة**﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] أي لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها: وقال: ﴿**فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية**﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف جمع قطف وهو ما يقطف، والقطف بالفتح الفعل أي ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم. وقال تعالى: ﴿**ودانيةً عليهم ظلالُها وَذُلِّلَت قطوفُها تذليلا**﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هَم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاؤوا.

(٢)**وقال** تعالى فيهم(٣): ﴿**وإذ يَتَحاجُّون في النار فيقول الضعفاءُ للذين استكبَرُوا إنَّا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مُغْنُونَ عنا نصيبًا منَ النارِ * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن اللهَ قد حَكَمَ بين العباد**﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]. وقال فيهم: ﴿**هذا فليَذُوقوه حميمٌ وغساق * وآخرُ من شكلِه أزواجٌ * هذا فوجٌ مقتَحِمٌ معكم لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتُموه لنا فبئس**

---

(١) ١٢٤ حادي الأرواح.		(٢) ٢٩ اجتماع الجيوش.

(٣) الضمير يعود على من تكبر على طاعة الله واتباع رسوله ﷺ.

القرار﴾ [ص: ٥٧-٦٠] أي سننتموه لنا وشرعتموه **﴿قالوا ربَّنا مَن قدَّم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار﴾** [ص: ٦١] فقولهم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار أي داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: **﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنت قدمتموه لنا﴾**.

وفي الضمير قولان: أحدهما أنه ضمير الكفر والتكذيب وردِّ قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به. والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين. والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله سبحانه وتعالى، أي بدأتم به وتقدمتمونا إليه، فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: **﴿أنتم قدمتموه لنا﴾** ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: **﴿ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار﴾** فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به لأنهم الذين حملوهم عليه ودَعَوْهم إليه، ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفًا وهم الشياطين.

فصل[1]

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان. صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فعلمه، وكلامه، وإرادته، وقدرته، وحياته، صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح. فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها

(١) ١٩٠ الروح.

ملكًا له. وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبتـه لها وتكـريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿**وربُّك يخلُقُ ما يشاءُ ويَختار**﴾

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفـات. فتـأمـل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

(١)**فإن** قيل فما تقـولون في قوله تعالى: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله: ﴿**خلقت بيدي**﴾ ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبوالبشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء**». فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده؛ فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي**﴾ فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه؟ قيل: هذا الموضع هو الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن.

فأما الـروح المضـافـة إلى الـرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا.

وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿**التي أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من رُوحِنـا**﴾ [التحريم: ١٢] وقـد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران: أحدهما أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي

نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده؟ قيل: لعَمر الله، إنهما سؤالان مهمان! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛ فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكًا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود، وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقه سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخًا ونفخًا ومنفوخًا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح. هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة، والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وإضافة إليه لأنه بإذنه وأمره، فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول؟ وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

[1]وقد قيل: إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص

---

(١) ٦٣ مختصر الصواعق جـ١.

بالقياس وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود، فإنه قال: ﴿أنا خيرٌ مِنه﴾ وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه، وهي: إن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها صورة معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خلقْتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ فكانت نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود. وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه بتأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إمامًا لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله إلى يوم القيامة. فلا إله إلا الله والله أكبر. كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين؟ وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين رأيتها من جنس شبهته.

والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلًا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها. وعرضت هذه الشبهة لعدو الله من جهة كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنصوص الوحي. وهكذا إلحاد كل مجادل في نصوص الوحي إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه. قال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين يُجادِلون في آياتِ الله بغير سلطانٍ أتاهم إن في صُدُورِهم إلا كِبرٌ ما هم ببالِغيه فاستَعِذ باللهِ إنه هو السميعُ البصير﴾ [غافر: ٥٦] وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بالتأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل معصية الرب. ثم اختلف الناس في وجه تأويله. فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة. وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا نظر ظاهر. فإن الله تعالى أخبر أن إبليس قال له: ﴿ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [غافر: ٢٠] فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها، إما بعينها أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها. ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصيًا بأكله من غيرها، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم، وأيضًا فحيث نهى الله تعالى عن فعل الشيء بقربانه لم يكن أصلًا للتحريم كقوله: ﴿ولا تقربوهُن حتَّى يطهرن﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ولا تقربوا الزِّنى﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ولا

تقربوا مال اليتيم﴾ [الإسراء: ٣٤] وأيضًا لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة، وأخبر أنه عصى ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معًا، لا عن أكل كل منهما على انفراده، لأن قوله: ﴿ولاَ تقربَا﴾ نهي لهما عن الجمع، ولايلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد. وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب[1] في تفسيره، وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهامًا، أفترى فهم أحد من قول الله تعالى: ﴿ولاَ تقربوا مال اليَتيم﴾، ﴿ولا تقربوا الزّنى﴾ ونظائره، أي إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به، فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات.

[2]**إن** معارضة الوحي بالعقل ميراث عن الشيخ أبي مرة، فهو أول من عارض السمع بالعقل وقدمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين، إحداهما قوله: ﴿أنا خيرٌ مِنه﴾ فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول. وذكر سند المقدمة الأولى، وهو أيضًا قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه فقال: ﴿خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ [ص: ٧٦] المقدمة الثانية كلها معلومة، أي ومن خلق من نار خير ممن خلق من طين. فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة. فالقياس الأول هكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقَين لا يسجد لمن هو دونه. وهذا من الشكل الأول. والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين. والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين. فنتيجة هذا القياس العقلي: أنا خير منه، ونتيجة الأول: فلا ينبغي أن أسجد له. وأنت إذا تأملت مادة هذا القياس وصورته رأيته أقوى من كثير من قياساتهم التي عارضوا بها الوحي، والكل باطل.

وقد اعتذر أتباع الشيخ أبي مرة عذار (منها) أنه لما تعارض عنده العقل والنقل قدم العقل (ومنها) أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله «اسجدوا» ولا عموم له؛

---

(١) هو الفخر الرازي

(٢) ٢٠١ مختصر الصواعق جـ١.

فإن الضمائر ليست من صيغ العموم (ومنها) أنه وإن كان اللفظ عامًّا فإنه خصه بالقياس المذكور (ومنها) أنه لم يعتقد أن الأمر للوجوب، بل حمله على الاستحباب لأنه المتيقن، أو على الرجحان دفعًا للاشتراك والمجاز. (ومنها) أنه حمله على التراخي ولم يحمله على الفور. (ومنها) أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره ورأى أنه لا يليق به السجود لسواه. وبالله تأمل هذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي يذكرها كثير من الناس. وفي بني آدم من يصوب رأي إبليس وقياسه، ولهم في ذلك تصانيف، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، ولهذا يقول في قصيدته:

الأرض مظلمة سوداء معتمة		والنار معبودة مذ كانت النار

ولما علم الشيخ أنه قد أصيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالمعقول أوحى إلى تلامذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارضون بها الوحي، وأوهم أصحابه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدمتم النقل عليها فسدت عقولكم: ﴿وإنَّ الشياطين لَيوُحُون إلى أوليائهم لِيُجادِلُوكم وإن أطعْتُمُوهم إنَّكم لمشْرِكون﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجن يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرُفَ القولِ غرورًا ولو شاء ربُّك ما فعلوه فَذَرْهُم وما يفترون * ولِتَصْغَى إليه أفئِدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرْضَوْه ولِيَقْتَرِفُوا ماهم مُقتَرِفُون * أفغيرَ اللهِ ابتَغِي حكَمًا وهو الذي أنزل إليكُمُ الكتاب مفصَّلا والذين آتيناهمُ الكِتابَ يعلمون أنه منزَّلٌ من ربِّك بالحقِّ فلا تكونَنَّ من الممتَرين * وتمت كلمَةُ ربِّك صدقًا وعدلاً لا مُبدِّل لكلماته وهو السميعُ العليم * وإن تُطع أكثرَ من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله إن يتبِعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون * إن ربَّك هو أعلم مَن يَضِل عن سبيله وهو أعلم بالمُهتدين﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٧]. الوجه الثاني والثلاثون: في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي. وذلك من وجوه (أحدها) أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياسًا باطلاً، ويسمى قياسًا إبليسيًّا، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل. ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته. وقد بينا فيما تقدم أنه ما عارض

أحد الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله حتى يقول ما يضحك العقلاء.

الثاني: أن قوله: ﴿**أنا خيرٌ منه**﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل؛ فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته؛ فإن محمدًا ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أفضل من الملائكة.

ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورًا ومادة البشر ترابًا؛ فالتفضيل ليس بالمواد والأصول. ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيرًا وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم. وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثًا في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله تعالى بقوله: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقناكُم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لِتعارفوا إن أكرمكم عند اللهِ أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله وضع عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء الناس مؤمن تقي وفاجر شقي**». وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. الناس من آدم وآدم من تراب**». فانظر إلى سريان هذه النكتة الإبليسية في نفوس أكثر الناس، من تفضيلهم بمجرد الأنساب والأصول.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسي الشيخ مافي النار من الطيش والخفة، وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتى لو وقع منها شواظ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة.

منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه. ومنها أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه. ومنها: أنه لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه ودون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار. قالت عائشة: «**كان يمر بنا الشهر والشهران ما يوقد في بيوتنا نار ولا نرى نارًا**».

قال لها عروة: فما عيشكم؟ قالت: «**الأسودان التمر والماء**». ومنها: أن

الأرض نؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك وتمحق بركته. ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله، ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه، وكفاتهم أحياء وأمواتًا. والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ومنها: أن في الأرض بيته الذي جعله إمامًا للناس وقيامًا لهم، وجعل حجه محطًا لأوزارهم ومكفرًا لسيئاتهم، وجالبًا لهم مصالح معاشهم ومعادهم. ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، والله لا يحب المستكبرين ولا يحب المفسدين. والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

وقد ظهر بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية، وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية، نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار والمشركين، ومن المادة النارية صالحوا الجن، ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس، وليس في أولئك مثل الرسل. فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها: أن النار لا تقوم بنفسها بل لابد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها لا تحتاج إلى محل تقوم به، ولا تفتقر في قوامها ونفعها إلى النار. ومنها: أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

ومنها: أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحيا بها، وتخرج زينتها وأقواتها وتشكر ربها، وتنزل على النار فتأباها وتطفؤها وتمحوها وتذهب بها، فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة. ومنها: أن النار تطفأ عند التكبير، وتضمحل عند ذكر كبرياء الرب، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان حتى لا يسمعه، والأرض تبتهج بذلك وتفرح به، وتشهد به لصاحبه يوم القيامة. ويكفي في فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء. فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه؟

فقد تبين لك حال هذه المعارضة العقلية للسمع وفسادها من هذه الوجوه وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟

ونحن نقول قولا نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله والاعتراف بمنته علينا وفضله

لدينا، وأنه محض منته وجوده وفضله، فهو المحمود أولاً وآخرًا على توفيقنا له وتعليمنا إياه. إن كل شبهة من شبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي فعندنا ما يبطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مد الله في الأجل أفردنا في ذلك كتابًا كبيراً.

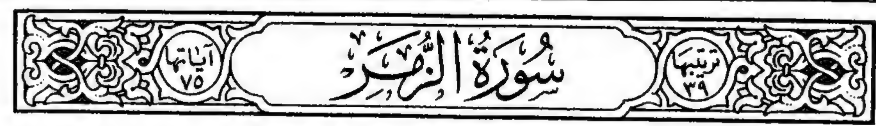
ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل اقتدينا في السير إليه بموسى عليه السلام في سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبدالله في سفره إلى عبدالله بن أنيس لسماع حديث واحد، ولكن زهد الناس في عالم قومه. وقد قام قبلنا بهذا الأمر من برز على أهل الأرض في عصره وفي أعصار قبله، فأدرك من قبله وحيدًا وسبق من بعده سبقًا بعيدًا[١].

الوجه الثالث والثلاثون: أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ﴿**لَيس كمثله شيء**﴾ وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة صٓ
والحمد لله رب العالمين

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ وله في هذا كتاب العقل والنقل طبع في مصر بهامش كتاب منهاج السنة وهو نفيس جدًا.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** الله تعالى، حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**﴾ [الزمر: ٣]. ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر أنه لا يهديهم فقال: ﴿**إن الله لا يهدي من هو كاذِب كفَّار**﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليًّا، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضى قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعًا من دون الله ربه ومولاه.

و«**الشفاعة**» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحَّده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعامَلون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

... (٢) **يقول** تعالى: ﴿**يخلقكم في بطون أمَّهاتكم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث**﴾ [الزمر: ٦] فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلى حال، وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فإن كل واحد منها حجاب على الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات، وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل، وظلمة البطن، وظلمة الرحم؛ فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء.

(١) ٣٤ مدارج جـ١.　　(٢) ١٤٨ تحفة المودود.

وقال بقراط: المرأة إذا حبلت لم تألم من اجتماع الدم الذي ينزل ويجتمع حول رحمها، ولا تحس بضعف كما تحس إذا انحدر الطمث، لأنها لا يثور دمها في كل شهر، لكنه ينزل إلى الرحم كل يوم قليلاً قليلاً نزولاً ساكنًا من غير وجع، فإذا أتى إلى الرحم اغتذى منه الجنين ونما، ثم قال: وعلى غير بعيد من ذلك، إذا خلق للجنين لحم وجسد تكون الحجب، وإذا كبر كبرت الحجب أيضًا وصار لها تجويف خارج عن الجنين، فإذا نزل الدم من الأم جذبه الجنين واغتذى به فيزيد في لحمه، والردى من الدم الذي لا يصلح للغذاء ينزل إلى مجاري الحجب، لذلك تسمى الحجب، التي إذا صار لها تجويف تقبل الدم: المشيمة.

وقال إذا تم الجنين وكملت صورته واجتذب الدم لغذائه بالمقدار اتسعت الحجب، وظهرت المشيمة التي تكون من الآلات التي ذكرنا، فإن اتسع داخلها اتسع خارجها لأنه أولى بذلك، لأن له موضعًا يمتد إليه.

قلت: ومن ههنا لم تحض الحامل، بل ما تراه من الدم يكون دم فساد ليس دم الحيض المعتاد. هذه إحدى الروايتين عن عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور من مذهب أحمد الذي لايعرف أصحابه سواه، وهو مذهب أبي حنيفة. وذهب الشافعي في رواية عن عائشة، والإمام أحمد في رواية عنه، اختارها شيخنا إلى أن ما تراه من الدم في وقت عادتها يكون حيضًا.

وحجة هذا القول ظاهرة، وهي عموم الأدلة الدالة على ترك المرأة الصوم والصلاة إذا رأت الدم المعتاد في وقت الحيض، ولم يستثن الله ورسوله حالة دون حالة، وأما كون الدم ينصرف إلى غذاء الولد، فمن المعلوم أن ذلك لا يمنع أن يبقى منه بقية تخرج في وقت الحيض تفضل عن غذاء الولد، فلا تنافي بين غذاء الولد وبين حيض الأم.

وأصحاب القول الآخر يحتجون بقوله عليه السلام: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**» فجعل الحيضة دليلاً على عدم الحمل، فلو حاضت الحامل لم تكن الحيضة علمًا على براءة حملها. والآخرون يجيبون عن هذا: بأن الحيضة علم ظاهر، فإذا ظهر بها الحمل تبينا أنه لم يكن دليلاً، ولهذا يحكم بانقضاء العدة بالحيض ظاهرًا. . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لِعباده الكفر وإن تشكروا يرضَه لكم**﴾ [الزمر:٧]. وقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة:٣]. وقال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ [البقرة:١٨٥]. وقال: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيمًا * يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفًا**﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

ويتنصل سبحانه إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم كما قال: ﴿**وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعِمون**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]. فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الإرباح كقوله: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**﴾ [الإسراء:٧]، ﴿**ومَن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون**﴾ [الروم:٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرجٍ ولكن يُريد ليُطَهِّركم وليُتم نعمته عليكم لعلكم تشْكرون**﴾ [المائدة:٦]. وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿**لن ينال الله لُحومها ولا دِماؤها ولكن يناله التقوى مِنكم**﴾

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿**ولا تيمَّموا الخبيثَ منه تنفقون ولستُم بآخذيه إلا أن تغمِضوا فيه واعلموا أنَّ الله غني حَميد**﴾ [البقرة:٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدا، بل هو الغني بنفسه

---

(١) ١٣٤ طريق الهجرتين.

الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائد عليكم... [١]

[٢]**قال** الله تعالى: ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية**﴾ [الزمر: ٢٠] فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عيانًا. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها. وقال تعالى: ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا**﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة. وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿**وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكُم عندنا زُلفى إلا مَن آمن وعمِل صالِحًا فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم في الغُرفات آمنون**﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿**يغفِر لكم ذنوبكم ويُدخِلكم جنات تجرِي من تحتها الأنهار ومساكن طيِّبة في جنَّات عدْنٍ**﴾ [الصف: ١٢].

وقال تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿**رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة**﴾ [التحريم: ١١]. وروى الترمذي في جامعه من حديث عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفًا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها**»، فقام أعرابي فقال: يارسول الله لمن هي؟ قال: «**لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**». قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام قال: حدثني أبوسلام حدثني أبو معانق الأشعري حدثني أبومالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة**

---

(١) بقية البحث مفيد جدًا تركناه اختصارًا فاظفر به وفقك الله لرضاه (ج). (٢) ١٠٢ حادي الأرواح.

غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»...

(١)**وقال** تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً**﴾ [الزمر: ٢٩]. هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟ وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوَّعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر، بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك. وهذا كثير في القرآن، فمن تتبعه وجده.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾. احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا المَلَكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلِم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾. هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحِّد؛ فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاكسون، والرجل المتشاكس: الضَّيقُ الخلق. فالمشرك، لما كان يعبد آلهة شتَّى شُبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبدٍ لرجلٍ واحدٍ، قد سَلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحُن الخُلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولِّيه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحدٍ يستحق من مَعُونته وإحسانه

---

(١) ٩ مفتاح جـ٢. (٢) ٢٤٠ مدارج جـ١. (٣) ١٧ أعلام جـ١.

والتفـاتـه إليه وقيامـه بمصـالحـه مالا يستحق صاحب الشركـاء المتشـاكسين. الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون.

(١)**أما** السؤال الأول وهو ما حقيقة هذه اللفظة، فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذ المعنى تدور تصاريفها، فمن ذلك قولك «سلمك الله، وسلِم فلان من الشر» ومنه دعاء المؤمنين على الصراط «رب سلم، اللهم سلم». ومنـه سلم الشيء لفـلان أي خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه. قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل﴾. أي خالصًا له وحده لا يملكه غيره. ومنه السلم ضد الحرب قال تعـالى: ﴿وإن جنَحُـوا للسلمِ فاجنَح لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر. ولهذا يبنى منه على المفاعلة فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحـده، فخلص من دغـل الشرك وغله، ودغـل الـذنوب والمخالفات. بل هو المستقيم على صدق حبـه وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته. ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركـاء متشـاكسـون. ولهـذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به.

ومنه السلم للسلف، وحقيقته العوض المسلم فيه؛ لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامتـه لربـه، ثم سمى العقد سلمًا وحقيقته ما ذكرناه (فإن قيل) فهذا ينتقض بقولهم للديغ سليمًا (قيل) ليس هذا بنقض له بل طرد لما قلناه؛ فإنهم سموه سليمًا باعتبار ما يهمه ويطلبه ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة، فليس عنده أهم من السلامة، ولا هو أشد طلبًا منه لغيرها، فسُمي سليمًا لذلك. وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها. وهذا أحسن من قولهم إنما سميت

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ٢.

مفازة وسمي اللديغ سليمًا تفاؤلاً، وإن كان التفاؤل جزءَ هذا المعنى الذي ذكرناه وداخلاً فيه فهو أعم وأحسن.

فإن قيل: فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل، قيل: ذلك ظاهر؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضًا للهوِي والسقوط، طالبًا السلامة راجيًا لها سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلمًا لتضمنها سلامته، إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعًا. فصح أن السلم من هذا المعنى.

ومنه تسمية الجنة بدار السلام. وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها إضـافـة إلى مالكها السلام سبحانه. الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها؛ فإن تحيتهم فيها سلام. الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر. والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها؛ فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكهـا لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام وكان يقال: دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك. فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضا فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها. أما الأول فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. وأما الثاني فنحو دار المتقين، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن. وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصًا بها، كالخلد والقرار والبقاء. الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمـل منها مثل كونها دائمة وباقية، ودار الخلد. والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهر.

فصـل

وإذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى من هذا كله وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة. فهو سبحانه

سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم. وسلام في صفاته من كل عيب ونقص. وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص، وشر وظلم، وفعل واقع على غير وجه الحكمة. بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار. فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه. وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله. فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها. فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم، وكذلك قيوميته، وقدرته سلام من التعب واللغوب. وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلى تذكر وتفكر. وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه. وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه. وإلاهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو. وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه. وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه. بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته.

فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطيَ. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه

عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكـون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد.

بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما. ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوّه وسلام مما يضاد غناه. وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه. وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورًا في شيء تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: **﴿وقُلِ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شَريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الـذُّل﴾** [الإسراء: ١١١]. فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذل. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبـة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها. وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى. وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب[١].

[٢]**ولما** نزل قوله تعالى: **﴿إنك ميِّت وإنَّهم ميتُون * ثم إنَّكم يوم القيمة عند ربِّكم تختصمون﴾** [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] سئل ﷺ: يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا

(١) بقية الأجوبة نحيلك عليها في الجزء الثاني بدئت بصحيفة برقم ١٣٧ وانتهت بصحيفة رقم ١٩٧ وقد أخذنا منها ما كان مناسبًا لمواضعه من التفسير. وهي صالحة لأن تكون رسالة مستقلة حيث طرق المؤلف فيها بحوثًا نادرة جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء (ج).

(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال: «**نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه**» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

وسئل ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه؟ فقال: «**أليس الذي أمْشاه في الدنيا على رجليه قادِر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟**».

وسئل ﷺ: هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ فقال: «**أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحدًا: حيث يوضع الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وحيث تتطاير الكتب حتى يعلم كتابه من يمينه أو من شماله أو من وراء ظهره، وحيث يوضع الصراط على جِسر جهنم، على حافتيه كلاليب وحَسَك، يحبس الله به مَن يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ينجو**».

وسئل ﷺ: يارسول الله الرجل يحب القوم ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «**المرء مع من أَحَبَّ**».

(١)**الوجه** الحادي والأربعون بعد المائة أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء. أما المقام الأول ففي قوله تعالى: ﴿**والذِي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]. وهذا يتناول الجزاءين الدنيوي والأخروي. وأما المقام الثاني ففي قوله تعالى: ﴿**ولَمَّا بلغ أشده آتيناه حُكمًا وعِلمًا وكذلك نجزي المُحسنين**﴾ [يوسف: ٢٢]. قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله: ﴿**ولما بلغ أشُده آتيناه حُكمًا وعِلمًا وكذلك نجزي المُحسنين**﴾ ومن هذا قال بعض العلماء: تقول الحكمة من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني اهـ.

(٢)**وأما** المسألة الثالثة وهي هل تلاقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟ فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى، والحس والواقع من

---

(١) ١٦٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٢٣ الروح.

أعدل الشهود بها فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: **﴿الله يتوفَّى الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسِل الأخرى إلى أجل مسمًّى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكَّرون﴾** [الزمر: ٤٢].

قال أبوعبدالله بن منده ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ثنا عبدالله بن حسين الحراني ثنا جدي أحمد بن شعيب ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره ثنا عبدالله بن سليمان ثنا الحسين ثنا عامر ثنا أسباط عن السدى في قوله تعالى: **﴿والتي لم تمت في منامها﴾**. قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان. قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس. وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم. والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلايردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله. واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة. قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم. وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول، لأنه سبحانه أخبر وفاتين: وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم. وقسم الأرواح قسمين: قسمًا قضى عليها بالموت فأمسكها عنده، وهي التي توفاها وفاة الموت. وقسمًا لها بقية أجل فردها إلى

جسدها إلى استكمال أجلها. وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها. فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾؛ فإنها من حين قبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت، فكيف يقول بعد ذلك ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول: قوله تعالى: ﴿فيُمسك التي قضى عليها الموت﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإنه سبحانه ذكر وفاتين: وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى. ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله: ﴿يتوفَّى الأنفس حين موتِها﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام.

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحدًا من العالمين. وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وإخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفري وإخبار ابنه له بما عمل من بعده، وقصة شبيب بن شيبة وقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله، وقصة الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته.

وقال سعيد بن المسيب: التقى عبدالله بن سلام مع سلمان الفارسي فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقي الأموات والأحياء؟ قال: نعم أرواحهم

في الجنة تذهب حيث شاءت. قال: فمات فلان فلقيه في المنام فقال: توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط. وقال العباس بن عبدالمطلب: كنت أشتهي أن أرى عمر في المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كاد عرشي ليهد لولا أن لقيت رؤوفًا رحيمًا. . .

فصل[1]

وأما المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده

فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: ﴿**كُلُّ من عليها فانٍ * ويبقى وجه ربِّك ذو الجَلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال تعالى: ﴿**كُل شيء هالِك إلا وجهه**﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت. قالوا: وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿**ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ [غافر: ١١]. فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لا نقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم**﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في

(١) ٤٠ الروح.

عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم　　إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة　　وقيل تشرك جسم المرء في العطب[1]

[2] **فإن** قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل قد قال تعالى: ﴿**ونُفخ في الصُّور فصعِق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [الزمر: ٦٨]. فقد استثنى **الله** سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره. وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها. قال أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى**﴾ [الدخان: ٥٦]. وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان. وأما قول أهل النار: ﴿**ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ [غافر: ١١]. فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿**كيف تكفرون بالله وكُنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم**﴾ [البقرة: ٢٨] فكانوا أمواتًا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور.

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، ففي الحديث الصحيح أن الناس يصعقون يوم القيامة «**فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة يوم الطور**».

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض

---

(١) يأتي إيراد على ماسبق في آخر السورة عند قوله: ﴿**ونفخ في الصور**﴾ إن شاء الله (ج).
(٢) ٤١ الروح.

بنوره، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿**فذرهم حتَّى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون**﴾ [الطور: ٤٥]. ولو كان هذا الصعق موتًا لكانت موتة أخرى. وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبوعبدالله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق. ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء. وهذا باطل. (وقال) القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض. قال: فتستقل الأحاديث والآثار. ورد عليه أبوالعباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذًا بقائمة العرش قال: وهذا إنما هو عند نفخة الفزع.

قال أبوعبدالله: قال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا. وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصًا بموسى. وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام. إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم. وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**فأكون أول من يفيق**» فنبينا أول من يخرج

من قبره قبل جميع الناس إلا موسى. فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقًا لأنه حوسب بصعقة يوم الطور. وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقًا؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرًا كليًا، انتهى.

قال أبو عبدالله القرطبي: إن حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى لا أدرى أصعق أم لم يصعق. وقد قال في الحديث: «**فأكون أول من يفيق**» وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق. ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت. وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش**» قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا.

والحديثان هكذا (أحدهما) أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق (والثاني) هكذا، أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»، قال الترمذي: هذا

حديث حسن صحيح. فدخل على الراوي هذا الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[1] يقول ذلك. فإن قيل: فما تصنعون بقوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل**» والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ الله**﴾ [الزمر: ٦٨]. ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة. قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ماتواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور**» فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة، وأن موسى داخل فيمن استثني منها. وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعًا، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزى بصعقة الطور؟ فتأمله.

وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعًا، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكًّا فجعلت صعقة هذا التجلي عوضًا من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقًا أن يعض عليه بالنواجذ. ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

[2]**وأما** المسألة الخامسة وهي أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها؟ فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها، وليست بداخل العالم ولا خارجه، ولا لها شكل وقدر ولا شخص. فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه. وكذلك من يقول: هي عرض من أعراض البدن، فتميزها عن غيرها

(١) هو جمال الدين المزي محدث الشام ـ مات اثنا عشر صفر سنة ٦٤٢هـ.

(٢) ٤٥ الروح.

مشروط باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي. ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن. وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه.

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج، والقبض، والتوفي، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى: ﴿**ولو ترى إذا الظالِمون في غمرات الموت والملائكة باسِطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم**﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿**يا أيتُها النَّفس المطمئنة * ارجِعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جَنَّتي**﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى: ﴿**ونفس وما سوَّاها * فألهمها فُجورها وتقواهَا**﴾ [الشمس: ٧-٨]. فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله: ﴿**الذي خلقك فسوَّاك فعدلك**﴾ [الانفطار: ٧]. فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له.

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها؛ فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطًا وتناسبًا وتفاعلاً وتأثرًا من أحدهما بالآخر الروح والبدن. ولهذا يقال لها عند المفارقة: «اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب» «واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث».

وقال الله تعالى: ﴿**الله يتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمًّى**﴾ [الزمر: ٤٢]. فوصفها بالتوفي والإمساك والإرسال، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية. وقد أخبر النبي ﷺ أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت، وأخبر أن الملك يقبضها

فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ـ والأعراض لا ريح لها، ولا تمسك، ولا تؤخذ من يد إلى يد ـ.

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلي عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين، ثم ترد إلى الأرض، وأن روح الكافر تطرح طرحًا، وأنها تدخل مع البدن في قبره للسؤال.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن ـ وهي روحه ـ طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها. وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها. وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة.

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا قبل يوم القيامة. وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياة أرواحهم ورزقها دارٌ، وإلا فالأبدان قد تمزقت. وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. وصح عنه ﷺ أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة. وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة.

وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب**»، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿**ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾

[آل عمران: ١٦٩] الآيات. رواه الإمام أحمد. وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها. وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى.

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقل ما تشتبه.

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعًا إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر، بل التميز الذي عندنا بها علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها. وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين. فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور.

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عيانًا: قل أن ترى بدنًا قبيحًا وشكلاً شنيعًا إلا وجدته مركبًا على نفس تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى آفة في بدن الا وفي روح صاحبه آفة تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء ذلك. ويحكى عن الشافعي رحمه الله في ذلك عجائب.

وقل أن ترى شكلاً حسنًا وصورة جميلة وتركيبًا لطيفًا إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له. هذا مالم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد. وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزًا بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم، وكذلك الجن، فتميز الأرواح البشرية أولى.

فصل

وأما المسألة السادسة وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟

فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له فقال: «**أعوذ بالله من**

عذاب القبر»، ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ماهذا الروح الطيب فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: مادينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة. قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت

على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح، ثم قرأ رسول الله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ [الأعراف: ٤٠] **فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشرِكْ بالله فكأنَّما خرَّ من السماء فتخطفه الطَّير أو تهوِي به الريح في مكانٍ سحِيقٍ﴾** [الحج: ٣١]. **فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»**، رواه الإمام أحمد، وأبوداود. وروى النسائي وابن ماجه أوله. ورواه أبوعوانة الإسفرائيني في صحيحه. وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف.

وقال أبومحمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ، إن الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك يعني قوله تعالى: **﴿قَالوا ربَّنا أمَتَّنا اثنتين وأحييتَنا اثنتين﴾** [غافر: ١١] وقوله تعالى: **﴿كيفَ تكفُرون بالله وكُنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتُكم ثم يحييكم﴾** [البقرة: ٢٨].

قال ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثًا، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، ومن خصه نص.

وكذلك قوله تعالى: **﴿الله يتوفَّى الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمًّى﴾** [الزمر: ٤٢].

فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة. وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور، ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا، وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلاشك، وأما الجسد فلاحس له وقد قال تعالى: ﴿**وما أنت بمُسمع من في القبور**﴾ [فاطر: ٢٢] فنفى السمع عمن في القبور وهي الأجساد بلاشك. ولا يشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ السمع.

قال: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به. قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده، وليس بالقوى، تركه شعبة وغيره، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة: ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك.

قال: وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضًا عن الصحابة. ثم ذكر من طريق ابن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحًا قبل أن يقبر فقيل له هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء وإن الأرواح عند الله فقالت أمه: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

قلت: ما ذكره أبومحمد فيه حق وباطل، أما قوله: من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ، كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة

المألوفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله ﷺ: فتعاد روحه في جسده، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى.

وأما استدلاله بقوله تعالى: **﴿قَالُوا ربَّنا امتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** [غافر: ١١] فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد، كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للمسألة معتدًا بها؛ فإنه حييَ لحظة بحيث قال فلان قتلني ثم خر ميتًا، على أن قوله: ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق.

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام (أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنينًا. (الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض. (الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه. (الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة.

وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة. (الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

وأما قوله تعالى: **﴿الله يتوفَّ الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مُسمًّى﴾** [الزمر: ٤٢] فإمساكه سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما ردًّا عارضًا لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت. **فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.**

وأما إخبار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم، قال: فإنهم أحياء عند ربهم، وقد رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، ورأى موسى قائمًا في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح، فرأى موسى آدمًا ضربًا طوالاً كأنه من رجال شنوءة، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه.

ونازعهم في ذلك آخرون وقالوا: هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعًا إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعًا. ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت في الجنة. وقد صح عن النبي ﷺ أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق لم تنشق عن أحد قبله.

ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطرًا. وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب. وقد صح عنه أن الله وكّل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام. وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال: هكذا نبعث. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأى موسى قائمًا يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر، وإشراف عليه، وتعلق به بحيث يصلي في قبره، ويرد سلام من سلم عليه، وهي في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين.

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلى ما فوق السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره، وهو

زمن يسير لا يصعد البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة.

وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض. قال شيخنا: وليس هذا مثلاً مطابقًا فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء، والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولاصفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل.

وأما قول الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر: كيف تخاطب أقوامًا قد جيفوا مع إخباره بسماعهم كلامه، فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت ردًا يسمعون به خطابه، والأجساد قد جيفت، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت.

وأما قوله تعالى: **﴿وما أنت بِمسمع من في القُبور﴾** [فاطر: ٢٢] فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفعون به، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئًا البتة، كيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين. وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام.

هذه الآية نظيرقوله: **﴿إنَّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصُّم الدُّعاء إذا ولَّوا مدبِرين﴾** [النمل: ٨٠]. وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعًا بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق، ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم. وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه إن أنت إلا نذير، أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه.

وأما قوله: إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى

فهذا من مجازفته ـ رحمه الله ـ فالحديث صحيح لاشك فيه، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان، منهم عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة، ومجاهد.

قال الحافظ أبوعبدالله بن منده في (كتاب الروح والنفس) أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف ثنا محمد بن إسحاق الصفار أنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلاً ـ والارمام السكوت ـ فلما رفع رأسه قال: «**إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة، فجلسوا منه مد البصر، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه، فتنسل[1] نفسه كما تقطر القطرة من السقاء، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين، ويقول الرب عز وجل: ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: صدقت، ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان صدقت، ثم يقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان صدقت، ثم يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: جزاك الله خيراً، فوالله ما علمت إن كنت لسريعًا في طاعة الله بطيئًا عن معصية الله، فيقول: وأنت فجزاك الله خيراً فمن أنت؟ فقال: أنا عملك الصالح، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم**

---

(١) الظاهر، فتسيل. ج.

الساعة. وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال: فيجلسون منه مد بصره، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى غضب الله وسخطه، فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول، فإذا أخرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه، فيقول الرب عز وجل: ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فترد روحه إلى مضجعه، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه ثم يقولان: ياهذا من ربك؟ فيقول: لا أدري، فينادى من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: جزاك الله شرًا فوالله ما علمت إن كنت لبطيئًا عن طاعة الله سريعًا في معصية الله فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة» رواه الإمام أحمد، ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر. ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه.

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزري عن مجاهد عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة وجلس رسول الله.. الحديث.

(١)**قال** تعالى: **﴿أمِ اتَّخذوا من دون الله شُفعاء قُل أولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعْقلون * قل لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض﴾** [الزمر: ٤٣ - ٤٤].

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده. فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه، ليرحم عبده. فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه. فصارت

---

(١) ٢٢٠ إغاثة جـ١.

الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يَرحم عبده. وهذا ضدُّ الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومَن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه، بقوله: ﴿**واتّقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبَل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ**﴾ [البقرة: ١٢٣] وقوله: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة**﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلَّهم يتَّقون**﴾ [الأنعام: ٥١] وقال: ﴿**الله الذي خلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع**﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيعٌ من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذِن هو لمن يشفع فيه. كما قال تعالى: ﴿**مَا مِن شفيع إلا من بعد إذنِه**﴾ [يونس: ٣] وقال: ﴿**مَن ذا الذي يشفع عِنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور. فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له. ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهلَ التوحيد، الذين جَرَّدوا التوحيد وخلَّصوه من تعلُّقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه. قال تعالى: ﴿**ولا يشفعون إلاَّ لِمن ارتضَى**﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿**يومَئذ لا تنفع الشَّفاعة إلاَّ مَن أذِن له الرَّحمن ورضي له قولاً**﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه. فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله. فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فلما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون. وهم عَبيد محضٌ،

لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدَّمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه. فإن هذا محال ممتنع، شبيهُ قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج. وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق. والرب والمربوب، والسيد والعبد. والمالك والمملوك. والغني والفقير. والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم. وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم. ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردُّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم. فلا يجدون بُدًّا من قبول شفاعتهم على الكُره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرَّفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عِزه وسلطانه ومُلكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذَرَّةٍ.

قال تعالى: ﴿**لَقد كفَر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريَم قُل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريَم وأمه ومَن في الأرض جميعًا ولله مُلك السَّموات والأرض وما بينهما [يخلق ما يشاء][1] والله على كلِّ شيء قَديرٌ**﴾ [المائدة: ١٧]. وقال سبحانه في سيدةِ آي القرآن، آية الكرسي: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض مَن ذا الذي يشفَع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿**قُل لله الشَّفاعة جميعًا له ملك السموات والأرضِ**﴾ [الزمر: ٤٤].

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من المطبوعة وأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض. بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض. ولهذا يُطلق نفيها تارة، بناءً على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويُقيدُها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وَفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقولِه.

فمتخذ الشفيع مشرك، لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه، ومَرجوه، ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه، ويتباعد من سَخَطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه.

قال تعالى: ﴿**أمِ اتخذوا من دون الله شفعاء قُل أولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون قُل لله الشَّفاعة جَميعًا**﴾ [الزمر: ٤٣ - ٤٤]. وقال تعالى: ﴿**ويعبدون مِن دون الله ما لا يضُرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفَعاؤنا عند الله قُل أتنبئون الله بما لا يعلم في السَّموات ولا في الأرض سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون**﴾ [يونس: ١٨].

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم. وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسِر الفرقِ بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقًا، ولا أمرًا، ولا إذنًا، بل هو سبب مُحرك له من خارج. كسائر الأسباب التي تُحرك الأسباب. وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يُخالفه، كمن يشفع إليه في أمرٍ يكرهه، ثم قد يكون سؤاله، وشفاعته أقوى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع. وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع، فيردها ولا يقبلها. وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح. فشفاعة الإنسان عند

المخلوق مثله: هي سعيٌ في سبب منفصل عن المشفوع إليه يُحركه به، ولو على كُره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره[١]، أو يُكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه. فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته. وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يمكن أن توجد.

والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر. فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخَلقه.

فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل. والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أموره. وهو في الحقيقة شريكه. ولو كان مملوكه وعبده. فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر، والمعاونة، وغير ذلك. كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق، أو نصر، أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته، تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ومَن لم يجعَلِ الله لَه نُورًا فما لَه مِن نُورٍ.

. . . [٢]**حُرموا** والله الوصول بعدولهم عن منهج الوحي وتضييعهم الأصول وتمسكوا بأعجازٍ لا صدور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بُعثِر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه. وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقَدِموا على ما قَدَّموه ﴿**وبَدا لهم من الله ما لم يَكُونوا يَحتسِبون**﴾ [الزمر: ٤٧] وسُقط في أيديهم عند الحَصاد لَمَّا عاينوا غَلَّة ما بذروه.

---

(١) في نسخة «منزلة من يشفع بأمر غيره».

(٢) ٥ مدارج جـ١.

فيا شِدَّة الحسرة عند ما يعاين المبطل سعيه وكدَّه هباءًا منثورًا؛ ويا عُظم المصيبة عند ما يتبين بوارق أمانيه خُلَّبًا وآماله كاذبة غرورًا. فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تُبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟

هيهات والله. لقد ظن أكذبَ الظن، ومَنَّتْهُ نفسه أبين المحال. وإنما ضُمنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولهذا ذم الله سبحانه من آتاه شيئًا من نعمه فقال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ [القصص: ٧٨]. وفي الآية الأخرى: ﴿**فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا ثم إذا خوَّلناه نعمة منَّا قال إنَّما أوتيته على علم**﴾ [الزمر: ٤٩]. وقال البغوي: **على علم من الله أني له أهل**. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله. وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة وغيره. وقيل: المعنى قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف. قال تعالى: ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقرب عندنا. ولهذا قال في قصة قارون: ﴿**أولَم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبلِه من القرون من هو أشدُّ منه قوة وأكثر جمعًا**﴾ [القصص: ٧٨] فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك

---

(١) ٣٧ شفاء.

أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي النعمة فتنة لا كرامة: ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿**قَد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا**﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١]. أي قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا. قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا. وقوله: ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئًا، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا وهوان من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله أحبط أعمالهم فكنى عن إحباط العمل بقوله: ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾. ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿**أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ [الزمر: ٥٢]. والمقصود أن قوله: ﴿**على علم عندي**﴾ إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها. وإن أريد به علم الله كان المعنى أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله وذلك من كرامتي عليه. وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿**أوتيته**﴾ ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه إياه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا بل أوتيه امتحانًا منا وابتلاءً واختبارًا هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضا فهذا يوافق قوله: ﴿**فأما الإِنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنِ * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه. فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها؛ فإن رأس الشكر الاعتراف

بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحدًا لها، فإذا قال: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بها كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿**من أشد منا قوة**﴾ [فصلت: ١٥]. فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقًا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على الله أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره. فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر؟ ليس ذلك جزاء على ما هو منه. ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يارب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليَّ تستوجب شكرًا آخر فقال: الآن شكرتني ياداود. ذكره الإمام أحمد.

وذكر أيضًا عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك بالليل والنهار والدهر كله لما أدّوا مالك عليّ من حق نعمة واحدة.

(والمقصود) أن حال الشاكر ضد حال القائل ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾، ونظير ذلك قوله: ﴿**لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي**﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠]. قال ابن عباس: يريد من عندي. وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا. وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحققته فوصف الإنسان بأقبح صفتين: إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه

الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المتفضل بما أعطاه، فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿**وما أظن الساعة قائمة**﴾ [فصلت: ٥٠]. ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعًا.

(١)**الوجه** الثاني أن الذنوب والمعاصي أمر مشترك بين الأمم لم تزل في العالم من طبقات بني آدم عالمهم وجاهلهم وزاهدهم في الدنيا وراغبهم وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمرًا اختصت به هذه الأمة حتى يقدح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا. فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء وعدد الرمل والحصا ثم تاب منها تاب الله عليه. قال تعالى: ﴿**قُل يا عِبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «**ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة**». فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم. قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ١١٦]. وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «**أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً**».

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات

الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار. وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة.

(١)**يذكر** عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت أن يعصمه، ثم غلبته عيناه، فنام. فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بي ولم تشرك بي شيئًا أقمت حملة عرشي ومَن حوله يسبحون بحمدي ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي**» ﴿**قُل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر: ٥٣].

يا عبدي! لا تعجز فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة. ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة. ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات».

. . . (٢)**الطاعات** تفتح للعبد أبوابًا من المحبة. لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في وادٍ وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ١. (٢) ٤٣١ مدارج جـ١.

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب، وفي حال مواقعته وبعده، وبِره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعِج محبته والشوق إلى لقائه؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يُمِده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويُسبِل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تَحصِبه. والأرض تستأذنه أن تخسِف به. والبحر يستأذنه أن يُغرقه. كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه: أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه: أن تعاجله وتهلكه. والرب تعالى يقول: دعوا عبدي. فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمني وإليَّ. عبدي. وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهارًا قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن مشي إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبت عليه، مَن أعظم مني جودًا وكرمًا وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم على فُرشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. من تصرف بحولي وقوتي ألَنت له الحديد. ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب. لأطهِّرهم من المعايب**».

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً. كما وفق له علمًا ومعرفة. فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل

قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿**وأنيبوا إلى ربِّكم**﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال: ﴿**إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه مُنيب**﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها** ـ إلى أن قال ـ **تبصِرة وذِكرى لكلِّ عبدٍ مُنيب**﴾ [ق: ٦ـ٨] وقال تعالى: ﴿**هو الذي يُريكم آياته ويُنزل لَكم من السماء رزقًا وما يتذكر إلا مَن يُنيب**﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿**مُنيبين إليه واتقوه وأقِيموا الصَّلاة**﴾ [الروم: ٣١].

«**فمنيبين**» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله «فأقم وجهك»؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿**يا أيُّها النبي إذا طلقتم النِّساء**﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿**فطر النَّاس عليها**﴾ [الروم: ٣٠] أي فطرهم منيبين إليه، فلو خُلُّوا وفِطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحوَّل وتتغير عما فُطِرت عليه. كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة** ـ وفي رواية: **على الملة** ـ **حتى يعرب عنه لسانه**» وقال عن نبيه داود: ﴿**فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكِعًا وأنَابَ**﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿**وأُزلفت الجنة للمُتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لِكُل أوّابٍ حفيظ * مَن خَشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب * ادخلوها بسلام**﴾ [ق: ٣١ـ٣٤] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال: ﴿**والذين اجتنَبوا الطَّاغوت أن يعبدوها وأنابُوا إلى الله لَهم البُشرى**﴾ [الزمر: ١٧].

«**والإنابة**» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿**وإذَا مَسَّ النَّاس ضُرٌّ دعوا رَبَّهم مُنِيبين إليهِ**﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عامّ في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق

هؤلاء: ﴿ثُمَّ إذا أذاقَهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿إلَّا مَن تاب وآمن وعمِل عملاً صالحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿إلا الذين تَابُوا وأصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: تركٍ لما يكره، وفعل لما يحب، تَخلٍّ عن معصيته، وتَحلٍّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلَّم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ومَن أوفَى بما عَاهد عَليه الله فسيؤتيه أجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وقال: ﴿وأوفُوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال: ﴿وأوفُوا بعهد الله إذا عاهدتُم﴾ [النحل: ٩١]. وقال: ﴿والمُوفون بعهدِهم إذا عاهَدوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به، كما أنه لم يُنِب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به. وقوله: «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة». أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا، فلابد من الإجابة حالا تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

(1)**قاعدة:** كثيراً ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿**وأَنِيبوا إلى ربِّكم وأسْلِموا له**﴾ [الزمر: ٥٤]. وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿**وما توفِيقي إلاَّ بالله عليهِ توكَّلت وإليهِ أنِيب**﴾ [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿**تَبْصِرة وذِكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب**﴾ [ق: ٨] وقوله: ﴿**إن الله يُضِل مَن يَشاء ويَهدي إليه مَن أَنَاب**﴾ [الرعد: ٢٧]. وقوله عن نبيه داود: ﴿**وخَرَّ رَاكِعًا وأناب**﴾ [ص: ٢٤]. والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر. ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء، ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله.

وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال

---

(١) ١٧٣ طريق الهجرتين.

الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم، والقدرة فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿**وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(١)**وسئل** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**والأرضُ جميعًا قبْضَته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ [الزمر: ٦٧] أين الناس يومئذ؟ قال: «**على جسر جهنم**».

(٢)**قال** تعالى: ﴿**ومَا قَدروا الله حقَّ قدره والأرضُ جَميعًا قبضَتُه يوم القيامة والسَّماوات مَطويات بيمينه سبحانه وتَعالى عمَّا يُشْرِكون**﴾ [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه. فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، وكذلك ما قدره حق قدره من قال إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً ولا أنزل كتابًا. بل نسبه إلى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي وخلقهم باطلاً عبثًا. وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلي، فنفى سمعه وبصره، وإرادته واختياره، وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون. فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علوًا كبيرًا.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله، فيعاقب عبده على فعله، فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق. وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده

---

١) ٢٧٦ أعلام جـ٤.   (٢) ١٨٧ الجواب الكافي.

على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ثم يعاقبه عليه؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً.

وقول هؤلاء شر قول، وهم أشباه المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره. وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش[1] ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستويًا عليه: **﴿إليْهِ يَصعَدُ الكَلم الطَّيب والعمل الصَّالح يرفَعه﴾** [فاطر: ١٠] وتعرج الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه. فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلاً اختياريًا يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا، وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود. وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا. وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوًا كبيراً.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، وأخذ زمانًا طويلاً يكذب على الله كل وقت ويقول: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده، ويعليه ويقويه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن يخالفه،

---

(١) الحش: بيت الخلاء الذي تقضى فيه الحاجة.

ويقيم الأدلـة على صدقـه، ولا يعـاديه أحـد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقـريره، وتحدث أدلة تصديقه شيئًا بعد شيء إلى يوم القيامة. ومعلوم أن هذا يتضمن أعـظم القـدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى، وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، تعالى الله عن قول الجاحدين علوًا كبيرًا. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبـان ثدي أم تقـاسـما   باسـحـم داج عوض لا نتفـرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الشقاء، وأن يثيب أعداءه ومن لم يطعه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وإن كلا الأمـرين بالنسبـة إليه جائز، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله. وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام. وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع الخلق ليوم يجازي المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقـدره حق قدره من هان عليه أمـره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله. فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده. يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه، وهو في قبضته وناصيته بيده. ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه.

ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله. ويخشى الناس ولا يخشى الله. ويعامل الخلق بأفضل ماعنده وما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه ـ إن ساعد القدر ـ قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟ وهل

قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم، والطاعة والذل، والخضوع والخوف والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكًا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبًا على محض حقه، واستهانة به وتشريكًا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه، وأهون نهم عليه، وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى: **﴿ألم أعهَد إليكُم يا بَني آدم أن لا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدُوٌّ مبين * وأن اعبدوني هذا صِراط مُستقيم﴾** [يس: ٦٠ - ٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى: **﴿ويومَ يَحشرهم جميعًا ثم يقول للملائِكة أهؤلاء إيَّاكم كانوا يعبُدون * قالوا سُبحانك أنتَ وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾** [سبأ: ٤٠ - ٤١]. فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: **﴿ألَم أعْهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدو مُبين * وأن اعبدوني هذا صِراط مُستقِيم﴾** [يس: ٦٠ - ٦١] فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنًا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: **﴿ويوم نحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾** أي من إغوائهم وإضلالهم. **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾** [الأنعام: ١٢٨]. فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في

النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلَهًا غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله. وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً.

فصل فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق (أمر لأجله بالأمر الذي)[1] كان من أكبر الكبائر عند الله، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم. فإن الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك. ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[2].

[3]**وذكر** ابن أبي الدنيا من حديث أبي اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية: **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾** [الزمر: ٦٨]. قال: هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسيافهم حول عرشه، فأتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب، أعناقها السندس والإستبرق، ونمارقها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا ننظر كيف يقضي الله بين خلقه، يضحك الله إليهم وإذا ضحك الله إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

[4]الباب التاسع
في ذكر عدد أبواب الجنة

قال الله تعالى: **﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾** [5]**وقال** في صفة النار: **﴿حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها﴾** بغير واو. فقالت

---

(١) مابين المربعين في الأصل والكلام يتم بدونه.

(٢) تقدم قريبًا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ونفخ في الصور﴾ ضمن ما نقل عن كتاب الروح فليرجع إليه من أراده (ج).

(٣) ١٨٧ حادي الأرواح. (٤) ٤٣ حادي الأرواح.

طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو. وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين. وقالت طائفة أخرى: الواو زائدة، والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضًا ضعيف؛ فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿**وفتحت أبوابها**﴾ عطف على قوله: ﴿**جاؤها**﴾ وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم. قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم. قال أبو الفتح ابن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه، ويرون أن الجواب محذوف للعلم به. بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار؟ فيقال: هذا أبلغ في الموضعين؛ فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة؛ فإن هذا شأن الجزاء المرتب. على الشرط أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول.

وأما الجنة فإنها دار الله، ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول: «**أنا لها**» فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدًا لربه، فيدعه ما شاء أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيمًا لخطرها، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها، وما ركبه من الأطباق طبقًا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم. وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك؛

لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء، فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به.

فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار؟ فليعد عنها إولى ما هو ألى به، وقد خلق له وهيء له. وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضًا ويفرح بعضهم ببعض.

وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرًا يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض. وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله تعالى: ﴿**زمرا**﴾ وقال خزنة أهل الجنة لأهلها ﴿**سلام عليكم**﴾ فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿**طبتم فادخلوها خالدين**﴾، أي سلامتكم ودخولها بطيبكم فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود. وأما أهل النار فإنهم لما انتهو إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿**ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾ [الزمر: ٧١] فاعترفوا وقالوا: ﴿بلى﴾ فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار: لأهلها أدخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سرًّا لطيفًا ومعنًى بديعًا لا يخفى على المتأمل، وهو أنها لما كانت دار العقوبة، وأبوابها أفظع شيء وأشده حرًّا، وأعظمه غمًّا، يستقبل فيها الداخل من العذاب ماهو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب فقيل: ادخلوا أبوابها، صغارًا لهم وإذلالاً وخزيًا ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها وتأمل.

[١]فصل: أبواب الجنة بعضها فوق بعض

ولما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها. وكلما علت الجنة اتسعت. فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة. ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب؛ فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض، ولهذه الأمة باب مختص بهم يدخلون منه دون سائر الأمم، كما في المسند من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي**» الحديث وسيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى.

وقال خلف بن هشام البزار ثنا أبوشهاب عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي إسحاق عن عاصم بن حمزة عن علي بن أبي طالب قال: «إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض ثم قرأ ﴿**حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها**﴾ إذا هم عندها بشجرة في أصلها عينان تجريان، فيشربون من إحداهما فلا تترك في بطونهم قذى ولا أذى إلا رمته، ويغتسلون من الأخرى فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعث رؤسهم، ولا تغير أبشارهم بعد هذا أبدًا، ثم قرأ: ﴿**طبتم فادخلوها خالدين**﴾ فيدخل الرجل وهو يعرف منزله، ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برؤيتهم كما يستبشر الأهل بالحميم يقدم من الغيبة. فينطلقون إلى أزواجهم فيخبرونهم بمعاينتهم فتقول: أنت رأيته؟ فيقوم إلى الباب فيدخل إلى بيته فيتكىء على سريره فينظر إلى أساس بيته فإذا هو قد أسس على اللؤلؤ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر ثم يرفع رأسه إلى سماء بينه فلولا أنه خلق له لا لتمع بصره فيقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والله أعلم.

[٢]الباب الرابع والعشرون

في ذكر بوابي الجنة وخزنتها واسم مقدمهم ورئيسهم

قال تعالى: ﴿**وسيق الذين اتَّقوا ربَّهم إلى الجنة زمرًا حتَّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم**﴾ [الزمر: ٧٣]. والخزنة جمع خازن، مثل حفظة وحافظ، وهو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه. وروى مسلم في صحيحه

(١) ٥٠ حادي الأرواح. (٢) ٨١ حادي الأرواح.

من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**». وقد تقدم حديث أبي هريرة المتفق عليه: «**من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فلهلم**. قال أبوبكر: يارسول الله ذاك الذي لا توى[1] عليه فقال النبي ﷺ: **إني لأرجو أن تكون منهم**» وفي لفظ: هل يدعي أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**» لما سمت همة الصديق إلى تكميل مراتب الإيمان[2].

[3]الباب الثامن والثلاثون

في كيفية دخولهم الجنة وما يستقبلون عند دخولها

قد تقدم قوله تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا**﴾ [مريم: ٨٥] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباد بن موسى العكلي حدثنا يحيى بن سليم الطائفي حدثنا إسماعيل بن عبدالله المكي حدثنا أبوعبدالله أنه سمع الضحاك بن مزاحم يحدث عن الحرث عن علي أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفْدًا**﴾ قال قلت: يارسول الله ما الوفد إلا ركب؟ قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مثل مد البصر، وينتهون إلى باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدًا، فيضربون الحلقة بالصفيحة فلو سمعت طنين الحلقة** .

[4]**وقال** عبدالله بن محمد البغوي: حدثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن عاصم، عن علي رضي الله عنه قال: ﴿**وَسِيقَ الذِين اتَّقوا رَبَّهم إلى الجَنَّة زُمَرًا**﴾ حتى إذا نتهوا إلى بابٍ من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها

---

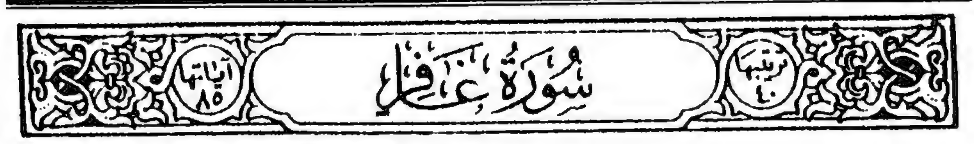
(١) بفتح التاء: لا ضياع ولا خسارة، وهو من القوى الهلاك. (٢) إلى آخر الباب مما ذكره المؤلف تعليقًا على هذا الحديث (ج). (٣) ١٠٦ حادي الأرواح. (٤) ٢٦٥ روضة المحبين.

عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذى أو أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبدًا، ولم تشعث رؤوسهم كأنما ادهنوا بالدهان، ثم انتهو إلى الجنة فقالوا: **﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾** [الزمر: ٧٣] ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يُطيف أهل الدُّنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته فيقولون له: أبشر بما أعدَّ الله تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العِين فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدُّنيا قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكُفَّة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صَرحُ أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عز وجل قدَّره لألمَّ أن يُذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ثم اتكأوا فقالوا: **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدي لولاَ أن هدانا الله﴾** [الأعراف: ٤٣]. ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبدًا، ويقيمون فلا يظعنون أبدًا، ويصِحُّون فلا يمرضون أبدًا.

وفي سنن ابن ماجة عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحُلل كثيرة ومقام في أبدٍ في دار سليمة وفاكهة وخُضرة وحبرة ونِعمة في محلة عالية بهية قالوا: نعم يارسول الله نحن المشمرون لها قال: قولوا إن شاء الله فقال القوم: إن شاء الله [تعالى]**».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزمر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿غَافِرِ الذنْبِ وقَابلِ التَّوب شَديد العِقاب ذِي الطوْل لا إلـه إلا هو﴾ [غافر: ٣] فعطف في الاسمين الأولين دون الآخرين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الإسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال، وفعله سبحانه في غيره لا في نفسه، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين، ولتنزلهما منـزلـة الجملتـين، لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ليرجوه ويؤملوه. ثم قال: ﴿شديد العقاب﴾ بغير واو، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقـدرة، وهو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزلة قوله: ﴿العزيز العَليم﴾. وكذلك قوله: ﴿ذِي الطَّول﴾ لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته.

هذا جوابـه وهـو كما ترى غير شاف ولا كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة (ذي) فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل كقوله: ﴿عزيز ذو انتقام﴾ بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدل على الذات من الوصف بذي، لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها، فلم يشف جوابه بل زاد السؤال سؤالاً.

فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعـزيز العليم وهمـا اسـمان مطلقان وصفتان من صفات ذاته وهما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف. فأما الأولان فتجردهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله وهما متلازمان فتجريدهما عن العطف هو الأصـل، وهـو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم(٢).

وأما ﴿غـافِـر الـذنب وقابل التَّوب﴾ فدخل العاطف بينهما لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظًا، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتى بالاسم الدال على أن هذا وصفه ونعته،

(١) ١٩١ بدائع جـ١.

(٢) تقدم بحث حول هذه الآية في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿التائبون الحامدون﴾ يحسن الرجوع إليه (ج).

المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لايزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، و كذلك الاسمان الأولان. ولما لم يكن الفعل ملحوظًا في قوله: ﴿شديد العِقاب ذي الطول﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما، وليس في لفظ (ذي) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كل وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما لم يعطف في العزيز العليم فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿الذي خَلق فسَوى * والذِي قدَّر فهدي﴾ [الأعلى: ٢، ٣] فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد فالفعل مراد مقصود، والعطف يصير كلًا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل: ﴿الذي جعل لكم الأرضَ مهْداً﴾ و﴿نزَّل من السماء ماءًا﴾ و﴿خلق الأزواج كلها﴾ [الزخرف: ١٠، ١١، ١٢]. كانت كلها في حكم جملة واحدة. فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها. وهذا قريب من باب قطع النعوت، والفائدة هنا كالفائدة ثَم، وقد تقدمت الإشارة إليها فراجعها. بل قطع النعوت إنما كان لأجل هذه الفائدة، فذلك المقدر في النعوت المقطوعة لهذا المحقق في النعوت المعطوفة، والحمدلله على ما منّ به وأنعم فإنه ذو الطول والإحسان.

تتمة: تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفه رحمة بعده. فقبله ﴿غَافر الذنب وقابِل التَّوب﴾ [غافر: ٣] وبعده ﴿ذِي الطول﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله ﷺ: «سبقت غضبي» وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت. وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزيل الكِتاب﴾ [غافر: ٢] والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك. وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين، أحدهما: علوه تعالى على خلقه. والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه وهذا يقتضي أن يكون منه قولًا كما أنه منه تنزيلًا؛ فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به.

ومثل هذا: ﴿ولَكِن حق القول مني﴾ [السجدة: ١٣] ومثله: ﴿قُل نزله روح

القُدس من ربك﴾ [النحل: ١٠٢] مثله: **﴿تنزيل من حكيم حميد﴾** [فصلت: ٤٢] فاستمسك بحرف من في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية. وتأمل كيف قال: (**تنزيل من**) ولم يقل تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه[1] وثبوت الرسالة.

ثم قال: **﴿العزيز العليم﴾** فتضمن هذان الإسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله كما قال أحمد بن حنبل. فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه أو أن يشاء ما لا يكون فكمال عزته تبطل ذلك. وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: **﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾** والذنب مخالفة شرعه وأمره فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله. ثم قال: **﴿شديد العِقاب﴾** وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب. ثم قال: **﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾** فتضمن ذلك التوحيد والمعاد. فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم، والثواب والعقاب، والتوحيد والمعاد. وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن خَودٌ تُزف إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه فالله المستعان.

[2]**وهو** سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم. فمن الأول قوله: **﴿ربنا وسِعت كل شيء رحمة وعِلمًا﴾** [غافر: ٧] ومن الثاني: **﴿والله عليم حليم﴾** فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم. وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد

(١) وفي نسخة بدل كلامه: مكانه.		(٢) ٨٠ بدائع جـ١.

على عفوك بعد قدرتك. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ربَّنا وسِعت كل شيء رحمة وعِلمًا﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور[1].

فصل[2]

[3]**والتي** على الأبدان أيضًا نوعان. نوع في الدنيا ونوع في الآخرة، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما ترتب عليها في الشدة والخفة. فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها. فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «**ومن سيئات أعمالنا**» هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه: وتكون بمعنى من. وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا. ويرجع هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر. فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها عنه إذ هي أصله.

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهي السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام. فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه. ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿**وقِهم السيئات ومن تَقِ السَّيئات يومئذٍ فقد رحِمته**﴾ [غافر: ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء. وإن

(١) يشير إلى آية سورة سبأ وقد تقدم البحث فيرجع إليه من أراده (ج).

(٢) ١٥٤ الجواب الكافي. (٣) ماتقدم تفصيل للعقوبات القدرية والشرعية (ج).

كان قولـه: ﴿ومن تَقِ السيئـات يومئـذٍ فقد رحِمته﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقـايتهم يومئـذ منهـا. فإن قيل: قد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ. ولا يرد علي هذا قوله: (يومئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها.

وقيل وقاية السيئات نوعان، أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية. وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم. وقـدمـوا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمتـه، فسعـة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها. وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم. وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء. ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل الـذي يحبهـا. ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب، من جملتها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك؛ فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم. وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما

يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب. فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر. والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما. وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة. ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحى أحس بالألم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والاغتراف على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه. وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة. فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

فصل[1]

ومنها[2] حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى: ﴿**الذين يَحمِلون العرشَ ومَن حولَه يُسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسِعت كل شيء رحمةً وعِلمًا فاغفر للذين تابُوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذابَ الجَحيم * ربنا وأدخِلهم جَنَّات عدْنٍ التي وعدتهم ومَن صَلح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُريَاتهم إنَّك أنت العزيز الحكيم * وقِهم السيئات**﴾ [غافر: ٧-٩] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما. فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها.

[3]**قال** تعالى: ﴿**الذين يحمِلون العرش ومن حوله يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربَّنا وسِعت كلَّ شيء رحمةً وعِلما فاغفر للذين تابوا واتَّبعوا سبيلَك وقِهم عذابَ الجَحيم * ربَّنا وأدخِلهم جَنَّات عَدن التي وعدتهم**

(١) ٨٠ الجواب الكافي. (٢) أي من آثار المعاصي وعقوبتها. (٣) ٦٤ مفتاح جـ١.

ومن صَلح من آبـائهم وأزواجهم وذُريـاتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تَق السيئات يومئذٍ فقد رحِمته وذلك هو الفَوز العظيم﴾. فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله، فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه ثم تضع أجنحتها له رضًا ومحبة وتعظيمًا. وقال أبوحاتم الرازي سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «**تضع أجنحتها**» يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

[(١)]**وقال** تعالى: **﴿رفيعُ الدرجات ذُو العرش يُلقي الرُّوح من أمْره على من يَشاء مِن عِبادِه ليُنذر يومَ التَّلاق﴾** [غافر: ١٥] فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فَقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

[(٢)]**ثم** ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: **﴿ومَا يتذكر إلا من يُنيب﴾** [غافر: ١٣]. وقال: **﴿تَبصرة وذِكرى لِكل عَبدٍ مُنيب﴾** [ق:٨] وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: **﴿إنما يتذكر أولُو الألباب﴾** [الرعد: ١٩] وقال تعالى: **﴿وما يذَّكر إلا أولُو الألباب﴾** [البقرة: ٢٦٩].

[(٣)]**والتذكر** و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لايزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

قال صاحب المنازل: «التـذكـر فوق التفكر؛ لأن التفكر طلب، والتذكر وجود». يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال: «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية». وأما قوله: «التذكر وجود» فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر. ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكره وجده فظفر به. و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

---

(١) ١٥٨ مدارج جـ٣.　(٢) ٢٥٩ مدارج جـ٣.　(٣) ٤٤٠ مدارج جـ١.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكرَى. كما قال في المتلوة: ﴿**ولَقد آتينا مُوسَى الهُدى وأورثْنَا بَني إسرائِيل الكِتاب * هُدًى وذِكرى لأولي الألباب**﴾ [غافر: ٥٣-٥٤] وقال عن القرآن: ﴿**وإنه لتذكرة للمُتَّقين**﴾ [الحاقة: ٤٨]. وقال في آياته المشهودة: ﴿**أفَلم ينظُروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها مِن فُروجٍ * والأرضَ مدَدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتْنا فيها من كُل زوجٍ بهيج * تبصِرة وذِكرى لِكل عبدٍ مُنيب**﴾ [ق: ٦-٨].

فـ«التبصرة» آلـة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ماهي آيات له. فزال عنـه الإعـراض بالإنـابـة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿**وكَم أهْلكنا قَبلهم مِن قَرن هُم أشَدُّ مِنهم بَطشًا فنقبُوا فِي البِلاد هَل مِن مَحيص * إن في ذلك لَذِكرى لِمن كَان لَه قَلْبٌ أو ألقَى السمع وهو شَهِيد**﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت. فذلك الذي لاقلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه. الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضرًا. فهذا أيضًا لا تحصـل له الـذكـرى، مع استعـداده ووجود قلبه. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب، ملقٍ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة. فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور. فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟ قيل: فيها سر

لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة. حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه. حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا، فرأى أحدهما تفاصيل مافيها وجزئياته. والآخر: وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلى درجات الصديقية. ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة: إزداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمعَ وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضا: ﴿فإن لم يُصبها وابل فطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجًا. قال الله تعالى: ﴿ويَرى الذين أوتُوا العلم الذي أنزل إليكَ من ربك هو الحق ويهدي إلى صِراط العزيز الحميد﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

(١)**قال** تعالى: ﴿وقَال الذي آمن ياقوم إنِّي أخاف عليكم مِثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] بين أن هذا العقاب لم يكن ظلمًا من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم، ومعلوم أن المحال الذي لا يمكن ولا يكون مقدورًا أصلاً لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمد على ذلك، وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها، وأن يتنزه عنها لكماله وغناه وحمده. وعلى هذا يتم قوله: «إني حرمت الظلم على نفسي» وما شاكله من النصوص.

(١) **ويلي** ذلك(٢) في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب. فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثمًا عند الله. فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله؟ كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور تقربًا إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكًا. هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول، فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة، إعظامًا له وإجلالاً؟ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لا دواء له. ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات فقال: ﴿**يَاهامان ابن لي صرحًا لعَلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إله مُوسى وإني لأظنه كاذِبًا**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] واحتج الشيخ أبوالحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية) في إثبات العلو ...(٣)**الرابع** عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل «أين الله» و«متى كان الله» عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بيانًا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «أين الله» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدقُ شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جَهم بالكفر، وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وَصَفتهُ من أن ربها في السماء إيمان فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة وذكر حديث الأمة السوداء التي سَوَّدت وجوهَ الجهمية وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» وهي إنما

---

(١) ١٩٣ الجواب الكافي.

(٢) أي الشرك والكبر، وقد تقدم هذا قريبًا في سورة الزمر استطرد على قول الله تعالى: ﴿وماقدروا الله حق قدره﴾ (ج).

(٣) ٢٨٢ أعلام جـ٢.

وصَفت كون ربها في السماء، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادقُ المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصعودَ إلى السماء ليطلع إلى إلـه موسى فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: **﴿يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذبًا﴾** فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لافرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب. وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الربَّ عما لا يليق به وكذب موسى في إخباره بذلك؛ إذ مَن قال عندهم إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفـرعـون مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية» قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجمهية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

السابع عشر: إخبـاره ﷺ أنه تردَّد بين موسى وبين الله ويقول له موسى: ارجع إلى ربك فسَلْه التخفيف، فيرجع إليه سبحانه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى ثلاث مرات.

(١)**(فصل)** وأما الصد فقال تعالى: **﴿وكذلك زُيِّن لِفرعون سُوء عمله وصد عن السبيـل﴾** [غـافـر: ٣٧] قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملاً على (زين) وقرأ البـاقـون وصَـد بفتـح الصاد ويحتمل وجهين أحدهما: أعرض، فيكون لازمًا. والثاني: يكون صد غيره، فيكون متعديًا. والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان.

(٢)**قوله: ﴿ياقوم اتَّبعون أهدِكم سبيل الرَّشاد * ياقوم إنَّما هذه الحياة الدُّنيا مَتاع وإن الآخرة هِي دار القَرار﴾** [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها وأن الآخرة هي المستقر. وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة ولذلك ما خلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة. إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله جل جلاله، وسماع كلامه، والقرب منه.

---

(١) ٩٦ شفاء. (٢) ٣١٨ الجواب الكافي.

كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**».

وفي حديث آخر «إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم». وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في دعائه «**واسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك**». وفي كتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد مرفوعًا «**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فإذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته؛ فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر. فإن الروح والقلب والبدن إنما خلقت لذلك. فأطيب ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. واللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك. فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

(١)**الطبقة** السادسة عشرة: رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، **فهؤلاء عذابهم مضاعف**، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**الذين كَفروا وصدُّوا عن سبيل الله زِدنَاهم عذابًا فوقَ العذاب**﴾ [النحل: ٨٨] فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلوا درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿**النَّار يُعرضون عليها غدوًّا وعشِيا ويوم تقوم الساعة أدخِلوا آل فرعون أشدَّ العذاب**﴾ [غافر: ٤٦] وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعًا

(١) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿**يقدُم قومه يومَ القيامة فأوردهم النَّار**﴾ [هود: ٩٨]. والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله.

فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولها كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**» والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذابًا، وهو أول من يكسى حلة من النارَ؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصى الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته. ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وهو الغني الحميد.

فصل وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه: (أحدها) من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم اتفاقًا لتغلظ كفرهم. وهؤلاء هم المعطلة، والدهرية وكثير من الفلاسفة، وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هذا العالم. (الجهة الثانية) تغلظه بالعناد والضلال عمدًا على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عنادًا وبغيًا. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذي عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء. (الجهة الثالثة) السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذابًا بحسب تغلظ كفرهم، ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث. ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة.

فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ

هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعًا من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبيّ بن خلف وأضرابهم؟ والمقصود أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أهون أهل النار عذابًا أبوطالب**»، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعًا لهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان. وصح عنه أنه قال ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها إلاّ نفس مسلمة**» وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل بمكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر.

وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين وقد قدم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارًا، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عنادًا أو جهلاً وتقليدًا لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب

المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم وأنهم يتحاجون في النار وأن الأتباع يقولون: ﴿ربَّنا هؤلاء أضَلُّونا فآتهم عذابًا ضِعْفًا من النَّار قال لِكُلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٨].

[(١)]**وقال** تعالى: ﴿وإِذْ يَتحاجُّون في النَّار فَيَقول الضُّعفاء للذِين استكبَروا إنا كُنَّا لَكم تبعًا فهل أنتم مُغنون عَنَّا نَصِيبًا مِن النَّار * قال الذين استكْبَروا إنا كل فيها إن الله قَد حَكم بَينَ العِباد﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ولَو ترى إذ الظالمون موقُوفون عِند ربهِم يرجِع بعضُهم إلى بعضٍ القولَ يقول الذين استُضعِفوا للذين استكبَروا لولا أنتُم لكُنَّا مؤمنين * قال الذينَ استكبَروا للذين اسْتضعِفوا أنحن صَددناكم عن الهُدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استُضعفوا للذين استكبَروا بل مكرُ الليل والنَّهار إذ تأمرو ننا أن نكفر بالله ونجعل له أندَادًا﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]. فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إذ تَبرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرَّة فنتبرأ مِنهم كما تبرَّؤوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧] وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه لا ينقص من أوزارهم شيئًا**» وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا: أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. الثاني معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما

---

(١) ٤١٢ طريق الهجرتين.

بينهما من الفرق: فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلًا. والثاني كمن لم يطلبه بل مات على شركه وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبنى على أربعة أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**رُسلاً مبشرين ومُنذرين لئلَّا يكون للنَّاس على الله حُجَّة بعد الرُّسل**﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿**كُلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتِكم نذيرٌ * قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلنا ما نزَّل الله من شيء**﴾ [الملك: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿**فاعترفوا بذنبهم فسُحقًا لأصحاب السَّعير**﴾ [الملك: ١١] وقال تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتِكم رُسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي ويُنذِرُونكم لِقاء يومِكم هذا قالُوا شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين**﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿**وما ظلمناهُم ولكن كانوا هم الظَّالمين**﴾ [الزخرف: ٧٦] والظالم من عرف ماجاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ماجاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة

وعدم التمكن من معرفتها فهذا الطي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنَّها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿**لا يُسأل عمَّا يفعَل وهُم يُسألون**﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿**لا يُسأل عمَّا يفْعل**﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر، ولا الفساد، ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

[1]**فصل** أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة. فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس. وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا

---

(١) ٣٣٢ مدارج جـ٢.

يحتجون عليها بالقدر. مع أبيهم آدم في الجنة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره .

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين. كما قال في سورة الزمر وفي سورة غافر ﴿**ادخلوا أبوابَ جهنَّم خالدين فيها فبئسَ مثْوى المتكبِّرين**﴾ [الزمر: ٧٢ وغافر: ٧٦] وفي سورة النحل: ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالِدين فيها فلبئسٍ مثْوى المتكَبِّرين**﴾ [النحل: ٢٩] وفي سورة تنزيل: ﴿**أليس في جهنم مثْوى للمتكبِّرين؟**﴾ [الزمر: ٦٠]. وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم. فقال تعالى: ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جَبَّار**﴾ [غافر: ٣٥]. وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» رواه مسلم. وقال ﷺ: «**الكبر بَطر الحق، وغمط الناس**».

وقال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به**﴾ [النساء: ٤٨] تنبيهًا على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «**من تواضع لله رفعه**» فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغَّره وحقره. ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه ـ فإنما تكبره على الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله، وتكبر عليه، والله أعلم.

(١)**فصل** والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله. فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب. فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور. إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت. فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا،

(١) ٢٨٧ الروح.

لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا.

فصل والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره. وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعًا وآثارًا أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث، ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم. بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

(١)**فمن** ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة. فإن الله سبحانه يقول: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ [غافر: ٦٠]. وقال: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الدَّاع إذا دَعانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**». وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير من رضاه. كما أن كل بلاء ومصيبة من غضبه. وقد ذكر أحمد في كتاب الزهد أثرًا: «**أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد**».

وقد دل العقل، والنقل، والفطرة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة

(١) ١٧ الجواب الكافي.

لكل شر. فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه. . .

[1]فإن القوم لم يكن لهم نصيب من العلم الذي جاءت به الرسل، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العِلم﴾ [غافر:٨٣]. وما غاية ما يناله الذاكر المعرض عما جاءت به الرسل، وغاية ما نالوا به علمًا بأمور طبيعية فيها الحق والباطل، وأمور رياضية كثيرة التعب قليلة الجدوى، وأمور الهيئة باطلها أضعاف أضعاف حقها. فأين العلم المتلقي من الوحي النازل، إلى الظن المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام عن جبريل عن الله عز وجل إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما معه حدسه وتخمينه؟ ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ماجاءت به الرسل كنسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

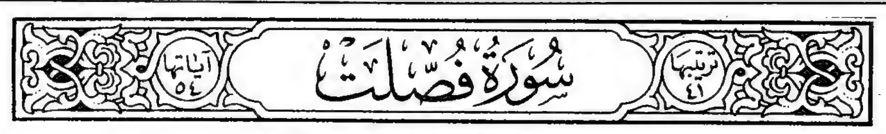
ولا تجد ولو عمرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلهم على خلاف ما جاء به الرسل في أمر من الأمور البتة. فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل البتة، وإنما جاءت بما لا يدركه العقل. فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام لا رابع لها البتة. ١ - قسم شهد به العقل والفطرة. ٢ - وقسم يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله. ٣ - وقسم ليس في العقل قوة إدراكه. ٤ - وأما القسم الرابع، وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه، فالرسل بريئون منه. وإن ظن كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة أن بعض ما جاء به الرسل يكون من هذا القسم، فهذا إما لجهله بما جاءت به وإما لجهله بحكم العقل أو لهما. ا. هـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة غافر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٥٨ تحفة المودود.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصلت آياته**﴾ [فصلت: ٣] أي بينت وأزيل عنها الإجمال، فلو كانت آياتـه مجملة لم تكن قد فصلت. وقال تعالى: ﴿**وَما على الرَّسول إلا البلاغ المبين**﴾ [النور: ٥٤]. وهذا يتضمن بلاغ المعنى وأنه في أعلى درجات البيان. فمن قال: إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ. وهذا هو حقيقة قولهم، حتى إن منهم من يصرح به ويقول: إن المصلحة كانت في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة، إما لمصلحة الجمهور ولكونهم لا يفهمون المعـاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثـال، وإمـا لينـال الكادحون ثواب كدحهم في استنبـاط معـانيهـا واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة على صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وخيار القـرون أنـه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى. والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة. ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسئـولـون عني فما أنتم قائلون**» قالـوا: نشهـد أنـك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع إصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائـلاً «**اللهم اشهـد**» فكـأنـا شهـدنا تلك الإصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها،

(١) ٣٣٨ الصواعق جـ٢.

فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**وَوَيل للمُشركين * الذين لا يؤتون الزَّكاة**﴾ [فصلت: ٦، ٧]، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**فلا تزكُّوا أنفسكم**﴾ [النجم: ٣٢] هو على غير معنى: ﴿**قد أفلح من زكَّاها**﴾ [الشمس: ٩] أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿**هُو أعلم بِمن اتقى**﴾ [النجم: ٣٢]. . .

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وَجعلنا على قُلوبهم أكِنة أن يفقهوه**﴾ [الأنعام: ٢٥] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنَّه وأكنه وكنان بمعنى واحد، بل بينهما فرق فأكنه إذا ستره وأخفاه كقوله تعالى: ﴿**أو أكنَنتُم في أنفُسكم**﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وكنه إذا صانه وحفظه كقوله: ﴿**بيض مكنون**﴾، ويشتركان في الستر، والكنان ما أكن الشيء وستره وهو كالغلاف. وقد أقروا على أنفسهم بذلك فقالوا: ﴿**قُلوبنا في أكِنَّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقْر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ [فصلت: ٥]. فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى لانفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول ولا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام. وقال مجاهد: كجعبة النبل. وقال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

(٣)**قوله** ﷺ: «**من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله**

(١) ٤٩ إغاثة جـ١. (٢) ٩٣ شفاء. (٣) ١٣٧ البدائع جـ٣.

قيراطان». سئل أبو نصر ابن الصباغ عن القيراطين هل هما غير الأول أو به فقال: بل القيراطان الأول وآخر معه بدليل قوله تعالى: **﴿مَثنى وثُلاث ورُباع﴾** [فاطر: ١]. (قلت) ونظير هذا قوله ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**» فهذا مع صلاة العشاء في جماعة قد جاء مصرحًا به في جامع الترمذي كذلك «**ومن صلى العشاء والفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**» ونظيره أيضًا قوله تعالى: **﴿أئِنكم لتكفُرون بالذِي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندَادًا ذلك رب العالمين ۞ وجعل فيها رواسي من فوقهـا وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسَّائلين﴾** [فصلت: ٩، ١٠]فهي أربعة باليومين الأولين ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية.

(١)**اختلف** الناس هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء فالأكثرون على الأول. واحتج من فضل الأرض بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتًا. وبأن الله سبحانه وتعالى لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: **﴿إني جاعِل في الأرض خليفة﴾** [البقرة: ٣٠] فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه في الأرض، وبأن الله سبحانه وتعالى وضعها بأن جعلها محل بركاته عمومًا وخصوصًا فقال: **﴿وجَعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر﴾** [فصلت: ١٠].

ووصف الشـام بالـبركة في ست آيات، ووصف بعضها بأنها مقدسة ففيها الأرض المباركة، والمقدسة، والوادي المقدس. وفيها بيته الحرام، ومشاعر الحج، والمساجد التي هي بيوته سبحانه، والطور الذي كلم عليه كليمه ونجيه. وبإقسامه سبحانه بالأرض عمومًا وخصوصًا أكثر من إقسامه بالسماء؛ فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمـين، والتين والزيتون. ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه سبحانه خلقها قبل خلق السماء كما دلت عليه سورة حم السجدة. وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه، ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه، وهو: الجهاد، والصدقة، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس في السماء من ذلك شيء. وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان

---

(١) ٢٣ البدائع جـ٤.

السماء من الملائكة كما هو مذهب أهل السنة، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة. وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ما هو من بركاتهم لم يودع في السماء مثله. وبأن الله سبحانه قال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الذاريات: ٢٠] ثم قال: ﴿وفي السَّماء رزقكم وما توعَدون﴾ [الذاريات: ٢٢] فجعل الأرض محل آياته، والسماء محل رزقه. ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيا وميتًا(١) وبأن الأرض جعلها الله قرارًا وبساطًا، ومهادًا وفراشًا وكفاتًا ومادة للساكن لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته ولا سيما إذا أخرجت بركتها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء: يكفي في فضلها أن رب العالمين سبحانه فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلى الذي أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر. وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون في الأرض؛ ولهذا لا تفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها. ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو قائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض، وأوسع وأنور وأصفى وأحسن خلقة وأعظم آيات. وبأن الأرض محتاجة في كمالها إليها، ولا تحتاج هي إلى الأرض، ولهذا جاءت في كتاب الله في غالب المواضع مقدمة على الأرض، وجمعت وأفردت الأرض فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة وحيث أريد تعدادها قال: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾. وهذا القول هو الصواب والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢)**المرتبة** الثانية هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده. وهذه لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى. وقال تعالى: ﴿وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هدى التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿والله يدعو

---

(١) جواب لو محذوف لعلمه في المقام وتقديره: لكفى ذلك شرفًا.　　(٢) ٤٨٤ المفتاح جـ١.

إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم.

قال تعالى: **﴿إنَّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾** [القصص: ٥٦] مع قوله: **﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾** [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: **«من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»**. وقال تعالى: **﴿إن تحرص على هُداهم فإن الله لا يهدي مَن يُضِلُّ﴾** [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء.

وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

[(١)]**قال** تعالى: **﴿وقَالوا لجلودهم لم شهِدتم علينا قالوا أنطقَنا الله الذي أنطق كل شيء﴾** [فصلت: ٢١] فالإنطاق فعل الله الذي لا يجوز تعطيله، والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره كما قال تعالى: **﴿فورب السماء والأرضِ إنَّه لحق مثل ما أنكم تنطِقون﴾** [الذاريات: ٢٣]. فعلم أن كونهم ينطقون هو أمر حقيقي حتى شبه به في تحقيق كون ما أخبر به وأن هذا حقيقة لا مجاز. ومن جعل إضافة نطق العبد إليه مجازًا لم يكن ناطقًا عنده حقيقة فلا يكون التشبيه بنطقه محققًا لما أخبر به فتأمله.

ونظير هذا قوله تعالى: **﴿وأنه هو أضحك وأبكَى﴾** [النجم: ٤٣] فهو المضحك المبكي حقيقة، والعبد الضاحك الباكي حقيقة كما قال تعالى: **﴿فليضحكوا قليلاً وليبكُوا كثيراً﴾** [التوبة: ٨٢]. وقال: **﴿أفَمن هَذا الحديث تعجبون * وتضحَكون ولا تبكُون﴾** [النجم: ٥٩، ٦٠] فلولا المنطِق الذي أنطق، والمضحِك المبكِي الذي أضحك وأبكى لم يوجد ناطق ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحب عبداً أنطقه بما يحب وأثابه عليه. وإذا أبغضه أنطقه بما يكرهه فعاقبه عليه وهو الذي أنطق هذا وهذا، وأجرى ما يحب على لسان هذا وما يكره على لسان هذا. كما أنه أجرى على قلب هذا ما أضحكه، وعلى قلب هذا ما أبكاه.

وكذلك قوله تعالى: **﴿هو الذي يُسيركم في البر والبحر﴾** [يونس: ٢٢] وقوله:

---

(١) ١٣٤ شفاء.

﴿**قُل سيروا في الأرض**﴾ [النمل: ٦٩] فالتسيير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسيير فعل محض، والسير فعل وانفعال. ومن هذا قوله تعالى: ﴿**فلمَّا قَضى زيدٌ منها وطرًا زوجناكها**﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهو سبحانه المزوج ورسوله المتزوج. وكذلك قوله: ﴿**وزَوجناهم بحور عين**﴾ [الطور: ٢٠]فهو المزوج وهم المتزوجون.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين في قوله: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قُلوبهم**﴾ [الصف: ٥] فالإزاغة فعله والزيغ فعلهم. فإن قيل: أنتم قررتم أنه لم يقع منهم الفعل إلا بعد فعله، وأنه لولا إنطاقه لهم وإضحاكه وإبكاؤه لما نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا. وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليها بالزيغ لا جعلها زائغة. وكذلك قوله: ﴿**أنطقنا الله**﴾ المراد جعل لنا آلة النطق، وأضحك وأبكى جعل لهم آلة الضحك والبكاء. قيل: أما الإزاغة المترتبة على زيغهم فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً، عقوبة لهم على زيغهم، والرب تعالى يعاقب على السيئة بمثلها، كما يثيب على الحسنة بمثلها، فحدث لهم زيغ آخر غير الزيغ الأول فهم زاغوا أولاً، فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم.

. . .[1]**لا يستقر** للعبد قدم في المعرفة - بل ولا في الإيمان - حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان. فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالى: ﴿**ومَا كُنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسِرين**﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿**عليهِم دائرة السوءِ**

(١) ٣٤٧ مدارج جـ٣.

وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [الفتح: ٦]. ولم يجىء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل؛ فإنه لولا تعطيل كماله - أو بعضه - وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: **﴿أئفكًا آلهة دون الله تُريدون فما ظنكم برب العالمين﴾** [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟.

وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم: أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم: أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده، حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ؟ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القِلة، ويتعزز به من الذِّلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيراً.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

. . .(١)**قال الله** في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: **﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾** [فصلت: ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان. وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه

---

(١) ٢٧ الجواب.

بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه؟ وهو مع هذا يحسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة. فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها. قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله. ثم سألني عنها فقال: **«ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير؟»** فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك. قالت: فدعا بها فوضعها في كفه. فقال: **«ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟»** وفي لفظ: **«ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟»**.

فيالله ماظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم. فإن كان ينفعهم قولهم حسَّنا ظنوننا بك فلم يعذب ظالم ولا فاسق. فليصنع العبد ماشاء وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسّه. فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد. وقد قال إبراهيم لقومه: **﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين﴾** [الصافات: ٨٧] أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسُه. فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه. فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: **«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**.

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو. قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم

وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته. بل حسن الظن ينفع من تاب وندم، وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن. فهذا حسن ظن، والأول غرور. والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد. ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به: قال الله تعالى: **﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجُون رحمة الله﴾** [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: **﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾** [النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾** [فصلت: ٢٤] أي وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم. ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه ثم يقال: استعتب السيد عبده أي طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده أي أزال عتبه بطاعته. ويقال: استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده أي فأزال عتب نفسه عنه. وعلى هذا فقوله تعالى: **﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾** أي وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم.

وقوله: **﴿لا يُؤذَن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾** [النحل: ٨٤] أي لا يطلب منهم إعتابنا. وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله. وكذلك قوله: **﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذِرتهم ولا هم يستعتبون﴾** [الروم: ٥٧]. وقول

(١) ١٨١ البدائع جـ٤.

النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**لك العتبى**» هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك، فأفعل ما ترضى به عني وما يزول به عتبك علي. فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده.

فههنا أربعة أمور: العتب وهو من الله تعالى؛ فإن العبد لا يعتب على ربه؛ فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم. ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط. الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فاعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه. والعبد لاقدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله عليه. الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضًا ومن العبد بالاعتبارين. فالله يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه. والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه. الرابع: العتبى وهي اسم الإعتاب. فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبط كثير من المفسرين لهذه المواضع. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب**» أي يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه. والاستعتاب نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: «إن العبد ليسترضى ربه فيرضى عنه وإن الله ليسترضى فيرضى». لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب؛ فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه، وهما متلازمان.

(١)**وقال** الله تعالى: ﴿**وقَيَّضنا لهم قرناء فزيَّنوا لهم ما بين أيدِيهم وما خلفهم وحقَّ عليهم القول في أممٍ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس**﴾ [فصلت: ٢٥]. ومعنى الآية: إن الله قيض للمشركين ـ أي سبب لهم ـ قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة ومافيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه

---

(١) ٤١٩ الهجرتين.

آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدَعَوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿**وحقَّ عليهم القولُ في أممٍ قد خَلت من قبلهم من الجنِ والإِنس إنَّهم كانوا خاسِرين**﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

. . .(١)**قوله** تعالى: ﴿**وقَيّضنا لهم قُرناء فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ [فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين». وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين». وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة». والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة» وهذا اختيار الفراء.

وقال ابن زيد: «زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها» والمعنى على هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه. فقول عدو الله تعالى: ﴿**ثُمَّ لآتِينَّهم من بينِ أيديهم ومِن خلفِهم**﴾ [الأعراف: ١٧] يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿**وعَن أيمانِهم وعن شمائلهم**﴾ [الأعراف: ١٧]

(١) ١٠٥ الإغاثة جـ١.

فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثَبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرِّضه عليها، وهذا يُفصِّل ما أجمله في قوله: ﴿فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين﴾.

(١)قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنُوا وأَبْشِروا بالجَنَّة التي كُنتم توعَدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهِي أنفُسكم ولكُم فيها ما تدَّعون * نُزُلاً من غفورٍ رحيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زَلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقـاظه للصلاة إذا نام [عنها]، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدُّنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليُّه ومعلمه، ومثبته ومسكّن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذّره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر الله بات معه في شِعاره، فإن قصده عدوٌّ له بسوءٍ وهو نائمٌ دفعه عنه.

(٢)وقـال بعض السلف: إذا أصبـح ابن آدم ابتـدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنـه وتولاه الشيطان. ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند مبعثه. قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنـوا وأبشِروا بالجَنَّـة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخِـرة﴾ وإذا تولاه الملك تولاه أنصـح الخلق له، وأنفعهم وأبـرهم به، فثبته وعلمه، وقوى جنانه وأيده.

قال تعـالى: ﴿إذ يوحِي رَبُّـك إلى المـلائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ [الأنفـال: ١٢]. ويقول الملك للعبد عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك»، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه، في الحياة الدنيا، وعند الموت،

(١) ٢٧٩ الروضة. (٢) ١٤٤ الجواب.

وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به.

[1]**باعث** الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مغلولاً. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿**ربُّنا الله ثم استقامُوا**﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿**ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا، وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط، والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه. وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع، والأماني الباطلة، والغرور، والتسويف بالعمل، وطول الأمل، وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**». ضعيف

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى، فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ماجاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

---

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

ومهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول ليس الله محتاجًا إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثر مااستطعت من الخطايا		إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر يستعمله في رعاية الخنازير، وعصر الخمر، وحمل الصليب. وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه - عند الله - بمنزلة رجل قهر مسلمًا وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

فصل: وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالى: **﴿فإذا قرأت القُرآن فاستعِذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذِين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سُلطانه على الذين يتولونه والذين هُم به مُشركون﴾** [النحل: ٩٨، ١٠٠].

فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: **﴿وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم**

فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢].
وقال تعالى: **﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين * وماكان له عليهم من سُلطان إلا لنعلم من يؤمن بالأخرة مِمن هو مِنها فيشَك﴾** [سبأ: ٢٠، ٢١].
قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته. والسلطان الذي نفاه سلطان الحجـة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

فصل: الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخـل النار ثم يدخل الجنة. وهذه الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض. فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة. ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء. ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوبًا فهو متردد بين الصحة والمرض.

فصل: ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة. ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثـال الأول كرجل صارع رجلاً شديدًا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة. والثاني كمن صارع رجلا ضعيفًا فإنه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمان وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لقي رجل من الإنس رجلاً من الجن فصارعه

فصرعه الإنسي فقال: مالي أراك ضئيلاً فقال: إني من بينهم لضليع». فقالوا: أهو عمر بن الخطاب فقال: «من ترونه غير عمر».

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر». وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن شيطانًا لقي شيطانًا فقال: مالي أراك شخيبًا. فقال: إنني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار. فقال: لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعًا، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.

[1]**فهذا** ما تلخص [2]لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت ولا تظفر به مجموعًا في كتاب واحد غير هذا البتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التي من الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق.

فصل: فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى: ﴿**فأما إن كان من المقربين * فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم**﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها في جنة النعيم و(أصحاب يمين) حكم لها بالسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب و(مكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي وادخُلي جنَّتي**﴾ [الفجر: ٢٩، ٣٠]. وقد قال غير واحد من

---

(١) ١١٥ الروح.

(٢) يشير المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى ماسرده من أقوال الناس عامة. وقد ذكرها واحدًا وعشرين ثم فصلها بقرابة كراستين وناقشها بمالها وماعليها بما لا مزيد عليه. وذكر في آخر كلامه مايلي من قوله: «وأنت إذا تأملت السنن... الخ» (ج).

الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك. ولا ينافي ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة؛ فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث. وهذه من البشرى التي قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان، وهذا من ريحان الجنة...[1]

[2]**وأنت** إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضها فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضًا، لكن الشأن في فهمها، ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنًا غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعودًا وهبوطًا، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن بحال البدن في بطن أمه. وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها: (الدار الأولى): في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث. (والدار الثانية): هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة. (والدار الثالثة): دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى. (والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة والنار فلا دار بعدها. والله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها، ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها، الذي

---

(١) تقدم في سورة الزمر (٢) ١٤٥ الروح.

فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق.

(١)**قال** تعالى: ﴿**ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين**﴾ [فصلت: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿**قُل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتبعني**﴾ [يوسف: ١٠٨]. وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: ﴿**أدعو إلى الله**﴾ ثم يبتدىء ﴿**على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ فالقولان متلازمان؛ فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه.

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم؛ والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له. وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا. وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه.

(٢)**الدعاة** جمع داع كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله للاختصاص، أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدرًا. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمِل صالحِا وقال إنني من المسلمين**﴾. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما

---

(١) ٢٤٩ جلاء الأفهام.　(٢) ١٥٣ المفتاح جـ١.

أجـاب الله فيه من دعـوتـه، وعمـل صالحًـا في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله. فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد. قال تعالى: **﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا﴾** [الجن: ١٩].

وقال تعالى: **﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعِظة الحسنة وجَادِلهم بالتي هي أحسن﴾** [النحل: ١٢٥]. جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القـابل الزكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقـرون بالـرغبـة والـرهبـة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقـدمـات. ، وهـذا باطـل، وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

(١)**قوله** تعالى: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين﴾** [فصلت: ٣٣]. فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول. وقال تعالى: **﴿فبِظلم من الذين هادُوا حرمنا عليهم طيبات أحِلت لهم﴾** [النساء: ١٦٠]. فأي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيبًا في نفسه. فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمـع الـطيب والتحريم، وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة. بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية، ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء. فإنه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحسانًا وإنعامًا عليهم لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم ومآلهم إنما هو بفعل ما أمروا به، وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم، وليس مجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثـير من النـاس. ونهاهم عما نهاهم عنـه صيانة وحمية لهم إذ لا بقاء لصحتهم

---

(١) ١٠ المفتاح جـ٢.

ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية، فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغني الحميد، ولا حرم عليهم ما حرم بخلاً منه عليهم وهو الجواد الكريم، بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة. ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه، فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة.

(1)**والرسل** من أولهم إلى خاتمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل مِلَّة على لسان كل رسول. فعَرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلِم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن، يغفر ذنبًا ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويغيث ملهوفًا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الأولى، فحالوا بين القلوب

---

(1) ٣٤٨ المدارج جـ٣.

وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستواءه على عرشه: تشبيهًا وتجسيمًا وحَشوًا. فنَفَّروا عنه صبيان العقول. وسَمُّوا نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث.

وسموا وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاء ـ مكرًا منهم كُبّارًا بالناس ـ كمن يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة. أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فِعل الماكر المخادع. فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول: ترتب عليه الإعراض عن الله، وعن ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قُوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه. وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة: فقعدوا على رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها، وماكان عليه هو وأصحابه، وعابوا مَن خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولى به منه. كما قيل: رمتني بدائها وانسَلَّت.

وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها ـ كيف كان ـ هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد، والاستعداد للجنة ولقاء الله، وقالوا: اليوم خمر، وغدًا أمر، اليوم لك، ولا تدري: غدًا لك، أو عليك؟ وقالوا: لا نبيع ذرة منقودة، بدُرَّة موعودة.

خذ ما تراه ودع شيئًا سمع به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحل

وقالوا للناس: خلوا لنا الدنيا. ونحن قد خلينا لكم الآخرة. فإن طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة.

أناس ينقدون عيش النعيم ونحن نحال على الآخرة
فإن لم تكن مثلما يزعمو ن فتلك إذًا كرَّة خاسرة

فالايمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده

لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومُثير هممهم إذا قصروا؛ فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غاديًا رائحًا لم يضع لَبِنة على لبنة، ولكن رُفع له عَلم فشمر إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له ـ بفضله ومَنِّه ـ عَلَمًا يشاهده بقلبه، فيشمر إليه ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسْبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القَدر: أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه؛ لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه؛ وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضُرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها ـ بعد ذلك ـ ما هو مشروط بالمعرفة، وملزوم لها. إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع. فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان: ممتنع على المعطل امتناع حصول المَغَل من معطل البذر، بل أعظم امتناعًا.

كيف تصمد القلوب إلى من ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، ولا مباينًا له ولا محايثًا؟ بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد. والأماكن التي يرغب عن ذكرها؟ وكيف تألهُ القلوب من لا يسمع كلامها، ولا يرى مكانها، ولا يحب ولا يحب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم، وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله

القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلاً لذلك لمنَّ عليها به، وأكرمها به؛ إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: **﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** [الأنعام: ٥٣] **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مِثل ما أوتي رُسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** [الأنعام: ١٢٤] **﴿أهم يقسِمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾** [الزخرف: ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهًا. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيهًا. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها، وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

فصل[1]: فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لقَّاه ذلك؛ فإنه ينال بذلك كفَّ شر عدوه وانقلابه صديقًا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلِّ والحقد، وطمأنينة الناس - حتى عدوه - إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: **﴿وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا﴾** [فصلت: ٣٥] فإن النَّزق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشَّيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ**﴿إنه ليس له سُلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكَّلون﴾** [النحل: ٩٩].

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة. والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانًا لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده. وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال: ﴿**قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقال: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مُشركون**﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين، أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السَّيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم**﴾ [فصلت: ٣٤]. فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿**وإمّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعِذ بالله إنَّه هو السَّميع العليم**﴾ [فصلت: ٣٦] فأكد بإن وبضمير الفصل وأتى باللام في «السميع العليم» وقال في الأعراف: ﴿**إنّه سَميع عَليم**﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك. فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة. وهذا المعنى شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أوثقفيان وقرشي، كثيرٌ شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا

(١) ٩٦ الإغاثة جـ١.

ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَمَا كُنتم تَستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنَّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربِّكم أردَاكم فأصبحتُم من الخاسرين﴾** [فصلت: ٢٢-٢٣]. فجاء التوكيد في قوله: **﴿إنَّه هُو السَّميع العَليم﴾** في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون. وحَسَّن ذلك أيضًا: أن المأمور به في سورة فصّلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: **﴿وَمَا يلقاها إلا الذين صَبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم﴾** [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضا فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله: **﴿ومِن آياته اللَّيل والنهار﴾** [فصلت: ٣٧] وبقوله: **﴿ومِن آياته أنَّك ترى الأرضَ خَاشِعة﴾** [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه «السميع العليم» كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرّفة. والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تُسَوُّونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة «حم المؤمن» هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرْئيَّة بالبصر قال: **﴿إنَّ الذين يُجادِلون في آياتِ الله بغير سُلطان أتاهم إن في صُدورهم إلاَّ كِبرٌ ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنَّه هو السَّميع البصير﴾** [غافر: ٥٦]. فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عيانًا قال: «إنه هو السميع البصير» وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيلُه من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله.

[1]**فصل** وأما سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه: فأُمر أن يصبر نفسه مع الذين يدعون

---

(١) ٢٠٩ الزاد جـ٢.

ربَّهم بالغـداةِ والعَشِي يريدون وجهه، وأن لا تعدو عيناه عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمر، وأن يصلي عليهم. وأمره بهجْر من عصاه وتخلف عنه، حتى يتوب ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خُلِّفُوا، وأمره أن يُقيم الحدود على من أتى مُوجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء، شريفهم ودنِيهُم.

وأمره في دفع عدوه من شياطين الإنس: بأن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة. وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه وليٌّ حميم. وأمره في دفع عدوه من شياطين الجن: بالاستعاذة بالله منهم، وجمع له هذين الأمرين في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف، والمؤمنين، وسورة حم السجدة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿**خُذ العَفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإمَّا ينزغنَّك مِنَ الشيطان نزْغٌ فاستعِذ بالله إنه سميع عليم**﴾ [الأعراف: ١٩٨-٢٠٠]. فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه. وجمع له في هذه الآية مكارم الأخلاق والشِّيم كلها؛ فإن وليَّ الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال: فإنه لابد له من حق عليهم يلزمهم القيام به، ومن أمر يأمرهم به، ولابد من تفريط وعُدوان يقع منهم في حقه، فأمر بأن يأخذ من الحق الذي له عليهم ما طَوَّعت به أنفسهم، وسمحت به، وسهُل عليهم ولم يشق، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضرر ولا مشقة. وأُمر أن يأمرهم بالعرف، وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وتُقِرُّ بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر به بالمعروف أيضًا، لا بالعُنفِ والغِلظَة. وأمر أن يقابل جهل الجاهلين منهم بالإعراض عنه، دون أن يقابله بمثله. فبذلك يكتفي شرهم.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿**قل رَبِّ إمَّا تُرِيَني ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين * وإنَّا على أن نُريك ما نَعِدهم لقادرون * ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من هَمزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٨].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي**

هي أحسن فإذا الـذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم * وما يُلقّاها إلا الذين صَبروا وما يُلقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عظيم * وإمَّا ينزغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إنـه هو السميـع العليم﴾ [حم: ٣٤-٣٦]. فهذه سيرته مع أهل الأرض: إنسهم وجِنِّهم مؤمنهم وكافرهم.

[1]**وقد** قال تعـالى: **﴿وإمـا ينزغنك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾**.

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يرى عيانًا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرى، وهو شيطان الجن: أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعـراض عنه، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعـاذة بالله منـه. وجمـع بين النـوعـين في سورة الأعراف: (١٩٩) وسورة المؤمنون: (٩٨) وسورة فصلت: (٣٦) والاستعاذة في القراءة والذكر: أبلغ في دفع شر شياطين الجن. والعفو والإعراض والدفع بالإحسان: أبلغ في دفع شر شياطين الإنس، قال:

فما هو إلا الاستعـاذة ضارعًـا ... أو الدفع بالحسنى هما خير مطلوب
فهـذا دواء الداء من شر ما يُرى ... وذاك دواء الـداء من شر محجوب

فصل فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه

أمره ﷺ أن يطفىء عنـه جمرة الغضب بالـوضـوء والقعـود إن كان قائـمًا، والاضطجاع إن كان قاعدًا، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ولما كان الغضب والشهـوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم: أمر أن يطفئها بالوضوء والصلاة، والاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: **﴿أتأمُرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾** [البقرة: ٤٤]. وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة، فأمـرهم بما يطفئـون بها جمرتهـا، وهـو الاستعـانة بالصبر والصلاة، وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته.

ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب: القتل، ونهاية قوة الشهوة: الزنا ـ جمع الله تعالى بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين

---

(١) ٩٤ الزاد جـ٢.

في سورة الأنعام وسورة الإسراء وسورة الفرقان وسورة الممتحنة. والمقصود أنه سبحانه أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة. . .

[١]**فصل**: ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته. ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن الكريم ويبديه كقوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار**﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿**وهو الذي جعل لكم اللَّيل لِباسًا والنوم سُباتًا وجعل النهار نشورًا**﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقوله عز وجل: ﴿**وهو الذي خلق الليل والنَّهار والشَّمس والقمر كل في فَلك يسبحون**﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله عز وجل: ﴿**هو الذي جعل لكم اللَّيل لتسْكنوا فيه والنهار مُبصِرًا**﴾ [يونس: ٦٧]. وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، وكيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب. حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها. فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفًا، منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يُعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل.

[٢]**قوله** تعالى: ﴿**وترى الأرضَ هامِدة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت**

---

(١) ٢٠٣ المفتاح جـ١.

(٢) ١٤٤ الإعلام جـ١.

وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٥-٧]. وقوله تعالى: **﴿ومِن آياته أنك ترى الأرضَ خاشِعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربَت إنَّ الذي أحياها لَمحيي الموتَى إنه على كل شيء قدير﴾** [فصلت: ٣٩]. جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله. الثاني: أنه يحيى الموتى. الثالث: عموم قدرته على كل شيء. الرابع: إتيان الساعة وأنها لاريب فيها. الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقُرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشُبهة، وجعله تبصرة وذكرى كما قال تعالى: **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذِكرى لكل عبد منيب﴾** [ق: ٧، ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّم عليه في اللفظ كما قال تعالى: **﴿إن الذين اتَّقوا إذا مسَّهم طائِف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبصِرون﴾** [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تفَعُّل من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجَب له البصيرة، فأبْصر ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

(١)**تنبيه**: ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء. ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم يؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة وكثير من

(١) ٢٧٧ المفتاح جـ١.

الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا.

فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق. قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: وما حق الحياء؟ قال: «**أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وتذكر المقابر والبلى**». وقال ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ وقوله: ﴿**كلوا وتمتعوا قليلاً**﴾. وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر. وهو في قوة قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي، فليس بإذن، ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر. والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء. وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة بديعة جدًا وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين. آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي. وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة. فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة. ولابد. فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي صنع ما يشتهي.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**مَن عمل صالحًا فلنفسه ومَن أساء فعليها وما ربُّك بظلامٍ للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

(٢)**فتدبر** قوله تعالى: ﴿**وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تُصبهم سيئة بما قدَّمت أيديهم فإن الإنسان كفور**﴾ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بإذا وأتى في إصابة السيئة بأن، فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال

---
(١) ١٣٦ المدارج جـ١. (٢) ٤٧ البدائع جـ١.

على أنه غير محقق ولابد. وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها.

وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال: (منا رحمة)، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم. وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية. وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. وتأمل قوله تعالى: ﴿**وإذا مسَّكم الضُّر في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه**﴾ [الإسراء: ٦٧]. كيف أتى بإذا ههنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققًا بخلاف قوله: ﴿**لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشر فيئوس قنوط**﴾ [فصلت: ٤٩]. فإنه لم يقيد مسَّ الشر هنا بل أطلقه ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة إذا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر كان يؤسًا**﴾ [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له فكان الإتيان بإذا هنا أدلَّ على المعنى المقصود من إن بخلاف قوله: ﴿**وإن مسَّه الشر فذو دعاء عريض**﴾ [فصلت: ٥١] فإنه بقلة صبره وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤسًا. ومثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله وفهم يؤتيه عبدًا في كتابه. . .

(١)**ومن** أسمائه تعالى «المؤمن» وهو ـ في أحد التفسيرين ـ المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدَّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقًا. فإنه سبحانه أخبر ـ وخبره الصدق وقوله الحق ـ أنه لابد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿**سَنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنَّه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن؛ فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به**﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿**أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾

(١) ٤٦٦ الإعلام جـ٣.

[فصلت: ٥٣] فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق. ووعده أن يُريَ العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضًا.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت، وشأنه أجل وأعلى؛ فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له، والعلم كله له، القدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى مالم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنًا وظاهرًا. ومَن هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به؟ وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذِب عليه أعظم الكذب؟ ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به، وجَوَّزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق. وهي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واعٍ عن الله. قال الله تعالى: ﴿**ولَو تقوَّل علينا بعض الأقاويل**﴾ [الحاقة: ٤٤] إلى قوله تعالى ﴿**عنه حاجزين**﴾ أفلا تراه كيف يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل بل لابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه...

(١)**ومن** الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره. كما قال: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير(٢).

(٣)**الرب** تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كقوله: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾ [البقرة: ١٦٤]. إلى آخرها. وقوله: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثير في القرآن. والثاني كقوله: ﴿**أفلا يتدبرون القُرآن**﴾ [النساء: ٨٢]. وقوله: ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقوله: ﴿**كِتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته**﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثير أيضًا.

(١) ١٨٩ التبيان. (٢) يأتي في الذاريات البحث كاملاً إن شاء الله تعالى. (ج). (٣) ٢٠ الفوائد.

(١)**فأما** المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعـول يدل على فاعـل فعله، وذلـك يستلزم وجـوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معلوم أو موجود لاقدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالـطبـع بحيث يكـون واحدًا غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الإهانة والإبعاد والخـذلان دال على بغضـه ومقتـه. ومـا فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكـان المعـاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها. فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه. فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿**سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتَّى يتبين لهم أنَّه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق. ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿**أفي الله شك**﴾ [إبراهيم: ١٠] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل. فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فصلت

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله:** ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] فإنه سبحانه ذكر ذلك عقب ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال ﴿**حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١-١١] . فهذا الموصوف بهذه الصفات والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير. فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء. فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنه ليس كمثله شيء. وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة له، كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ**﴾[الشورى: ١٠]، وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، فهو الحاكم فيه على لسان رسوله. فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بكتابه. وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عما خالفه، وأخبر أن كتابه بينة وهدى وشفاء ورحمة ونور مفصلاً وبرهانا وحجة وبيانا. فلو كان في العقل

---

(١) ٢١٢ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٤١ مختصر الصواعق جـ١.

ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه. (١)قال الله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

قلت: وجه تعلقه بإشارة الآية: هو أن الله ـ سبحانه ـ يعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام المذكورة. قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل. والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجا. فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج، والضمير في قوله «فيه» يرجع إلى الجعل. ومعنى «الذرء» الخلق، وهو هنا الخلق الكثير، فهو خلق وتكثير. فقيل «في» بمعنى الباء، أي يكثركم بذلك. وهذا قول الكوفيين. والصحيح: أنها على بابها. والفعل تضمن معنى «ينشئكم» وهو يتعدى بفي. كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(الواقعة: ٦١) فهذا تفسير الآية.

ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح. وهو ـ سبحانه ـ الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه ـ كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءًا. والله أعلم.

(٢)**قوله** سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى: ١١)، إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر في الصحو. فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من دونه أولياء. يوالونهم من دونه. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ

---

(١) ٢٩٩ مدارج جـ٣ (٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٦ - ١١].

فتأمل. كيف ذَكَرَ هذا النَّفْيَ تقريرًا للتوحيد، وإبطالاً لما عليه أهلُ الشرك: من تشبيهِ آلهتهمْ، وأوْليائهم به، حتى عبدوهم معه. فَحَرَّفَها المحرِّفون وجَعلوها تُرْسًا لهم في نَفْيِ صفات كماله، وحَقائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التشبيهُ الذي أبْطَلُه الله ـ سبحانه ـ نَفْيًا ونَهْياً: هو أصلُ شركِ العالم، وعبادةِ الأصنام. ولهذا نَهى النبيُّ ﷺ، أن يَسْجُدَ أحدٌ لمخلوقٍ مثله[١]، أو يحلف بمخلوق مثله[٢]، أو يُصَلِّي إلى قبرٍ، أو يَتخَذَ عليه مسجدًا، أو يُعلِّق عليه قنديلاً أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، ونحو ذلك، حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك. وأما إثبات صفات الكمالِ فهو أصلُ التوحيد.

فتبين أن المشبهة هم الذين يُشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لى إلا الله وأنتَ، وأنا مُتَّكِلٌ على الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك.

فهؤلاء هم المشبهة حقًّا، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له ندًّا من خلقه، ولا عدلا، ولا كفؤا، ولا سَمِيًّا. وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

---

(١) روى أحمد بإسناد جيد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر. ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها**» في حديث طويل فيه سجود الجمل للنبي، ﷺ. وروى هذا المعنى أيضًا أبو داود عن قيس بن سعد. ورواه ابن ماجه وابن حبان عن ابن أبي أوفى في قصة قدوم معاذ بن جبل من الشام. وسجوده للنبي، ﷺ، لما رأى أهل الشام يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم.

(٢) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي، (ﷺ) سمع عمر يحلف بأبيه فقال: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» وروى أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عمر أن النبي، ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر**» وفي رواية «**فقد أشرك**».

فمن تدبر هذا الفصل حَقَّ التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سرُّ القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولاسيَّما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب عليهم. فيجمعون بين تعطيل الرب ـ سبحانه ـ عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به.

(1)**الوجه** الثالث والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء. وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ليس كمثله شيء وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله ولا من يكافيه فيها. ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين ومنفيا عنه مباينة العالم ومحايثته واتصاله به وانفصاله عنه وعلوه عليه وكونه يمنته أو يسرته أو أمامه أو وراءه لكان كل عدم مثلا له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مماثلة الموجودات وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات، وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفؤ ولا سمي.

فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله واستوائه على عرشه وتكلمه بالوحي وتكليمه لمن يشاء من خلقه؛ لكان ذلك وصفا له بغاية العدم. فهذا النفي واقع على العدم المحض. وعلى من كثرت أوصاف كماله حتى تفرد بذلك الكمال فلم يكن له شبيه في كماله ولا سمي ولا كفؤ.

فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعاً، وصار المعنى أنه لا يوصف بصفة أصلاً، فلا يفعل فعلاً، ولا وجه له، ولا يد، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم، ولا يقدر، تحقيقًا لمعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وقال أخوانكم من الملاحدة: ليس له ذات أصلاً تحقيقًا لهذا النفي.

وقال غلاتهم: لا وجود له. تحقيقًا لهذا النفي.

وأما الرسل واتباعهم فإنهم قالوا: إن الله حي. وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته. وهو قوي، وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ

---

(1) ٢٠٧ مختصر الصواعق جـ١.

﴿الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] يسمع ويبصر. وليس كمثله شيء في سمعه وبصره. ومتكلم. وله يدان. ومستوٍ على عرشه. وليس له في هذه الصفات مثل: فهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له وثناء أثنى به على نفسه. والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يكون كمالا له بل هو أنقص النقص. وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى: **﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾**(البقرة: ٢٥٥)، لكمال حياته وقيوميته.

وقوله **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾** لكمال غناه وملكه وربوبيته.

وقوله **﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾**(فصلت: ٤٦) **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾**[الكهف: ٤٩]، لكمال غناه وعدله ورحمته، وقوله: **﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾**[ق: ٣٨] لكمال قدرته. وقوله: **﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾** [يونس: ٦١] لكمال علمه. وقوله: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾**(الأنعام: ١٠٣) لعظمته وإحاطته بما سواه وأنه أكبر من كل شيء. وأنه واسع، فيُرىٰ ولكن لا يحاط به إدراكا، كما يُعلمُ ولا يُحاط به علمًا، فيُرىٰ ولا يُحاط به رؤية. وهكذا ليس كمثله شيء هو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال.

وهذا هو المعقول في فطر الناس. فإذا قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس. أو ماله شبيه، ولا من يكافيه. فإنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لا يلحقه فيه غيره. فصار واحدًا في الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده؛ لكان ذلك عندهم غاية الذم والنقص له.

فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها.

فهل يقول عاقل لمن لا قدرة له ولا علم ولا بصر ولا يتصرف بنفسه ولا يفعل شيئًا ولا يتكلم ولا له وجه ولا يد ولا قوة ولا فضيلة من الفضائل: إنه لا شبه له، ولا مثل له، وأنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا على ضد ذلك؟ وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنى؟ وإلا فبماذا يثني

عليه المثنون! ولأي شيء يقول أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»؟ ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا تحصيه لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه وأشد إحصاء له فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفياً مفصلاً. وذلك مما يحصيه المحصي بلا كلفة ولا تعب. وقد فصله النفاة وأحصوه وحصروه.

(١)**قال** تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

فأخبر - تعالى - أنه شرع لنا دينه الذي وصّى به نوحا والنبيين من بعده، وهو دين واحد، ونهانا عن التفريق فيه، ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإئتلاف وعدم التفرق، وأن الحامل على ذلك التفرق البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها. وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادرًا عن هذا بعينه.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذره من اتباع أهواء المتفرقين.

وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحق أن يؤمن بكل ما سمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم، وهذا يعم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب، ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ٢.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف، وهو ربنا وربكم والدين واحد، ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

ثم قال: ﴿**لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [الشورى: ١٥] والحجة ههنا هي الخصومة أي للخصومة، ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم، بعد ما ظهر الحق، وأسفر صبحه، وبانت أعلامه، وانكشفت الغمة عنه. وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لا احتجاج فيه.

كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفسادا لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبارًا عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين، وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد ناظر النبي، ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة، ولم يجد إلى ردها سبيلا، وما خالفه أعداؤه إلا عنادًا منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة. فقوله: ﴿**لا حجة بيننا وبينكم**﴾ أي لا خصومة فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد، وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحودًا وعنادًا لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان، ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير. قالوا وها نحن نتحرى القسط بين الفريقين... [1]

[2]**قول** النبي ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات**» وفي لفظ «**أخوة من علات**،

---

(١) بحث المؤلف هنا بحثًا مطولاً إجمالاً وتفصيلاً (ج).　　(٢) ٢٠١ بدائع جـ٣.

أمهاتهم شتى، ودينهم واحد». قال الجوهري: بنو العلاّت، هم أولاد الرجل من نسوة شتى، سميت بذلك لأن الذي تزوجها علّ أولى كانت قبلها، ثم علّ من الثانية. العلل: الشرب الثاني، يقال له: علّل بعد نهل، وعلّه يعلّه، إذا سقاه السقية الثانية.

وقال غيره: سموا بذلك، لأنهم أولاد ضرائر، والعلات: الضرائر، وهذا الثاني أظهر: وأما وجه التسمية، فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره، معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد، كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ﷺ ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ**» قالوا: كيف يارسول الله؟ فقال: **الأنبياء أخوة من علات**» الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا، وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، والايمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه: بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم. فقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[الشورى: ١٣].

وقال البخاري في صحيحه: باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

فهذا أولى المعنيين بالحديث. وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزلة الدين وأصالة هذا وتذكيره. وفرعيته: الأم وتأنيثها واتحاد الأب وتعدد الأم ما يدل على أنه معنى الحديث والله أعلم.

. . . [1]قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]. والحجة هي اسم لما يحتج به من حق وباطل. قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[البقرة: ١٥٠]. فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[البقرة: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّاكَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

والحجة المضافة إلى الله هي الحق. وقد تكون الحجة بمعنى: المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] أي قد وضح الحق واستبان وظهر، فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة، فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة . . .

[2]**والمقصود** الفرق بين الحجج والبينات. فنقول: الحجج الأدلة العلمية.

والبينات جمع بينة وهي صفة في الأصل، يقال: آية بينة، وحجة بينة، والبينة اسم لكل مايبين الحق من علامة منصوبة، أو أمارة، أو دليل علمي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات، والكتاب هو الدعوة. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦: ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه﴾ [الأعراف: ١٠٧]. **وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة . . .**

[3]**العبد** دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج - بل

---

(١) ١٤٥ مفتاح جـ١.	(٢) ١٤٦ مفتاح جـ١.

(٣) ٢٠٢ فوائد.

مضطر - إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا، ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذى بين يدي سيده ذليلاً له، مستكينًا ناظرًا إليه بقلبه، ساكنًا إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

(١)**وسأله** ﷺ عُبادة بن الصامت، فقال: رجل أهدى إلي قَوْسًا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، فقال: «**إن كنت تحبُّ أن تُطوَّق طوقًا من نارٍ فاقْبَلْهَا**».

ولا ينافي هذا قوله: «**إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**» في قصة الرُّقْية؛ لأن تلك جَعَالة على الطب؛ فطبَّه بالقرآن، فأخذ الأجرة على الطب، لا على تعليم القرآن، وههنا منعه من أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**﴾ [سبأ: ٤٧] وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا**﴾ [يس: ٢١] فلا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الإسلام والقرآن.

(٢)**ونحن** (٣) نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة، ونحبط بأخذ الأجر عليها: كالقضاء، والفتيا، وتعليم العلم، والصلاة، وقراءة القرآن، وغيرها؛ فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه

---

(١) ٣٣٣ أعلام جـ٤. (٢) ١٦٣ الروح.

(٣) هذا البحث في إهداء القربات والطاعات عامة بتفصيل ومناقشة للأدلة في المسألة السادسة عشرة بكاملها من كتاب الروح بدءًا من ص١٤٥ وانتهاءً بـ ص١٧٧ لمن أراده (ج).

الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية. وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

(١)**استدل** شيعي على الوصية لأهل البيت بقوله تعالى: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [الشورى: ٢٣].

فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم لا وصية إليهم فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم.

ونظير هذا الاحتجاج على أن الأمر في قريش لا في الأنصار بقول النبي ﷺ: «**أوصيكم بالأنصار**» فدل على أن الأمر في غيرهم.

قلت وهذا كله خروج عن معنى الآية وماأريد بها، ولا دلالة فيها لواحدة من الطائفتين، فإن معنى الآية: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تصلوا مابيني وبينكم من القرابة، فإنه لم يكن بطن من قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فقال: «**لاأسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولكن صلوا بيني وبينكم من القرابة**» **وليست هذه الصلة أجرًا**، فالاستثناء منقطع، فإن الصلة من موجبات الرحم، فهي واجبة على كل أحد، وهذا هو تفسير ابن عباس الذي ذكره البخاري عنه في صحيحه.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ**﴾ [الشورى: ٢٤] ههنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق أنه ﴿**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ**﴾ [الشورى: ٢٤].

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشاء الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لايشق عليك. والثاني قول قتادة: إن يشاء الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي. وهذا القول دون الأول لوجوه:

---

(١) ١٢٩ بدائع جـ٣.	(٢) ٤٦٨ مدارج جـ٣.	(٣) ١١٥ التبيان.

أحدها: أن هذا خرج جوابًا لهم وتكذيبًا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله، وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله - تعالى - قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة، والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم من حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟[1]

[2]**قال** ابن عقيل: الأموال التي يأخذها القضاة أربعة أقسام: رشوة، وهدية، وأجرة، ورزق.

فالرشوة حرام وهي ضربان: رشوة ليميل إلى أحدهما بغير حق، فهذه حرام عن فعل حرام على الآخذ والمعطي وهما آثمان. ورشوة يعطاها ليحكم بالحق واستيفاء حق المعطي من دين ونحوه، فهي حرام على الحاكم دون المعطي لأنها للاستنقاذ، فهي كجعل الآبق وأجرة الوكلاء في الخصومة.

وأما الهدية فضربان: هدية كانت قبل الولاية فلا تحرم استدامتها. وهدية لم تكن إلا بعد الولاية وهي ضربان. مكروهة وهي الهدية إليه ممن لا حكومة له. وهدية ممن قد اتجهت له حكومة فهي حرام على الحاكم والمهدي.

وأما الأجرة فإن كان للحاكم رزق من الإمام من بيت المال حرم عليه أخذ الأجرة قولًا واحدًا، لأنه إنما أجري له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم، فلا وجه لأخذ الأجرة من جهة الخصوم. وإن كان الحاكم لا رزق له فعلى وجهين: أحدهما الإباحة لأنه عمل مباح، فهو كما لو حكاه، ولأنه مع عدم الرزق لا يتعين عليه الحكم فلا يمنع من أخذ الأجرة: كالوصي وأمين الحاكم يأكلان من مال اليتيم بقدر الحاجة.

---

(١) أوصلها الشيخ إلى عشرة أوجه تأتي إن شاء الله في سورة الحاقة (ج). (٢) ١٤٦ بدائع جـ٣.

وأما الرزق من بيت المال فإن كان غنيًا لا حاجة له إليه، احتمل أن يكره، لئلا يضيق على أهل المصالح، ويحتمل أن يباح لأنه بذل نفسه لذلك، فصار كالعامل في الزكاة والخراج.

قلت: أصل هذه المسائل عامل الزكاة وقيم اليتيم. فإن الله - تعالى - أباح لعامل الزكاة جزأ منها، فهو يأخذه مع الفقر والغنىٰ، والنبي ﷺ منعه من قبول الهدية، وقال: «**هلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى إليه أم لا**».

وفي هذا دليل على أن ماأهدي إليه في بيته ولم يكن سببه العمل على الزكاة جاز له قبوله، فيدل ذلك على أن الحاكم إذا أهدى إليه من كان يهدي له قبل الحكم ولم تكن ولايته سبب الهدية فله قبولها.

وأما ناظر اليتيم فالله - تعالى - أمره بالاستعفاف مع الغنى، وأباح له الأكل بالمعروف مع الفقر. وهو إما اقتراض أو إباحة على الخلاف فيه.

والحاكم فرع متردد بين أصلين: عامل الزكاة، وناظر اليتيم.

فمن نظر إلى عموم الحاجة إليه، وحصول المصلحة العامة به ألحقه بعامل الزكاة، فيأخذ الرزق مع الغنى كما يأخذه عامل الزكاة.

ومن نظر إلى كونه راعيًا منتصبًا لمعاملة الرعية بالأحظ لهم ألحقه بولي اليتيم إن احتاج أخذ وإن استغنى ترك.

وهذا أفقه وهو مذهب الخليفتين الراشدين قال عمربن الخطاب - رضي الله عنه - إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم، إن احتاج أكل بالمعروف، وإن استغنى ترك. والفرق بينه وبين عامل الزكاة، أن عامل الزكاة مستأجر من جهة الإمام لجباية أموال المستحقين لها وجمعها، فما يأخذ يأخذه بعمله كمن يستأجره الرجل لجباية أمواله.

وأما الحاكم فإنه منتصب لإلزام الناس بشرائع الرب تبارك وتعالى وأحكامه وتبليغها إليهم فهو مبلغ عن الله تعالى عز وجل بفتياه، ويتميز عن المفتي بالإلزام بولايته وقدرته، والمبلغ عن الله تعالى الملزم للأمة بدينه لا يستحق عليهم شيئًا، فإن كان محتاجًا فله من الفيء مايسد حاجته، وهذا لون وعامل الزكاة لون فالحاكم مفتي في خبره عن حكم الله ورسوله شاهد فيما ثبت عنده، ملزم لمن توجه عليه

الحق، فيشترط له شروط المفتي، والشاهد، ويتميز بالقدرة على التنفيذ فهو في منصب خلافة من قال: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

فهؤلاء هم الحكام المقدر وجودهم في الأذهان المفقودون في الأعيان، الذين جعلهم الله ظلالاً يأوي إليها اللهفان ومناهل يردها الظمآن.

(١)**والفرق** بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة والقصد؛ فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله ﷺ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر.

(٢)فائدة

الجاهل يشكو الله إلى الناس؛ وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته. فقال: «ياهذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك». في ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما		تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

(٣)**قال** تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]. فكل مايقضى على العبد فهو عدل فيه.

---

(١) ٢٩٣ الروح.	(٢) ٨٦ فوائد.	(٣) ٢٤ فوائد.

فإن قيل فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها ظاهر. قيل هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته.

قالوا: لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير، والله له كل شيء، فلا يكون تصرفه في خلقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ماقضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة، والذم إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو ـ سبحانه ـ وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغيّ على من شاء، فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به.

كيف ومن أسمائه الحسنى: العدل الذي كل أفعاله وأحكامه: سداد، وصواب، وحق، وهو ـ سبحانه ـ قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول؛ وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد ـ سبحانه ـ من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله.

وهذا نوعان: أحدهما ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه، وتناسى ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها، ولا يحبه فلا يشاؤها له، لعدم صلاحية محله.

قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٣]. فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور، كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقًا على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر.

[1]**فصل** والصبر على الابتلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن تخلق فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠] فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

قال علي بن أبي طالب: مانزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدي الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم مالم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته

---

(١) ٢٧٦ طريق الهجرتين.

وحسن تأثيره. قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا قال القائل:

لعلَّ عتبكَ محمودٌ عواقبه　　وربما صحت الأجسام بالعلل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه. فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وخلع عليه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد، وصفع قفاه، وأقصي، وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة. ومابين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة. وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه: «**اللهم أعني على: ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وكيف لا يشكر من قيض له مايستخرج خبثه ونحاسه وصبره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

(١)**فصل** والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة. ومن أقوى أسبابها الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وههنا مسألة تكلم فيها الناس، وهي أي الصبرين أفضل: صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ فطائفة رجحت الأول، وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصدّيقين، كما قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدّيق.

قالوا: ولأن داعي المعصية أشد من داعي ترك الطاعة، فإن داعي المعصية إلى أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة، ولا ريب أن داعي المعصية أقوى.

قالوا: ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب التَّشَبُّه والمحاكاة وميل الطبع، وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلى المعصية ويطلب أثره، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت على القلب؟ فأي صبر أقوى من صبر عن إجابتها؟ ولولا أن الله يصبره لما تأتي منه الصبر. وهذا القول كما ترى حجته في غاية الظهور.

ورجحت طائفة الصبر على الطاعة بناء منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة. ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر على

(١) ٢٧٥ طريق الهجرتين.

الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعًا ونحوه. فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.

(١)**وهنا** للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله. وهو مشهد «القدر» وأن ماجرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان، ووجب وجوده، ومالم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لامحالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

فصل

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، ومايترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا ـ وهو محمود ـ صبر اضطرارًا على أكبر منه. وهو مذموم.

فصل

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشًى في بصيرته. فإنه «مازاد الله عبدًا بعفو إلا عِزًّا» كما صح ذلك عن النبي ﷺ. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ. هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ماليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصل

المشهد الرابع: مشهد «الرضى» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا

(١) ٣١٨ مدارج جـ٢.

لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله. **فإذا كان ما أصيب به في الله**، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله. **وهذا شأن كل** محب صادق، يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خَدِّي أرضًا للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة. وليتأخر فليس من ذا الشأن.[1]

[2]**قال** ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن. وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه. وظلمة في القلب ووهنًا في البدن. ونقصًا في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. ومايعفو الله عنه أكثر.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله. ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أُصبت. فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم. لاينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ماهو أعظم منها لمن كانت له بصيرة.

---

(١) ذكرها المؤلف أحد عشر تركنا ذكرها اختصارًا سوى الثامن فهو في سورة لقمان (ج).

(٢) ٤٢٤ مدارج جـ١

كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني ـ أو فوقه أو دونه ـ كما حسبت. يكون هِجِّيراي: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علمًا بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس تَرِين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وَتَكَفُّئِها ولا سيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الـرياح. فهكـذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك، فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. وما جريات الخلق. بل انتفع بها جريات أهل زمانه ومايشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئـذ معنى قولـه تعـالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعـد: ٣٣] وقـولـه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فكل ماتراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين. كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَالَ الدِيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سَقْي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك.

كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمّىٰ بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفوها منه، وانسـداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده

وزوجتـه وإخـوانـه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتي؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه ازداد إيمانًا مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

(١)**قوله** تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٣٧]. فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله(٢).

(٣)فصل

وقالت الحنفية والشافعية والمالكية ومتأخرو أصحاب أحمد: إنه لا قِصاصَ في اللَّطْمة والضربة، وإنما فيه التعزير، وحكى بعض المتأخرين في ذلك الإجماع، وخرجوا عن مَحْض القياس وموجَب النصوص وإجماع الصحابة؛ فإنَّ ضَمانَ النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾

فأمر بالمماثلة في العقوبة والقصاص؛ فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به؛ فهذا الملطوم المضروب قد اعْتُدِيَ عليه، فالواجب أن يَفْعلَ بالمعتدِي كما فعل به، فإن لم يمكن كان الواجبُ ما هو الأقرب والأمثل، وسَقَط ما عجز عنه العبد من المساواة من كل وجه.

---

(١) ٨٠ فوائد.

(٢) أول هذا البحث تقدم في آخر سورة الفرقان (ج).

(٣) ٣١٨ أعلام جـ١.

ولاريب أن لطمة بلطمة وضربة بضربة في محلّهما بالآلة التي لَطْمه بها أو بمثلها أقربُ إلى المماثلة المأمور بها حسًّا وشرعًا من تعزيره بها بغير جنس اعتدائه وقدره وصفته، وهذا هو هَدْيُ رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس وهو منصوص الإمام أحمد، ومَنْ خالفه في ذلك من أصحابه فقد خَرَج عن نص مذهبه وأصوله، كما خرج عن محض القياس والميزان. قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني في كتابه المترجم له. **باب في القصاص من اللطمة والضربة.**

حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألتُ أحمد بن حنبل عن القصاص من اللطمة والضربة، فقال: «عليه القَوَد من اللطمة والضربة» وبه قال أبوداود وأبوخيثمة وابن أبي شيبة. وقال إبراهيم الجوزجاني: «وبه أقول؛ لما حدثنا شبابة بن سوار ثنا شعبة عن يحيى بن الحصين قال: سمعت طارق بن شهاب يقول: لَطَمَ أبو بكر رجلاً يومًا لطمة، فقال له: اقتصَّ، فعفا الرجل.

حدثنا شبابة أنبأ شعبة عن مخارق قال: سمعت طارقًا يقول: لطم ابن أخ لخالد بن الوليد رجلاً من مُرَاد، فأقاده خالد منه.

حدثنا أبو بهز حدثنا أبو بكر بن عياش قال: سمعت الأعمش عن كميل بن زياد قال: لطمني عثمان ثم أقادني فعفوت.

حدثني ابن الأصفهاني حدثنا عبدالسلام بن حرب عن ناجية عن عمه يزيد بن عربي قال: رأيت عليًّا ـ كرم الله وجهه في الجنة ـ أقاد من لطمه.

وحدثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبدالله بن إسماعيل بن زياد ابن أخي عمرو بن دينار أن ابن الزبير أقاد من لطمة.

ثنا يزيد بن هارون أنا الجريري عن أبي نَضرة عن أبي فراس قال: خطبنا عمر فقال: إني لم أبعث عُمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن إنما بعثتهم ليبلغوكم دينكم وسنة نبيكم ويقسموا فيكم فيئكم، فمن فعل به غير ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه؛ فقام إليه عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين! إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدَّبَ بعض رعيته لتقصنه منه، فقال عمر: أنا لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ، يقص من نفسه؟

ثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن ابن حَرْمَلة قال: تَلاحَى رجلان، فقال أحدهما: ألم أخنقك حتى سلحت؟ فقال: بلى، ولكن لم يكن لي عليك شهود، فاشهدوا على ما قال، ثم رفعه إلى عمر بن عبدالعزيز فأرسل في ذلك إلى سعيد بن المسيب، فقال: يخنقه كما خنقه حتى يحدث أو يفتدي منه، فافتدىٰ منه بأربعين بعيرًا، فقال ابن كثير: أحسبه ذكره عن عثمان، . . .

فصل(١)

والفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل: فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[الشورى: ٣٩] فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من: العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى: ٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو، وهما متنافيان؟ قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم. فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذلٍّ وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح ـ سبحانه ـ به نفسه في قوله: ﴿فإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] والله غفور رحيم.

وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة، اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

---

(١) ٢٩٤ الروح.

ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨]. إي أن غفرت لهم: غفرت عن عزة؛ وهي كمال القدرة، وحكمة؛ وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا، وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام، وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره: ضيم وذل، وباطنه: عز ومهابة، والانتقام ظاهره: عز، وباطنه: ذل، فما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله، ﷺ لنفسه قط. وتأمل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم. ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا، بل لابد من المجاوزة شرع فيه ـ سبحانه ـ المماثلة والمساواة، وحرم الزيادة، وندب إلى العفو.

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الأمارة.

ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء. فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذلّ حظه ورقّ هواه، فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغي عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيًا فيه وإذلالًا له.

وأما النفس المطمئنة التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به، ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حراثين ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيده، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي على

عفوه، ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمّله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم، ولطخ تلك الثياب بالعذرة، أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه، وأوفق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليَّ، واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره، ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسر قلبه، فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظه، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روي عن علي - رضي الله عنه - أنه مر برجل، فاستغاث به، وقال: هذا منعني حقي، ولم يعطني إياه، فقال: أعطه حقه، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع، وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقد منه، فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين! فضرب به علّي تسع درر، وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان، فعاقبه علي لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال: احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك وعنده المغيرة بن شعبة، فحسر عن ذراعه، وصك بها أنف الرجل، فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقالوا: أقدنا من المغيرة، فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله؟ لا أقيدكم منه، فرأى أبو بكر أن ذلك انتصارًا من المغيرة، وحمية لله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله، ﷺ، ليتمكن بذلك العز من: حسن خلافته، وإقامة دينه؛ فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

[1]**افتى** الزهري لعمر بن عبدالعزيز فيمن أتلف له شجر، فقال الزهري: يغرسه حتى يعود كما كان، وقال ربيعة وأبو الزناد: عليه القيمة، فغلظ الزهري القول فيهما، وقولُ الزهري وحكم سليمان هو موجبُ الأدلة؛ فإن الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾[الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى**

---

(١) ٢٦ أعلام جـ٢.

عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤]، وقال: **﴿والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾** [البقرة: ١٩٤]، وقال: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾**[النحل: ١٢٦]. وإن كان مثل الحيوان والآنية والثياب من كل وجه متعذرًا فقد دار الأمر بين شيئين: الضمان بالدراهم المخالفة للمثل في الجنس والصفة والمقصود والانتفاع وإن ساوت المضمون في المالية، والضمان بالمثل بحسب الإمكان المساوي للمُتلف في الجنس والصفة والمالية والمقصود والانتفاع، ولا رَيْبَ أن هذا أقربُ إلى النصوص والقياس والعدل.

ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفاق الصحابة من القصاص في اللطمة والضربة، وهو منصوص أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد، وقد تقدم تقرير ذلك، وإذا كانت المماثلة من كل وجه متعذرة حتى في المكيل والموزون فما كان أقرب إلى المماثلة فهو أولى بالصواب، ولا رَيب أن الجنس إلى الجنس أقرب مماثلة من الجنس إلى القيمة؛ فهذا هو القياس وموجب النصوص، وبالله التوفيق.

(١)**قال الله تعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾**[الشورى: ٤٩ ـ ٥٠] إلى قوله: **﴿قدير﴾**.

فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال: أحدها من تلد الإناث فقط. الثانية من تلد الذكور فقط. الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرًا وأنثى. الرابعة العقيم التي لا تلد أصلاً.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان، قال: كنت عند النبي، ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يامحمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يارسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله، ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**». قال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله، ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك**»؟ قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله، ﷺ، بعود معه، فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله، ﷺ: «**هم في الظلمة دون**

(١) ٢٥٨ مفتاح جـ١.

الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: **«فقراء المهاجرين»** قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: **«زيادة كبد حوت ذى النون»** قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: **«ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين تسمى سلسبيلا»**. قال صدقت. وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: **«ينفعك إن حدثتك»** قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: **«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا منيّ المرأة منيّ الرجل أنثا بإذن الله»** قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي! ثم انصرف، فقال رسول الله، ﷺ: **«لقد سألني عن هذا، الذي سألني عنه، ومالي علم به، حتى أتاني الله به»**.

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعًا، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى، وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه، فيلتقي الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولدمنهما جميعًا، وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال بلغ عبدالله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؟ قال: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أخبرني بهن آنفا جبريل»** فقال عبدالله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإنه الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها»** فقال: أشهد أنك رسول الله، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: [جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت:][1] يارسول الله! إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: **«نعم إذا رأت الماء الأصفر»** فضحكت أم سلمة فقالت: أو تحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فبم يشبهها الولد»**؟

---

(١) هذه الزيادة من صحيح البخاري وهي غير موجودة بالنسخة المطبوعة (المراجع).

والإينـاث يكـون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الـرحم كان الشبـه له. وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها، ولا تعلم إلا بالوحي، وليس في صناعتهم أيضا ما ينافيها.

على أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفـظه كما ينبغي، وأن يكـون السؤال إنـما وقـع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث، كما سأل عنه عبدالله بن سلام. ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي بكر عن أنس عن النبي، ﷺ، قال: «**إن الله وكّل بالرحم ملكا فيقول: يارب نطفة! يارب علقة! يارب مضغة! فإذا أراد أن يخلقها، قال: يارب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**».

أفلا ترى كيف أحـال بالإذكـار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكسبه الذي للطبيعة فيه مدخل، أولا ترى عبدالله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه، ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه، والله أعلم، وإن كان رسول الله، ﷺ، قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث. والله أعلم.

(١)**وأما** الإذكار والإيناث: فليس بسبب طبيعي، وإنما سببه: الفاعل المختار الذي يأمر الملك به، مع تقدير الشقاوة والسعادة، والرزق، والأجل، ولذلك جمع بين هذه الأربع في الحديث «**فيقول الملك: يارب، ذكر؟ يارب، أنثى؟ فيقضى ربك ما شاء، ويكتب الملك**». وقد رد ـ سبحانه ـ ذلك إلى محض مشيئته، في قوله تعالى: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

والتعليق بالمشيئة ـ وإن كان لا ينافي ثبوت السبب بذلك ـ إذا علم كون الشيء سببًا، دل على سببيته بالعقل وبالنص، وقد قال، ﷺ، في حديث أم سليم: «**ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا ـ أو سبق ـ يكون الشبه**» فجعل للشبه سببين: علو الماء، وسبقه.

---

(١) ٢٢٠ الطرق الحكمية.

وبالجملة: فعامة الأحاديث إنما هي تأثير سبق الماء وعلوه في الشبه، وإنما جاء تأثير ذلك في الإذكار والإيناث في حديث ثوبان وحده، وهو فرد بإسناده، فيحتمل أنه اشتبه على الراوي فيه الشبه بالإذكار والإيناث، وإن كان قد قاله رسول الله، ﷺ: فهو الحق الذي لا شك فيه، ولا ينافي سائر الأحاديث، فإن الشبه من السبق. والإذكار والإيناث: من العلو، وبينهما فرق، وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقات بالمشيئة وحاصلة بالسبب، والله أعلم.

(1)**قال** الله تعالى: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠] فقسم ـ سبحانه ـ حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضًا لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل جبرًا لهن لأجل استقبال الوالدين لمكانهما.

وقيل وهو أحسن إنما قدمهن، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه ـ تعالى ـ قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم ـ مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكّر ـ سبحانه ـ الإناث، وعرَّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم. ثم لما ذكر الصنفين معًا، قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية، الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: «﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ [النحل: ٥٨]، وقال: ﴿**يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ**

(١) ١٠ تحفة المودود.

يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]، وقال: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** [الزخرف: ١٧] ومن ههنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود، فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهوهكذا وضم إصبعيه»**.

وروى عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فشقتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل رسول الله (ﷺ) علي بعد ذلك. فحدثته حديثها، فقال رسول الله (ﷺ): **«من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار»** رواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم عن عروة وهو الصحيح، والحديث في مسند أحمد.

وفيه أيضاً من حديث أيوب بن بشير الأنصاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): **«لا يكون لأحد ثلاث بنات أو بنتان أو أختان، فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة»** ورواه الحميدي عن سفيان عن أبي صالح عن أيوب بن بشير عن سعيد الأعشى عن أبي سعيد عن النبي (ﷺ): **«من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن، واتقى الله فيهن دخل الجنة»**.

وقال محمد بن عبدالله الأنصاري عن ابن جريج، حدثني أبوالزبير عن عمر بن نبهان عن أبي هريرة، أن رسول الله (ﷺ) قال: **«من كانت له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وعلى ضرابهن دخل الجنة»** وفي رواية، فقال يارسول الله واثنتين؟ **قال: «واثنتين»**، قال: يارسول الله وواحدة؟ قال: **«وواحدة»**.

وقال البيهقي ثنا أحمد بن الحسين، ثنا الأصم ثنا الحسن بن مكرم، **ثنا عثمان** بن عمر، أنبأ نهاس عن شداد بن عمار عن عوف بن مالك، أن رسول الله (ﷺ) قال: **«من كان له ثلاث بنات ينفق عليهن حتى يبن أو يمتن، كن له حجاباً**

من النار». وقال علي بن المديني ثنا بريد بن زريع ثنا النهاس بن قهتم ثنا شداد وأبوعمار، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما من عبد يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن، حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجاباً من النار» فقالت امرأة: يارسول الله وابنتان؟ قال: «وابنتان» قال: وقال أبوعمار عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): «وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين في الجنة».

وروى قطر بن خلف عن شرحبيل بن سعد عن ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ: «ما من مسلم يكون له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبهما وصحبتاه إلا أدخلتاه الجنة» وقال عبدالرزاق: أنبأنا معمر عن ابن المنكدر أن النبي عليه السلام قال: «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فكفهن وآواهن وزوجهن دخل الجنة»، قالوا: أو ابنتان؟ قال: «أو ابنتان»، حتى ظننا أنهم لو قالوا: أو واحدة، قال: أو واحدة، هذا مرسل.

وقال عبدالله بن المبارك عن حرملة بن عمران قال: سمعت أبا غشانة قال سمعت عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته، كن له حجابًا من النار» رواه الإمام أحمد في مسنده. وقد قال تعالى في حق النساء: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٩].

وهكذا البنات أيضًا قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة. ويكفى في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده. وقال صالح بن أحمد: كان أحمد إذا ولد له ابنة يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات، ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت. وقال يعقوب بن بختان: ولد لي سبع بنات، فكنت كلما ولد لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لي: ياأبا يوسف! الأنبياء آباء بنات، فكان يذهب قوله همي.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله،

(١) ٢١ إغاثة جـ١.

ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢] أي أومن كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمه الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لا نصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته:ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله ـ تعالى ـ وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدُفِ الظلام.

(١)**الرابع** والأربعون: إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها. وقد أخبر الله أنه قبل الوحي لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[الضحى: ٦-٨]، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى. فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدىٰ بالوحي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبا: ٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الايمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشورىٰ

والحمد لله رب العالمين

(١) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿حمٓ * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جعلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبيًّا لَّعَلكُمْ تَعْقِلُونَ * وإنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف: ١-٤]. قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقرى عندنا. قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء: أصله. والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفوظ﴾[البروج: ٢١-٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب.

وقد دل القرآن على أن الرب ـ تعالى ـ كتب في أم الكتاب ما يفعله، وما يقوله؛ فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فـ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب. وقوله: ﴿لدينا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب أي أنه في الكتاب الذي عندنا. وهذا اختيار ابن عباس.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر: أنه عليّ حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام...

(٢)**قوله:** ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُم الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، على أحد التأويلين أي نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

(٣)**وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ والأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوْا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىَ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف: ١٢-١٤]. كيف نبههم بالسفر الحسي على السفر إليه؟ وجمع لهم بين السفرين.

---

(١) ٤١ شفاء العليل.	(٢)	(٣) ٢٢٧ أعلام جـ١.

كما جمع لهم الزادين في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة: ١٩٧] فجمع لهم بين زاد سفرهم وزاد معادهم؟

وكما جمع بين اللباسين في قوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦]. فذكر سبحانه زينة ظواهرهم وبواطنهم ونبههم بالحسي على المعنوي؛ وفَهْمُ هذا القدر زائدٌ على فَهْم مجرد اللفظ ووضعه في أصل اللسان، والله المستعان، وعليه التُّكْلَان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل(١)

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه ـ سبحانه ـ بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار، ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول ـ على كبر خلقها ـ التي للإنسان ليتم تسخيره إياها؛ فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٣] أي مطيقين ضابطين.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٢].

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلاً منقادًا ولو أرسل عليه لسواه بالأرض، ولفصله عضوا عضوا.

فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو

(١) ٢٢٤ مفتاح جـ١.

كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان، لشغل بذلك عن كثير من الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله، ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله، من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال.

فصل في هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه[1]

كانت أسفاره ﷺ دائرة بين أربعة أسفار: سفرة لهجرته، وسفره للجهاد - وهو أكثرها - وسفره للعمرة، وسفره للحج.

وكان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها سافر بها معه.

ولما حج سافر بهن جميعًا وكان إذا سافر خرج من أول النهار، وكان يستحب الخروج يوم الخميس. ودعا الله - تبارك وتعالى -: «**أن يبارك لأمته في بكورها، وكان إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم من أول النهار**»[2] وأمر المسافرين: «**إذا كانوا ثلاثة: أن يؤمروا أحدهم**[3]» و «نهي أن يسافر الرجل وحده». وأخبر: «**أن الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**»[4]. وذكر عنه، ﷺ، أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت. اللهم اكفني ما أهمني ومالا أهتم له؛ اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت**».

وكان إذا قدمت إليه دابته ليركبها يقول: «**بسم الله**» حين يضع رجله في الركاب، وإذا استوى على ظهرها قال: «**الحمد لله الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون**»، ثم يقول: «**الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله**»،

---

(١) ٢٦٣ زاد المعاد جـ١.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن ولا نعرف لصخر الغامدي عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث.

(٣) رواه أبو داود عن أبي سعيد وأبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود والنسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

ثم يقـول: الله أكـبر، الله أكـبر، الله أكبر، ثم يقول: «**سبحانك، إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

وكان يقول: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هَوِّنْ علينـا سفـرنـا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثَاءِ السفر وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال**». وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «**آيبون تائبون، عابدون، لربنا حامدون**».

وكان هو وأصحابه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا الأودية سبحوا.

وكـان ﷺ إذا أشرف على قرية يريد دخولها. يقول: «**اللهم رَبَّ السموات السبـع ومـا أظللن، ورب الأرضـين السبـع ومـا أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها**».

وذكر عنه أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك من خير هذه القرية وخير ماجمعت فيها؛ وأعوذ بك من شرها وشر ماجمعت فيها، اللهم ارزقنا جَناها وأعذنا من وَباها، وحَبِّبْنَا إلى أهلها، وحبِّبْ صالحي أهلها إلينا**».

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[الزخرف: ١٧-١٨].

احتـج سبحـانـه على هؤلاء الـذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر أحدهم بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتًا، فكيف تجعلونها لي؟! كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ضعف هذا الجنس الذي جعلوه لله، وأنه أنقص الجنسين. ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وهو أضعف الجنسين بيانًا فقال تعالى: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ [الزخرف: ١٨]، فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها. وأنهن عييات فلا يبن حجتهن وقت

(١) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ١.

الخصومة مع أن في قوله: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تعريضًا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن، وتعريضا بأنهن لا يثبتن في الحرب فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز.

[1] . . . **وقد** أنكر الله ـ سبحانه ـ على مَنْ رد النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرى ومن رؤسائها وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

[2] **الثالث**: أن الله ـ سبحانه ـ يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم: أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢] فأنكر عليهم ـ سبحانه ـ تخيرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لاغيره، وهكذا هذه الآية بيَّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤]، أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

[3] فصل

النوع التاسع: تعليله ـ سبحانه ـ عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه. كقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣]. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي

---

(١) ٢٥٩ أعلام جـ٢. (٢) ٧ زاد المعاد جـ١. (٣) ١٩٦ شفاء العليل.

الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[الشورى: ٢٧].

وقوله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٨-٩]. أي آيات الاقتراح لا الآيات الدالة على صدق الرسل التي يقيمها هو سبحانه ابتداء، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨، ٩]، فأخبر- سبحانه - عن المانع الذي منع من إنزال الملك عيانا بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك؛ فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة ولم ينظروا، وأيضًا فإنه جعل الرسول بشراً فيمكنهم التلقى عنه والرجوع إليه، ولو جعله ملكا: فإما أن يدعه على هيئة الملائكة، أو يجعله على هيئة البشر، والأول يمنعهم من التلقي عنه، والثاني لا يحصل مقصودهم إذ كانوا يقولون هو بشر لا ملك. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

فأخبر سبحانه عن المانع من إنزال الملائكة وهو أنه لم يجعل الأرض مسكنًا لهم، ولا يستقرون فيها مطمئنين، بل يكون نزولهم لينفذوا أوامر الرب - سبحانه - ثم يعرجون إليه. ومن هذا قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾.

فأخبر- سبحانه - عن حكمته في الامتناع من إرسال رسله بآيات الاقتراح والتشهي، وهي أنها لا توجب الإيمان فقد سألها الأولون فلما أوتوها كذبوا بها فأهلكوا، فليس لهم مصلحة في الإرسال بها بل حكمته - سبحانه - تأبى ذلك كل الإباء.

ثم نبه على ما أصاب ثمود من ذلك، فإنهم اقترحوا الناقة فلما أعطوا ما سألوا ظلموا ولم يؤمنوا، فكان في إجابتهم إلى ما سألوا هلاكهم واستئصالهم، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩] أى لأجل التخويف فهو منصوب نصب المفعول لأجله. قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذكرون، أو يرجعون. وهذا يعم آياته التي تكون مع الرسل والتي تقع بعدهم في كل

زمان، فإنه ـ سبحانه ـ لا يزال يحدث لعباده من الآيات ما يخوفهم بها ويذكرهم بها.

ومن ذلك قوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧]، أي لا يعلمون حكمته تعالى ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء وليس المراد أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر، فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده ـ سبحانه ـ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

(١)**وربما** اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأن يغتر به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك؛ فهذا من الغرور. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ـ عز وجل ـ يعطي العبد من الدنيا على معاصية ما يحب؛ فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله عز وجل(٢): ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾[الأنعام: ٤٤]، وقال بعض السلف: إذا رأيت الله ـ عز وجل ـ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به.

وقد قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

وقد رد ـ سبحانه ـ على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ**(٣) **عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا**﴾[الفجر: ١٥-١٧]، أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وفي جامع الترمذي عنه، ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**».

---

(١) ٤١ الجواب الكافي. (٢) المبلس الساكت من الخوف والإبلاس الحيرة. والآية من سورة الأنعام.

(٣) قدر مثل قتر لفظًا ومعنى من التقتير وهو التضييق.

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهم لا يعلم.

فائدة جليلة(١)

إذا أصبح العبد وأمسى، وليس همه إلا الله وحده، تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته، بلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال سفيان بن عيينة: «لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن». فقال له قائل: «فأين في القرآن: أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة». فقال في قوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا**﴾ الآية. اهـ.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩] فأخبر ـ سبحانه ـ أن من عشى عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله ﷺ وبارك فيه، فأعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا عقوبة له على إعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه لا في الإقامة ولا في المسير. وهو مولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء

(١) ٨٣ فوائد.
(٢) ١٢٦ الجواب الكافي.

القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: ياليت بين وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين كنت لي في الدنيا. أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني. وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية أخبر الله ـ سبحانه ـ أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمّت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي		على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن		أعزّي النفس عنه بالتأسي
ألا ياصخر لا أنساك حتى		أفارق عيشتي وورود رمسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار، فقال: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٩].

(١)**وقال** ـ سبحانه ـ: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٥، ٣٦].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ [الزخرف: ٣٨] وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم: الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان

---

(١) ٤٤ مفتاح جـ١.

ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر. والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإن الله لايعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقال ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال ـ تعالى ـ في أهل النار: ﴿وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]. وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَافَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ ـ ٥٩] وهذا كثير في القرآن.

(١)**وقال** تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنا أجعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوهم به هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلـه غيره؟ قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم. وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك: وهم أهل الكتاب. وقال ابن الأنباري: التقدير: وسَلْ من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير، فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولاً، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان. فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ماجاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله ـ سبحانه ـ ولم يكن بدعًا من الرسل، ولاجاء بضد ماجاؤوا به، بل أخبر بمثل ماأخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان. وهذه من أعظم آيات صدقه.

(٢)**السلف** هو الذي تقدم. والسالف المتقدم. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦] والعرب تسمي أول الرواحل السالفة. ومنه قول النبي ـ ﷺ ـ: «الْحَقْ بسلفنا الخير»: عثمان بن مظعون، وقول الصديق: لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي وهي العنق.

---

(١) ١١ أحكام أهل الذمة جـ١.	(٢) ٥١٠ زاد المعاد جـ٤.

(١)**فأما** ماتؤثره كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني أدم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًّا وغمًّا، وضعفًا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان عَلَى أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطَر بعضهم من بعض ـ تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزية، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن

---

(١) ٤٥٤ مدارج جـ١.

لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذىً يعقبه عزّ ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين . . . . .

[(١)] **والله** ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاأُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَالاَعَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَأُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَخَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلْهَ مَااطَّلَعْتُمْ**» أي غيرَ ماأطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم، حيث قال: ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يُتَمَتَّعُ بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

[(٢)]. . . **فليتأمل** العاقلُ هذا الموضع، ولْيُنْزِل نفسه منزلة من قد فاته أعظمُ محبوبٍ وأنفعُه، وهو أفقرُ شيءٍ وأحوجُه إليه، فواتًا لا يُرْجىٰ تداركُه، وحصل علَى ضده، فيالها من مصيبة ماأوجعهَا! وحالةٍ ماأفظعهَا! فأين هذه الحال من حالة مَن يلتذ في الدُّنيا بكل مايقصدُ به وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من: الأكل، والشرب، واللباس، والنكاح، وشفآءِ الغيظ بقهر العدو، وجهاد في سبيله؟! فضلاً عما يلتذ به [من] معرفة ربه وحبه له، وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإقبال عليه، وإخلاص العمل له، والرضا به وعنه، والتفويض إليه، وفرح القلب وسروره بقربه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حِبَّان والحاكم: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلىٰ لِقَائِكَ**»، وهذه اللذةُ لاتزال في الدُّنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدوْ الظاهر، فكيف إذا تجرَّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتَّصلت بالرفيق الأعلى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فإذا أفضى إلى دار النعيم، فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور مالاعينٌ رأت، ولاأُذُنٌ سمعت، ولاخطر علَى قلب بشر،

(١) ١٧١ روضة المحبين.
(٢) ١٧٤ روضة المحبين.

فبؤسًا وتَعْسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يَهُزّها الشوقُ إلى ذلك طربًا ولا تتّقدُ نارُ إرادتها لذلك رَغَبًا، ولا تَبعُد عما يَصُدُّ عن ذلك رَهبًا.

(١)الباب التاسع والأربعون

في ذكر آنيتهم التي يأكلون فيها ويشربون وأجناسها وصفاتها

قال ـ تعالى ـ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] فالصحاف: جمع صحفة، قال الكلبي: بقصاع من ذهب، وقال الليث: الصحفة قصعة مسلنطحة عريضة، الجمع صحاف، قال الأعشى:

والمكاكيك والصحاف من الفضـ ـة والضامرات تحت الرجال

وأما الأكواب: فجمع كوب، قال الفراء: الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له، وأنشد لعدى:

متكئًا تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقال أبوعبيد: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها، قال أبوإسحاق: واحدها كوب، وهو إناء مستدير لا عروة له: وقال ابن عباس: هي الأباريق التي ليست لها آذان: وقال مقاتل: هي أوان مستديرة الرأس ليس لها عرى، وقال البخاري في صحيحه: الأكواب الأباريق التي لها خراطيم، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨] الأباريق: هي الأكواب التي لها خراطيم، فإن لم يكن لها خراطيم ولا عرى فهي أكواب.

وإبريق: إفعيل من البريق، وهو الصفاء، فهو الذي يبرق لونه من صفائه، ثم سُمِّيَ كل ما كان على شكله إبريقًا وإن لم يكن صافيًا، وأباريق الجنة من الفضة في صفاء القوارير يُرىٰ من ظاهرها ما في باطنها والعرب تسمى السيف: إبريقًا لبريق لونه، ومنه قول ابن أحمر:

تعلقت إبريقًا وعلقت جفنه ليهلك حيا ذا زهاء وخامل

وفي نوادر اللحياني امرأة إبريق إذا كانت براقة.

(٢)**وقال**: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

---

(١) ١٣٨ حادي الأرواح.

(٢) ١٢٤ حادي الأرواح.

كثيرةٍ وشرابٍ﴾ [ص: ٥٠- ٥١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿يدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] وهذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣] وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣] أي: لاتكون في وقت دون وقت ولاتمنع ممن أرادها، وقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف: جمع قطف وهو مايقطف، والقطف بالفتح الفعل أي: ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها، فيأخذها كيف يشاء.
قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم. وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول مايريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاءوا فهم يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿قطوفها دانية﴾.

[1] قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٢-٢٣] وقال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأكل أهل الجنة، ويشربون، ولايمتخطون، ولا يتغوطون، ولايبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس»** ورواه أيضًا من رواية طلحة بن نافع عن جابر وفيه، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: **«جشاء ورشح: كرشح المسك يلهمون التسبيح والحمد»**.

وفي المسند وسنن النسائي بإسناد صحيح على شرط الصحيح من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: ياأبا القاسم! تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

---
(١) ١٣٤ حادي الأرواح.

«نعم والذي نفس محمد بيده؛ إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال: **«تكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه»** ورواه الحاكم في صحيحه ولفظه: «أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فقال: ياأباالقاسم! ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ - ويقول لأصحابه: إن أقر لي بهذا خصمته - فقال رسول الله ﷺ: **«بلى، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع»** فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسول الله ﷺ: **«حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطن قد ضمر»** وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»** وقد تقدم حديث أنس في قصة عبدالله بن سلام في أول طعام يأكله أهل الجنة وشرابهم على أثره، وحديث أبي سعيد الخدري **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده نزلاً لأهل الجنة»**.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزخرف
والحمد لله رب العالمين

سورة الدخان

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(1) **قال** الله تعالى: ﴿حم * والكتاب المُبين* إنَّا أنزَلناه في ليلةٍ مُباركَةٍ إنا كُنَّا مُنْذرِينَ * فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حَكِيم * أَمْرًا من عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلين﴾ [الدخان: ١-٥] وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزَلناه في لَيْلةِ القَدْرِ﴾ [القدر: ١] .

ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط .

قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم .

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم. وقال ابن علية ثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن و أنا أسمع: أرأيت ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها. **وذكر** يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان .

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى .

وقال مقاتل: يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة .

وقال أبوعبدالرحمن السلمي: يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر. وهذا هو الصحيح أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدراً، فهي ليلة الحكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في الناس. فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدراً وشرفاً مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقد غلط إن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق أي يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم .

(2) **قوله** تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كريمٍ﴾

---

(١) ٢٢ شفاء.

(٢) ٥٩ شفاء.

[الدخان: ٢٥ ، ٢٦] وهم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقة، والخروج فعلهم حقيقة، ولولا إخراجه لما خرجوا.

وهذا بخلاف قوله: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يُعيدكم فيها ويُخرجُكم إخراجاً**﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿**هُوَ الَّذي أخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا من أهل الكتاب مِن دِيَارِهِم لأولِ الحَشْرِ**﴾ [الحشر: ٢]. وقوله: ﴿**أخْرَجَكُم من بُطونِ أمَّهاتِكُم**﴾ [النحل: ٧٨] فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم.

وأما قوله: ﴿**كما أخْرَجَكَ ربُّك من بيتك بالحَقِّ**﴾ [الأنفال: ٥] فيحتمل أن يكون إخراجاً بقدره ومشيئته فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجاً يوجبه بأمره فلا يكون من هذا. فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع، أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته. والثاني إخراجه قهرًا وكرهًا، والثالث إخراجه أمرًا وشرعًا.

(1)**النوع** الحادي عشر إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، كقوله: ﴿**أفَحسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبثًا**﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقوله: ﴿**أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدى**﴾ [القيامة: ٣٦] وقوله: ﴿**وما خَلَقنا السَّمواتِ والأرض وما بينهُما لاعبينَ• مَا خَلقناهما إلا بالحَقِّ**﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة: منها أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته. ومنها أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع. ومنها أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات. ومنها أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر. ومنها أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه. ومنها أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع. ومنها شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها. ومنها ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

---

(١) ١٩٨ شفاء.

ومنها أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به [ومحبته][1] على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولابد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً. ومنها أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم. ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق. فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمن للحق.

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك**﴾.

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: ﴿**وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً ذلك ظَنُّ الَّذين كَفَرُوا**﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له ولا أمر لحكمة ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة؟ وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده؟ بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره؛ فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه؛ فإنهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهي عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهي عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول وإلا فهو جائز عليه. وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور. بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه مما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ولا ينزهونه

(١) كذا بالأصل ولعلها «ومجيئه» (ج).

عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به، كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سمواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات والله ولي التوفيق.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾ [الحجر: ٨٥] وقال الله تعالى: ﴿**وما خَلَقْنا السماءَ والأرضَ وما بَيْنهما باطلاً**﴾ [صۤ: ٢٧] وقال تعالى: ﴿**أَفَحسبتُم أَنَّما خَلَقناكُم عبثاً**﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحق الذي خُلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمالُ محبته والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنَّة والنار. والسمواتُ والأرض إنما قامت بالعدل الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحبُّ الأشياء [إلى الله تعالى] قال الله تعالى: حاكياً عن نبيه هود عليه السلام: ﴿**إنِّي تَوَكَّلتُ على الله ربي وَربّكُم ما مِنْ دابةٍ إلاَّ هو آخذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراطٍ مُستقيمٍ**﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقَدَره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خُلقت السَّمواتُ والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبحَانَكَ**﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمةٍ ولا غايةٍ محمودة. وهو سبحانه يُحمد لهذه الغايات المحمودة كما يُحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها..

(٢)**السياق** يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿**ذُقْ إنك أنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ**﴾ [الدخان: ٤٩] كيف نجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

(٣)**قال** تعالى: ﴿**إن المتقين في مقام أمين• في جنات وعيون• يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين**﴾ [الدخان: ٥١-٥٣].

---

(١) ٦٨ روضة المحبين. (١) ٩ بدائع جـ٤. (٢) ١٤١ حادي الأرواح.

وقال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وَعَملُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجرَ من أَحسَنَ عَملاً* أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تَجْري من تَحْتهمُ الأنهارُ يُحَلَّون فيها مِنْ أساور من ذَهَبٍ ويَلْبَسُون ثياباً خُضْراً من سُنْدُسٍ وإسَتبْرقٍ مُتَّكِئِينَ فيها على الأرائكِ﴾

قال جماعة من المفسرين السندس مارق من الديباج، والإستبرق ماغلظ منه. وقالت طائفة ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

وقال تعالى: ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ [الحج: ٢٣] وههنا مسألة وهذا موضع ذكرها وهي أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**» متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة ويلبس غيره من الملابس.

قالوا وأما قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فيها حَرِير﴾ فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم وقد يتخلف عنه لمانع. وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضاً الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه، فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**».

[1]**الاسم** العاشر المقام الأمين قال تعالى: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾ والمقام موضع الإقامة، والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد.

والبلد الأمين الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إنَّ المتَّقِينَ في مقامٍ أَمِين﴾ [الدخان: ٥١].

---

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

وفي قوله تعالى: **﴿يَدْعُون فيها بِكُلِّ فاكهةٍ آمنين﴾** [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا.

(١)**وأما** قولـه: **﴿لَا يذُوقُون فيها المَوْتَ إلا المَوْتَة الأولى﴾** [الدخان: ٥٦] **فهذا** الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة؛ إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفـراده لكـان أولى بذكـره من العـدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

(٢)**وقـال** تعـالى: **﴿إنَّ المتَّقـين في مَقَام أمين• في جنَّاتٍ وعيُون• يَّلبَسُون من سُنْـدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُّتقابلين• كَذَلك وَزَوَّجْناهُم بحُورٍ عين• يَدعُون فيها بِكُلِّ فاكهـةٍ آمِنِينَ• لا يذوقـون فيهـا المـوتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأولى وَوَقَاهُم ربُّهم عذاب الجحيم﴾** [الدخان: ٥١ ـ ٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار، وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالحـور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً.

والحور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف، وعين حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين.

(٣)**وقوله** تعالى: **﴿وزَوَّجناهُم بِحُورٍ عينٍ﴾** قال أبوعبيدة: جعلناهم أزواجاً كما يزوج النعل بالنعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج قال: والعرب لا تقول تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها. قال ابن نصر: هذا والتنزيل يدل على ما قاله يونس وذلك قوله تعالى: **﴿فلما قضى زيد**

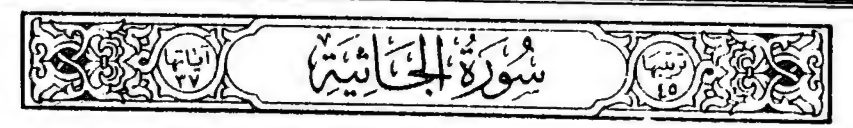
---

(١) ٣١٩ مدارج جـ١. (٢) ١٥٦ حادي الأرواح. (٣) ١٥٧ حادي الأرواح.

منها وطراً زوجناكها﴾ ولو كان على تزوجت بها. لقال زوجناك بها وقال ابن سلام: تميم تقول تزوجت امرأة وتزوجت بها، وحكاه الكسائي أيضاً. وقال الأزهري: تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة، وليس من كلامهم تزوجت بامرأة وقوله تعالى: **﴿وزوجناهم بحور عين﴾** أي قرناهم. وقال الفراء: هي لغة في أزدشنؤة. قال الواحدي: وقول أبي عبيدة في هذا أحسن؛ لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجاً لا بمعنى عقد النكاح. ومن هذا يجوز أن يقال: كان فرداً فزوجته بآخر كمايقال شفعته بآخر، وإنما تمتنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج «قلت» ولا يمتنع أن يراد الأمران معاً فلفظ التزويج يدل على النكاح كما قال مجاهد أنكحناهم الحور، ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا أبلغ من حذفها والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الدخان

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **وأما** قوله: ﴿**لكلِّ أفَّاكٍ أثِيم**﴾ [الجاثية: ٧]. فالإفك هو الكذب وهو في القول، والإثم هو الفجـور وهـو في الفعل. والكذب يدعو إلى الفجور كما في الحديث الصحيح: «**إن الكذب يدعو إلى الفجور وإن الفجور يدعو إلى النار**». فالذي قاله صحيح.

وأما كل معتد أثيم ففيه معنى ثانٍ غير ما ذكره وهو أن العدوان مجاوزة الحد الذي حد للعبد، فهو ظلم في القدر والوصف. وأما الإثم فهو محرم الجنس ومن تعاطى تعدى الحدود تخطى إلى الجنس الآخر وهو الإثم.

ومعنى ثالث: وهو أن المعتدي الظالم لعباد الله عدوانًا عليهم (والأثيم) الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى، لأنه في سياق ذمه والنهي عن طاعته. فمن كان معتديًا على العباد ظالمًا لهم فهو أحرى بأن لا تطيعه وتوافقه.

وفيه معنى رابع: وهو أنه قدمه على الأثيم ليقترن بما قبله وهو وصف المنع للخير فوصفه بأنه لا خير فيه للناس وأنه مع ذلك معتد عليهم، فهو متأخر عن المناع لأنه يمنع خيره أولاً ثم يعتدي عليهم ثانيًا، ولهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة ويكف عنهم الأذى وهذا هو حقيقة التصوف، وهذا لا راحة يوجدها ولا أذى يكفه.

[(٢)] **وقال** تعالى: ﴿**قُل لِلَّذين آمَنُوا يَغفرُوا للذين لا يَرْجُون أيَّام الله**﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

[(٣)] **اعلم** أن ورود [أم] هذه على قسمين، أحدهما: ماتقدمه استفهام صريح بالهمزة: وحكمها ماتقدم وهو الأصل فيها والأخية التي يرجع إليها ماخرج عن ذلك كله.

والثاني ورودها مبتدأة مجردة من استفهام لفظي سابق عليها نحو قوله تعالى: ﴿**أم حَسِبْتَ أن أصحابَ الكَهْف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجبًا**﴾ [الكهف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿**أم يَقُولون شاعرٌ نَترَبَّصُ به ريبَ الْمنُونِ**﴾ [الطور: ٣٠] **وقوله**: ﴿**أم حسبتُم أن تَدْخُلُوا الجنَّة**﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم**﴾ [المؤمنون:

---

(١) ٦٨ بدائع جـ١. (٢) ٥١ مدارج جـ٢. (٣) ٢٠٦ بدائع جـ١.

٦٩] ﴿أم اتَّخَذَ مما يَخْلُقُ بنات﴾ [الزخرف: ١٦] ﴿أم له البَنَاتُ﴾ [الطور: ٣٩] ﴿أم أنا خَيرٌ مِن هذا الذي هوَ مَهينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] ﴿أم أنزلنا عليهم سُلْطانًا﴾ [الروم: ٣٥] وهـو كثير جدًّا تجد فيه أم مبتدءاً بها ليس قبلها استفهام في اللفظ، وليس هذا استفهام استعلام بل تقريع وتوبيخ وإنكار.

وليس بإخبـار فهـو إذًا متضمن لاستفهـام سابق مدلـول عليه بقوة الكلام وسياقه، ودلت أم عليه لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام، كأنه يقول أيقولون صادق أم يقولون شاعر؟ وكذلك: أم يقولون تقوّله أي أتصدقونه أم تقولون تقوّله؟ وكذلك ﴿أَمْ حَسِبْتَ أن أَصْحَابَ الكَهْفِ﴾ أي أبلغك خبرهم أم حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجبًا.

وتأمل كيف تجد هذا المعنى باديًا على صفحات قوله تعالى: ﴿مَالي لا أَرَى الهُدْهُد أم كان مِنَ الغائبين﴾ [النمل: ٢٠] كيف تجد المعنى أحضر أم كان من الغائبين.

وهذا يظهر كل الظهور فيما إذا كان الذي دخلت عليه أم له ضد وقد حصل التردد بينهما فإذا ذكر أحدهما استغني به عن ذكر الآخر لأن الضد يخطر بالقلب وهو عند شعوره بضده.

فإذا قلت مالي لا أرى زيدًا أم هو في الأموات كان المعنى الذي لا معنى للكلام سواه أحي هو أم في الأموات؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿أم أنا خيرٌ مِنْ هذا الذي هو مَهين﴾ معناه أهو خير مني أم أنا خير منه؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿أم حَسِبتُم أن تَدْخُلُوا الجنة ولما يأتِكُم مثل الَّذين خَلَوا من قَبْلِكم﴾ [البقرة: ٢١٤]. هو استفهام إنكار معادل لاستفهام مقدر في قوة الكلام.

فإذا قلت: لِمَ فعلت هذا أم حسبت أن لا أعاقبك كان معناه أحسبت أن أعاقبك فأقدمت على العقوبة أم حسبت أني لا أعاقبك فجهلتها.

وكذلك قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلُوا الجَنَّة ولما يَعْلم الله الذين جاهَدوا مِنْكم﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرطين.

وكذلك إذا قلت أم حسبت أن تنال العلم بغير جد واجتهاد معناه أحسبت أن تناله بالبطالة والهوينا فأنت جاهل أم لم تحسب ذلك فأنت مفرط. وكذلك ﴿أم حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السيِّئاتِ أن نَجْعَلهم كالذين آمنوا وعَمِلوُا الصَّالحات﴾

[الجاثية: ٢١] أي أحسبوا هذا فهم مغترون أم لم يحسبوه فما لهم مقيمون على السيئات. وعلى هذا سائر ما يرد عليك من هذا الباب.

وتأمل كيف يذكر سبحانه القسم الذي يظنونه ويزعمونه فينكره عليهم وأنه مما لا ينبغي أن يكون ويترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردد الكلام بين قسمين فيصرح بإنكار أحدهما وهو الذي سيق لإنكاره ويكتفي منه بذكر الآخر. وهذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن نذكرها في باب الأمثال وغيرها، وهي من باب الاكتفاء عن غير الأهم بذكر الأهم لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحاً والآخر ضمناً. ولذلك أمثلة في القرآن يحذف منها الشيء للعلم بموضعه. فمنها قوله تعالى: ﴿وإذْ قُلْنا﴾ ﴿وإذ نَجَّيْنَاكم﴾ ﴿وإذ فَرَقْنَا﴾ وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر عامل يعمل في إذ، لأن الكلام في سياق تعداد النعم وتكرار الأقاصيص فيشير بالواو العاطفة إليها كأنها مذكورة في اللفظ لعلم المخاطب بالمراد. ولما خفي هذا على بعض ظاهرية النحاة قال: إن الواو زائدة هنا، وليس كذلك.

ومن هذا الباب الواو المتضمنة معنى رُبَّ فإنك تجدها في أول الكلام كثيراً إشارة منهم إلى تعداد المذكور بعدها من فخر أو مدح أو غير ذلك. فهذه كلها معان مضمرة في النفس وهذه الحروف عاطفة عليها. وربما صرحوا بذلك المضمر كقول ابن مسعود: دع ما في نفسك وإن أفتوك عنه وأفتوك.

ومن هذا الباب حذف كثير من الجوابات في القرآن لدلالة الواو عليها لعلم المخاطب أن الواو عاطفة ولا يعطف بها إلا على شيء كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا به وَأَجمعوا أن يَجعلوه في غيابة الجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]. وكقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وَفُتِحَتْ أبْوابها﴾ [الزمر: ٧٣]. وهذا الباب واسع في اللغة. فهذا ما في هذه المسألة. وكان قد وقع لي هذا بعينه أمام المقام بمكة، وكان يجول في نفسي فأضرب عنه صفحًا لأني لم أره في مباحث القوم، ثم رأيته بعد لفاضلين من النحاة. أحدهما حام حوله وما ورد ولا أعرف اسمه. والثاني أبوالقاسم السهيلي ـ رحمه الله ـ فإنه كشفه وصرح به وإذا لاحت الحقائق فكن أسعد الناس بها وإن جفاها الأغمار والله الموفق للصواب.

(١)**وقد** قال تعالى: ﴿أفرأيتَ مَنِ اتخذَ إلههُ هَواه وأَضَلَّه الله على عِلمٍ﴾ [الزخرف:

---

(١) ٤ شفاء.

٢٣] قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه. وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده. وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب. وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه. وقال أبوإسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين. وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره، قال وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبوالفرج بن الجوزي قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية هذا أحدهما[1] قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون ﴿على علم﴾ حال من الفاعل المعني: أضله الله عالمًا بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. وعلى الثاني حال من المفعول، أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى أضله الله عالمًا به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدى لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه وإعطاء الخير من يستحقه ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه.

وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال: **﴿فَمن يُرِدِ الله أن يَهْدِيه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضلَّه يَجْعلْ صَدْرهُ ضَيقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كذلك يجعل الله الرِّجْسَ على الذين لا يُؤْمنونَ﴾** [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: **﴿يُضلُّ به كثيراً ويَهْدي به كثيراً وما يُضلُّ به إلاَّ الفَاسِقِين. الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله من بعد مِيثاقه ويَقطَعُون ما أمر الله به أن يُوصَلَ ويَفسدِون في**

(١) ذكر القول الثاني في ص٣٩ واستطرد هنا في البحث جزاه الله خيرًا. اختصرناه فمن أراده فليرجع إليه (ج).

الأرض أولئك هُمُ الخاسِرون﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿والله لا يهدي القَوْم الظَّالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿والله لا يهدي القومَ الفَاسِقِينْ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿إن الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كفارٌ﴾ [الزمر: ٣٩] ﴿ويضلُّ الله الظَّالمينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿كذلك يُضلُّ الله مَنْ هُو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] ﴿كذلك يَطْبَع الله على كُلِّ قَلْبِ مُتكبرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ﴿كذلك يَطْبعُ الله على قلوبِ الذِّين لَا يَعْلمُونَ﴾ [الروم: ٥٩]

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبة لأرباب هذه الجرائم وهذا إضلال ثان بعد الإضلال الأول.

كما قال تعالى: ﴿وقولهم قُلوبُنا غُلفٌ بل طَبَعَ الله عَليها بكُفْرهم فلا يُؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿وما يُشْعركم أنها إذا جاَءتْ لا يُؤمنون * وَنُقَلِّبُ أَفْئدتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أَوَّل مرَّة وَنَذَرهم في طُغْيانِهم يَعْمهُون﴾

[1]وفي قوله تعالى: ﴿وأَضَلهُ الله على علمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] قول آخر أنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة لم يضله على جهل وعدم علم هذا يشبه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلوُا لله أَنْداداً وأنتمُ تَعلمون﴾ [البقرة: ٢٢] وقوله: ﴿فَصَدهم عن السبيل وكانُوا مُسْتَبْصِرين﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بها وَاسْتَيْقَنَتْها أنفُسهم﴾ [النمل: ١٤] وقوله: ﴿وآتينا ثمودَ النَّاقةَ مُبْصِرَةً فَظَلموا بها﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقول موسى لفرعون: ﴿لقد عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إلا ربُّ السَّمواتِ والأرض بَصَائِر﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿الَّذين آتيناهُمُ الكتَاب يَعْرِفُونَه كما يعرفُون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليَكْتُمون الحقَّ وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله: ﴿فإنهم لا يُكَذِّبُونَك ولكن الظَّالمين بآياتِ الله يَجحَدُون﴾ [الأنعام: ٣٣]. وقوله: ﴿وما كان الله لِيُضِلَّ قومًا بعدَ إذْ هَداهم حتى يُبين لهم مَا يَتَّقون﴾ [التوبة: ١١٥]. ونظائره كثيرة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عيانا كما في الحديث: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعًا لهواه عالمًا بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل.

(١) ٣٩ شفاء.

ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان: الجهل، وترك العمل به.

فالأول ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل. فقد وقع قوله ﴿على علم﴾ في قوله تعالى: ﴿ولقد اخترْنَاهم على عِلمٍ﴾ [الدخان: ٣٢] وفي قوله: ﴿وأضَلَّه الله علىٰ عِلم﴾ [الجاثية: ٢٣] وفي قولـه: ﴿قـال إنـما أُوتيتُهُ على علمٍ﴾

فالأول يرجع العلم فيه إلى الله قولاً واحدًا. والثاني والثالث فيهما قولان، والراجح في قوله ﴿وأضله الله على علم﴾ أن يكون كالأول وهو قول عامة السلف، والثالث فيه قولان محتملان وقد ذكر توجيههما والله أعلم. والمقصود ذكر مراتب القضاء والقدر علمًا وكتابة ومشيئة وخلقًا.

(١)**وأما** الغشاوة فهو غطاء العين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلى بَصَرِه غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديدًا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول. وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى.

(٢)**وهؤلاء** قوم عطَّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ماحكاه الله عنهم: ﴿وقالوا مَا هِىَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنحيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقتان. فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك مُتحرِّكة أعظم حركة دارت عليه فَأحرقتهُ، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها. وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة. . .

(٣)**وقال** طاوس: أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلا: إن قضى، إن قدر. وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنَّا كنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ [الجاثية: ٢٩] قال: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة. قال:

---

(١) ٩٦ شفاء.　(٢) ٢٥٥ إغاثة جـ٢.　(٣) ٦٦ طريق الهجرتين.

والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يومًا بيوم فذلك قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه. وقد يقال وهو الأظهر: إن الآية تعم الأمرين، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بني آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها.

(١)**وقد** قال تعالى: ﴿إنَّا كنَّا نَستنسخُ ما كنتم تعلمون﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ فتستنسخ الملائكة ما يكون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه، فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو.

وذكر ابن مردويه في تفسير من طرق إلى بقية عن أرطاة بن المنذر عن مجاهد عن ابن عمر يرفعه: «أن أول ماخلق الله القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا ومايكون فيها من عمل معمول من بر أو فجور رطب أو يابس فأحصاه عند الذكر» وقال اقرؤا إن شئتم ﴿هَـذا كتـابُنا يَنْطِقُ عليكم بالحق إنا كنا نَسْتَنسخُ ماكنتم تعملون﴾. فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه. وقال آدم ثنا ورقاء عن عطاء بن السائب عن مقسم عن ابن عبـاس ﴿إنـا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون﴾ قال: تستنسخ الحفظة من أم الكتاب مايعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على مااستنسخ الملك من أم الكتاب.

وفي تفسير الأشجع عن سفيان عن منصور عن مقسم عن ابن عباس قال: كتب في الذكر عنـده كل شيء هو كائن ثم بعث الحفظة على آدم وذريته، وكل ملائكته ينسخون من الذكر مايعمل العباد ثم قرأ: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون﴾.

وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات تنزل من السماء كل غداة وعشية ما يصيب الإنسان في ذلك اليوم أو الليلة، الذي يقتل، والذي يغرق، والذي يقع من فوق بيت، والذي يتردى من جبل، والذي يقع، والذي يحرق بالنار، فيحفظوا عليه ذلك كله. وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء فيجدونه كما في السماء مكتوبًا في الذكر الحكيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجاثية

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٤ شفاء.

سورة الأحقاف

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**قوله تعالى**: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَـٰوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الاحقاف: ٤] فطالبهم بالدليل السمعي والعقلي.

[2]**قال** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاحقاف: ١٣، ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان. وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة ـ أبوبكر الصديق رضي الله عنه ـ عن الاستقامة؟ فقال: «**أن لا تشرك بالله شيئاً**» يريد الاستقامة على محض التوحيد[3].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «**الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي. ولا تروغ روغان الثعالب**». وقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: «**استقاموا: أخلصوا العمل لله**». وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**استقاموا أدوا الفرائض**». وقال الحسن: «**استقاموا**

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ١٠٣ مدارج جـ٢.

(٣) ومن استقام على محض التوحيد الصادق الذين يدين به الصديق. واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها في الأنفس والآفاق: استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته». وقال مجاهد: **«استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله»**. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يَسْرة. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: «يارسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: **«قل آمنت بالله. ثم استقم»**. وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«استقيموا** ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»**. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**. فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة. وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يعجب به. ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله. قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة. لا طالب الكرامة. فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة. وربك يطالبك بالاستقامة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله تعالى روحه ـ يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

(1)**قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾** [الأحقاف: ١٥] فأخبر ـ تعالى ـ أن مدة الحمل

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

والفطام ثلاثون شهراً، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع حولين كاملين، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

فذكر البيهقي وغيره عن حرب بن أبي الأسود الرملي [الديلمي] أن عمر أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهَمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا ـ رضي الله عنه ـ، فقال: ليس عليها رجم، فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه فسأله؟ فقال: ـ ﴿والوالداتُ يُرضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَينِ أَرادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعَة﴾ وقال: ﴿وحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾، فستة أشهر حمله، وحولين تمام الرضاعة؛ لا حدّ عليها. فخلى عنها.

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ وقال: ﴿وفصاله في عامين﴾، فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت. وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهراً، كما قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ انتهى كلامه.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه: كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصاناً من الولد وما تزداد، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها. وقال أيضاً الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد، وعلى التسعة أشهر وهو تمام النقصان. وقال الحسن: ما تغيض الأرحام ما كان من سقط، وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر. وقال عكرمة تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل،

فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً، فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً. وقال قتادة: الغيض: السقط وما تزداد فوق التسعة أشهر. وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو عائد على ما الموصولة. والغيض: النقصان، ومنه وغيض الماء، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ـ عليه السلام ـ: «**مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى مجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله**».

فهو ـ سبحانه ـ المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه: كالسقط، والتام، ورؤية الدم وانقطاعه. والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان.

فصل

وأما أقصاها فقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في ذلك؛ فقالت طائفة: أقصى مدته سنتان، وروي هذا القول عن عائشة. وروي عن الضحاك وهرم بن حيان: أن كل واحد منهما أقام في بطن أمه سنتين وهذا قول سفيان الثوري. وفيه قول ثان: وهو أن مدة الحمل قد تكون ثلاث سنين، روينا عن الليث بن سعد أنه قال: حملت مولاة لعمر بن عبدالله ثلاث سنين. وفيه قول ثالث: أن أقصى مدته أربع سنين، هكذا قال الشافعي.

قلت: وعن الإمام أحمد روايتان: أنه أربع سنين، والثانية سنتان، **قال**: واختلف فيه عن مالك، فالمشهور عنه عند أصحابه مثل ما قال الشافعي، وحكى ابن الماجشون عنه ذلك ثم رجع لما بلغه قصة المرأة التي وضعت لخمس سنين.

وفيه قول آخر [هو: قول رابع]: إن مدة الحمل قد تكون خمس سنين. حكي عن عباد بن العوام أنه قال: ولدت امرأة معنا في الدار لخمس سنين، قال: فولدته وشعره يضرب إلى ههنا، وأشار إلى العنق. قال: ومر به طير فقال: هش. وقد حكي عن ابن عجلان، أن امرأته كانت تحمل خمس سنين: وفيه قول خامس - قاله الزهري: إن المرأة تحمل ست سنين وسبع سنين، فيكون ولدها مخشوشاً في بطنها، قال: وقد أُتي سعيد بن عبدالملك بامرأة حملت سبع سنين.

وقالت فرقة: لا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي، لأنا وجدنا لأدنى الحمل أصلاً في تأويل الكتاب وهو الأشهر الستة، فنحن نقول بهذا ونتبعه ولم نجد لآخره وقتاً. وهذا قول أبي عبيد، ورفع بهذا حديث عائشة، وقال: المرأة التي روته عنها مجهولة، وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم: أن المرأة إذا جاءت بولد لأقل[1] من ستة أشهر من يوم نكحها فالولد له.

[2]**والمقصود** تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده.

وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تَلِدُ لستة أشهر.

وكما فهم الصديقُ من آية الفرائض في أول السورة وآخرها أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد، وقد أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم حيث سأله عن الكلالة وراجعه السؤال فيها مرارًا، فقال: يكفيك آية الصيف. . . .

[3]**وهذا** وأمثاله يدل على أن الطبيعة التي هي منتهى سير الطبائعين، لها رب

(١) كذا بالأصل ولعله [لأكثر] من ستة أشهر (ج). (٢) ٣٥٤ أعلام جـ١.
(٣) ١٦٢ تحفة المودود.

قاهر قادر، يتصرف فيها بمشيئته، وينوع فيها خلقه كما يشاء، ليدل من له عقل على وجوده ووحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، وإلا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا الاختلاف العظيم والتباين الشديد، ومن أين في الطبيعة خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى: كآدم ـ عليه السلام ـ الثاني: من ذكر بلا أنثى: كحواء ـ عليها السلام ـ الثالث: من أنثى بلا ذكر: كالمسيح ـ عليه السلام ـ الرابع: من ذكر وأنثى: كسائر النوع، ومن أين في الطبيعة والقوة هذا التركيب والتقدير والتشكيل، وهذه الأعضاء والرباطات والقوى والمنافذ والعجائب التي ركبت في هذه النطفة المهينة، لولا بدائع صنع الله ما وجدت تلك العجائب في مستقذر الماء، ﴿يَاأَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * في أيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

لقد دل ـ سبحانه ـ على نفسه، أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه من: حاله، وحدوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه.

ولقد دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلى النظر في مبدأ خلقه وتمامه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ من مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧] وقال: ﴿يَآأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] وهذا في القرآن كثير لمن تدبره وعقله، وهو شاهد منك عليك، فمن أين للطبيعة والقوة المحصورة هذا الخلق، والإتقان والإبداع، وتفصيل تلك العظام، وشد بعضها ببعض على اختلاف أشكالها ومقاديرها ومنافعها وصفاتها، ومن جعل في النطفة تلك العروق واللحم والعصب، ومن فتح لها تلك الأبواب

والمنافذ، ومن شق سمعها وبصرها، ومن ركب فيها لساناً تنطق به، وعينين تبصر بهما، وأذنين تسمع بهما، وشفتين، ومن أودع فيها الصدر وما حواه من المنافع والآلات التي لو شاهدتها لرأيت العجائب.

ومن جعل هناك حوضاً وخزانة يجتمع فيها الطعام والشراب، وساق إليه مجاري وطرقاً ينفذ فيها، فيسقي جميع أجزاء البدن كل جزء يشرب من مجراه الذي يختص به لا يتعداه ـ قد علم كل أناس مشربهم ـ ومن أخدمها تلك القوى التي بها تمت مصالحها ومنافعها، ومن أودع فيها العلوم الدقيقة والصنائع العجيبة وعلمها ما لم تكن تعلم، وألهمها فجورها وتقواها، ونقلها في أطوار التخليق طوراً بعد طور، وطبقاً بعد طبق إلى أن صارت شخصاً حيًّا ناطقاً سميعاً بصيراً، عالماً متكلماً آمراً ناهياً، مسلطاً على طير السماء وحيتان الماء ووحوش الفلوات، عالماً بما لا يعلمه غيره من المخلوقات، ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فصل

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨] واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئاً ولا يسمع صوتاً، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة. وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية. لأن الواو لا ترتيب فيها بل الآية حجة عليه . . . .

[1]**قال** الزجاج: الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه، الأشد: الحلم، وهو اختيار يحيى بن يعمر والسدي، وروى مجاهد عنه: ثلاثًا وثلاثين سنة، وروي عنه أيضاً ثلاثين، وقال الضحاك: عشرين سنة، وقال مقاتل: ثمان عشرة. وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظ، فقال: بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة، قال: فبلوغ الأشد محصور. الأول محصور النهاية غير محصور ما بين ذلك، فبلوغ الأشد مرتبة

(١) ١٨٢ تحفة المودود.

بين البلوغ وبين الأربعين، ومعنى اللفظة من الشدة: وهي القوة والجلادة، والشديد: الرجل القوي، فالأشد: القوي، قال الفراء: واحدها شدة في القياس، ولم أسمع لها

القوي، فالأشد: القوي، قال الفراء: واحدها شدة في القياس، ولم أسمع لها

بواحـد. وقال أبو الهيثم: واحدها شدة كنعمة وأنعم، وقال بعض أهل اللغة: واحدها شدة بضم الشين، وقال آخرون منهم: هو اسم مفرد ـ كالآنك، وليس بجمع ـ حكاها ابن الأنباري.

فصـــل

ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج.

كما أخذ في زيادتها على التدرج، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الله[1] الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بعدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ من بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. فقوته بين ضعفين وحياته بين موتين، فهو: أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم جنيناً مادام في البطن، فإذا خرج فهو: وليد، فما لم يستتم سبعة أيام، فهو: صديغ ـ بالغين المعجمة لأنه لم يشتد صدغه، ثم مادام يرضع فهو: رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو: فطيم، فإذا دب ودرج فهو: دارج، قال الراجز:

أم صبي قد حبا أو دارج.

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار، فهو: خماسي، فإذا سقطت أسنانه، فهو: مثغور ـ وقد ثغر، فإذا أنبتت بعد سقوطها، فهو: مثغر، بوزن مذكر بالتاء والثاء معاً، فإذا بلغ السبع وما قاربها، فهو: مميز، فإذا بلغ العشر، فهو: مترعرع وناشىء، فإذا قارب الحلم، فهـو: يافـع، ومراهق ونهام للغلمة، فإذا بلغ، فهو: بالغ، فإذا اجتمعت قوته، فهو: حزوَّر، واسمه في جميع ذلك غلام ـ ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع، فهو: باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته: فتى، وشارخ بحصول شرخ الشباب له.

[2]وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ والإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] الآية. فأخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل

---

(١) في المطبوعة «هو» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٤١٩ طريق الهجرتين.

التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] أي في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر.

(١) **قال** تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل أن يترك بعض طيباته للآخرة. وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا. ومنها علمه بأن أعماله هي زاده. ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه في قبره، وأنيسه فيه، وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها.

وأعمال الفجور تهوى به وتجذبه إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث يستقر به.

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم، بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله ـ سبحانه ـ فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه ـ تعالى ـ وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

(١) ٢٧٣ طريق الهجرتين.

ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهبًا للصوص وقطاع الطريق.

فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة، إلى خربة موحشة هي مأوى اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟

ومنها أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحق بركته. وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته. وفي بعض الآثار، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: «**من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟! ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟!**».

(١)... **قالوا:** وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين؛ إذ لو جاز الفرقُ لما كان هذا المعينُ دليلاً على الأمر العام المشترك بين الأفراد، ومن أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رُسُله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على مَنْ سَلكَ سبيلهم واتصف بصفتهم، وهو ـ سبحانه ـ قد نبَّه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذِّبة لرسُلهم وما حل بهم ﴿**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**﴾ [القمر:٤٣]. فهذا محض تعدية الحكم إلى مَنْ عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية، ولا تمت الحجة.

ومثل هذا قوله ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبة قوم عادٍ حين رأوا العارض في السماء، فقالوا: ﴿**هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا**﴾ فقال ـ تعالى ـ: ﴿**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ • تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

ثم قال: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ**[٢] **سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الأحقاف:٢٦] فتأمل قوله:

---

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

(٢) في المطبوعة «لكم» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَاكُمْ فِيهِ﴾ كيف تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم، وإنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رُسُلنا ولم يدفع عنهم ما مُكّنوا فيه من أسباب العيش فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين، وأن هذا محضُ عدلِ الله بين عباده.

(١) **فقال** ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم. . .

(٢) فصل

فلما نقضت الصحيفة: وافق موتُ أبي طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله، ﷺ، من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى، فخرج رسول الله، ﷺ، إلى الطائف، رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم. ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فلم يرَ مَنْ يؤوى، ولم ير ناصراً، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلدنا. وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سماطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة. حتى دُمِيَت قدماه. وزيد بن حارثة يقيه بنفسه. حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً.

وفي مرجعه ذلك: دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت رَبُّ المستضعفين، وأنت ربي: إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني؟ أم إلى عَدُوٍّ ملكته**

(١) ٩٢ مختصر الصواعق جـ١.   (٢) ١٢٣ زاد المعاد جـ٢.

أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلَح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يُحَلّ عليَّ غضبك، أو أن ينزل بي سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يُطبق الأخشبين على أهل مكة - وهما جبلاها اللذان هي بينهما - فقال: **«لا، بل أَسْتأني بهم، لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا»** فلما نزل بنخلة في مرجعه قام يصلي من الليل. فصُرِف إليه نَفَرٌ من الجن، فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه: **﴿وإِذْ صرَفْنَا إليك نفرًا من الجنِّ يستَمِعُون القرآن فَلَمَّا حَضرُوه قالوا أنْصِتُوا فَلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَومِهم مُنذرين * قالوا يَاقَوْمَنا إنا سَمِعْنَا كِتابًا أُنزلَ من بعدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بين يديه يَهْدِي إلى الحقِّ وإلى طَريقٍ مُسْتَقِيم * ياقومنا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وآمنوا بِهِ يَغْفِرْ لكُم مِن ذُنوبكم ويُجِرْكُم من عذابٍ أَليم * ومن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فليسَ بمعجزٍ في الأرْضِ وليسَ لَهُ من دونه أوليَـآءُ أُولئك فِي ضَلَالٍ مُّبينٍ﴾** [الأحقاف: ٢٩-٣٢]. وأقام بنخلة أيامًا. فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم، وقد أخرجوك - يعني قريشًا - فقال: **«يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا. وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه»** ثم انتهى إلى مكة. فأرسل رجلًا من خُزاعة إلى مُطْعم بن عدى: **«أدخل في جوارك؟»** فقال: نعم، ودعا نبيه وقومَه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا. فدخل رسول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام المطعم بن عدى على راحلته، فنادى: يامعشر قريش، إني قد أَجَرْتُ محمدًا، فلا يَهجْه أحد منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده مُحْدِقون به بالسلاح، حتى دخل بيته.

(1)**وقال** تعالى: **﴿وَإِذْ صرَفْنا إِلَيْكَ نفرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حضرُوهُ قَالوا أَنْصِتُوا﴾** - إلى قوله -: **﴿أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** [الأحقاف: ٢٩-٣٠] **فهذا** يدل على تكليفهم من وجوه متعددة: (أحدها) أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى

---

(١) ٤٢١ طريق الهجرتين.

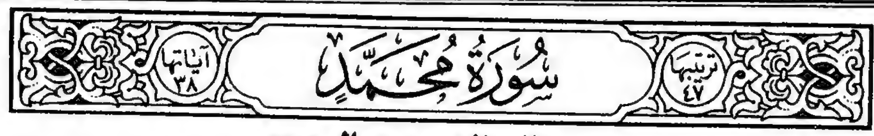
رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه. (الثاني) أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول. (الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال مافيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة. (الرابع) أنهم قالوا لقومهم: ﴿ياقَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر. (الخامس) أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر. (السادس) أنهم قالوا: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والذنب مخالفة الأمر. (السابع) أنهم قالوا: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم. (الثامن) أنهم قالوا: ﴿وَمَن لايُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِه أَوْلِياء﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه.

ولكن قوله تعالى: ﴿يامَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضًا. وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحقاف

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)...**تسميته** ﷺ بهذا الاسم(٢) لما اشتمل عليه من مسماه، وهو الحمد. فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته. ومحمود عند إخوانه من المرسلين. ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً وعناداً وجهلاً باتصافه بها ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له.

وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره فإن اسمه: محمد، وأحمد، وأمته الحمادون يحمدون الله في السراء والضراء. وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد. وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ: أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة.

ولما يسجد بين يدي ربه - عز وجل - للشفاعة، ويؤذن له فيها يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ الليلِ فَتهجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف على معنى المقام المحمود فليقف على ما ذكره سلف الأمة من الصحابة والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف. وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم أولهم وآخرهم.

وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدى والإيمان والعلم النافع. والعمل الصالح، وفتح به القلوب وكشف به الظلمة عن أهل الأرض واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به حتى نال أتباعه شرف الدنيا

---
(١) ٩٦ جلاء الأفهام.		(٢) أي النبي محمد ﷺ.

والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها فإنهم كانوا بين: عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باءوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًا يعبده ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضاً من استحسن شيئاً دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة.

وقد نظر الله ـ سبحانه ـ إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا على آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة. وكثّر بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عميا وآذاناً صمًا وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه حتى تجلت معرفته ـ سبحانه ـ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

روى أبوداود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: **«كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً، غير كتابهم أنزل على غير نبيهم»** فأنزل الله ـ عز وجل ـ تصديق ذلك: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: **«ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه»** قال أبوذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرلنامنه

علماً». وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته. أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة. وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عُجِّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها. وأما الأمم النائية عنه فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض؛ فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم، وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «**محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا: لا إله إلا الله**».

وأرحم الخلق، وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيراً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً على نفسه. وأشد الخلق ذبًّا عن أصحابه، وحماية لهم، ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحق بقول القائل:

برد على الأدنى ومرحمة وعلى الأعادي مازن جلد

(١)قال تعالى: ﴿والَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بَالَهُمْ * ويُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾(٢) [محمد: ٤-٦] قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم». وقال محمد بن كعب: يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة. هذا قول جمهور المفسرين وتلخيص أقوالهم ما قاله أبوعبيدة: عرفها لهم أي: بيّنها لهم، حتى عرفوها من غير استدلال. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الموكل بحفظ بني آدم يمشي في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة فإذا دخل إلى منزله وأزواجه انصرف الملك عنه. وقال سلمة بن كهيل: طرقها لهم. ومعنى هذا أنه طرقها لهم، حتى يهتدوا إليها. وقال الحسن: وصف الله الجنة في الدنيا لهم فإذا دخلوها عرفوها بصفتها. وعلى هذا القول فالتعريف وقع في الدنيا، ويكون المعنى يدخلهم الجنة التي عرفها لهم. وعلى القول الأول يكون التعريف واقعاً في الآخرة، هذا كله إذا قيل: إنه من التعريف. وفيها قول آخر: إنه من العرف، وهو الرائحة الطيبة، وهذا اختيار الزجاج أي: طيبها، ومنه طعام معرف، أي مطيب. وقيل: هو من العرف، وهو التتابع. أي: تابع لهم طيباتها وملاذها.

والقول هو الأول، وأنه ـ سبحانه ـ أعلمها وبينها بما يعلم به كل أحد منزله

(١) ١٠٥ حادي الأرواح.

(٢) تقدم في سورة النساء بحثًا على هذه الآية رقم (٩٨) يحسن الرجوع إليه لمن أراده (ج).

وداره فلا يتعداه إلى غيره. وفي صحيح البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا**».

وفي مسند آخر من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة**».

(١)**وقال** عبدالله بن بريدة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا**﴾ [محمد: ١٦] قال: هو عبدالله بن مسعود.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾ [محمد: ١٠].

فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله. وكذلك كل موضع أمر الله ـ سبحانه ـ فيه بالسَّير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدوابِّ، أو السير المعنوي بالتفكر والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدلُّ على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر ـ سبحانه ـ أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظيرِهِ حتى تَعْبُرَ العقولُ منه إليه لما حصل الاعتبار. وقد نفى الله ـ سبحانه ـ عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفِطَر والعقول، لا تليق نسبته إليه ـ سبحانه ـ. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: ٢١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص: ٢٨] **أفلا تَراه كيف ذَكَّرَ العقول ونَبَّه الفِطَر بما أودع**

---

(١) ١٧ أعلام جـ١.　(٢) ١٣٢ أعلام جـ١.

فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم؟

وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه وجَعَله قَرينه ووزيره فقال ـ تعالى ـ: **﴿الله الَّذي أنزلَ الكِتَابَ بالحَقِّ والمِيزَانَ﴾** [الشورى: ١٧] وقال: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾** [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: **﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ﴾** [الرحمن: ١، ٢]. فهذا الكتاب، ثم قال: **﴿والسَّماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ﴾** [الرحمن: ٧] والميزان يُراد به العدلُ والآلة التي يُعرفُ بها العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان؛ فالأولى تسميته بالاسم الذي سمَّاه الله به، فإنه يدل على العدل، وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان. بخلاف اسم القياس، فإنه ينقسم إلى حق وباطل، وممدوح ومذموم، ولهذا لم يجيء في القرآن مَدْحُه ولا ذَمُّه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد. والصحيح هو الميزان الذي أنزله مع كتابه. والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسُوا البيع على الربا بجامعٍ ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية، وقياس الذين قاسوا الميتةَ على المذكّى في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح هذا بسببٍ من الآدميين وهذا بفعل الله؛ ولهذا تجد في كلام السلف ذمَّ القياس وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به، وهذا حق وهذا حق، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

(١)**قوله** **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾** [محمد: ٢٢] وقوله: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ والإنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٩] وقوله: **﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾** [فصلت: ٤٤]

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم، فلا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً. وقال مجاهد: بعيد من قلوبهم. وقال الفراء: تقول للرجل

(١) ٩٦ شفاء.

الذي لا يفهم كذلك أنت تنادى من مكان بعيد، قال: وجاء في التفسير: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون. انتهى. والمعنى: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

فصل[1]

وأما القفل، فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال، وقال مقاتل: يعني الطبع على القلب، وكأن القلب منزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن.

وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. وفي قوله: أقفالها بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها: ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.

[2]**وروي** عن عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال: بلى والله يارسول الله! إن عليها لأقفالها، ولا يفتحها إلا الذي أقفلها. فلما ولِيَ عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال: لم يقل ذلك إلا من عقل.

[3]...**وإلى** هذين الأصلين ندب عباده في القرآن فقال في الأصل الأول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال في الأصل الثاني: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

---

(١) ٩٥ شفاء. (٢) ٦٦ طريق الهجرتين. (٣) ١٨٦ مفتاح جـ١.

[يونس: ١٠١] ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] ﴿إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ[١] فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٢] وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥] ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

فصل[٣]

ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.

فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه.

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره؛ وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل. فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

[٤]﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

---

(١) في المطبوعة «من ماء» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف المراجع.

(٢) في المطبوعة ﴿بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح﴾الآيات. والصواب حذف ذلك لأن هذا في آية (١٦٤) من سورة البقرة وهذه الآيات من سورة الجاثية. المراجع.

(٣) ١٧٦ فوائد.　　(٤) ٨٠ التبيان.

ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز ـ وجل ـ: ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]..

(١)**وقال** بعض السَّلَف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمرَ الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمرَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به من لا أصدقُ منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك تركه عَلَى ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله، المعرِضِ عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لكفى بذلك عقوبة. وقد روى عبدالعزيز بن أبي روَّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد» قيل: يارسول الله فما جلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن» وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه...

(٢)**وقال** خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان [في وجهه يبصر بهما أمرَ الدُّنيا، وعينان] في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد [الله] به غير ذلك تركه على ما [هو] فيه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

(٣)**ومما** ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل ذلك الختم والطبع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل

---

(١) ١٨٢ روضة المحبين.   (٢) ٤٢٤ روضة المحبين.   (٣) ٩٠ شفاء.

قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان. وقرأ قارىء عند عمر بن الخطاب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيراً. وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ماتشاء وتثبت، فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخل تحت فعله إذا لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه.

والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدّر قدراً أو علم شيئاً فإنه لا يغيره بعد هذا ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلاً وجميع خلقه تحت حجره شرعاً وقدراً. وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطبع وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له، ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية. والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملائمته لنفسه.

فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه: منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه

وهداه. بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه: مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه لكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فصل

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم. قيل هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله ـ سبحانه ـ خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب ـ سبحانه ـ بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه ـ سبحانه ـ والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧] ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا، بهذا النوع من العقوبة العاجلة.

كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

(١) **ومن** منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الفراسة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وقال مجاهد ـ رحمه الله ـ: المتفرسين، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال ـ تعالى ـ في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه. و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

**وحديث ألذه. وهو مما		يشتهي السامعون يوزن وزناً**
**منطق صائب. وتلحن أحيا		ناً. وخير الحديث ما كان لحناً**

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه ـ سبحانه ـ أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: النظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله». ثم تلا قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾» [الحجر: ٧٥].

(٢) **وكما** أن الذلة مضروبة على من خالف أمره: فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢.		(٢) زاد المعاد جـ.

[آل عمران: ١٣٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾[1]...

وقد وقع الإخبار عن قدرته عليه ـ سبحانه ـ على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم. فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق. فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك. وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُم تَبْدِيلاً﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلا منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة محمد

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٢٢ التبيان.

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

...[١]ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه ﴿**إنّا فَتحنا لكَ فَتْحاً مُبيناً * لِيَغْفِر لَكَ الله ما تقدَّم مِنْ ذنبكَ وَمَا تَأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكَ وَيَهدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ الله نَصْرًا عَزيزًا**﴾ [الفتح ١-٣]. فقال عمر: أو فتح هو، يارسول الله؟ قال: نعم. فقال الصحابة: هنيئاً لك يارسول الله فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿**هو الذي أَنْزَلَ السَّكينة في قُلُوبِ المُؤمنينَ**﴾ [الفتح :٤]. ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ مسلماً. فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهدَ الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة. فنزلوا يأكلون من تَمْرٍ لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيدًا. فاستله الآخر. فقال: أجل والله يافلان إنه لجيد. لقد جَرَّبت به، ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَدَ، وفَرَّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد. فقال رسول الله، ﷺ، حين رآه ـ «**لقد رأى هذا ذُعراً**» فلما انتهى إلى النبي، ﷺ، قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يانبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددْتَني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبي، ﷺ: «**ويلُ أُمِّهِ مُسْعِرُ حَرْبٍ، لو كان له أحد**» فلما سمع ذلك عرفَ: أنه سَيَرُدُّهُ إليهم. فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، وينفلت منهم أبو جَنْدل بن سُهيل، فلحق بأبي بصير. فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي، ﷺ: تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿**وَهُوَ الذي كفَّ أيدِيَهُم عَنْكم وَأَيْدِيكُم عنهم بِبَطْنِ مكةَ من بعدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عليهم ـ حتى بلغ ـ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية**﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]. وكانت حميتهم: أنهم لم يقروا أنه نبي، ولم يقروا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[٢].

---

(١) ٣٠٨ الزاد جـ٢. (٢) متفق عليه من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه.

قلت: في الصحيح «أن النبي ﷺ توضأ ومَجَّ في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء» كذلك قال البراء بن عازب، وسلمة بن الأكوع في الصحيحين.

وقال عروة عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمة «إنه غَرَز فيها سَهْمًا من كنانته» وهو في الصحيحين أيضًا. وفي مغازي أبي الأسود عن عروة «توضأ في الدَّلْو ومضمض فاه. ثم مَجَّ فيه، وأمر أن يُصَبَّ في البئر، ونزع سهمًا من كنانته وألقاه في البئر. ودعا الله تعالى. ففارت بالماء، حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفيرها» فجمع بين الأمرين. وهذا أشبه. والله أعلم.

وفي صحيح البخاري عن جابر قال «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ، بين يديه رِكْوة يتوضأ منها، إذ جَهِشَ الناس[1] نحوه. فقال: مالكم؟ قالوا: يارسول الله، ما عندنا ماء نشرب، ولا ماء نتوضأ، إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون. فشربوا وتوضؤوا. وكانوا خمس عشرة مائة». وهذا غير قصة البئر.

وفي هذه الغزوة: أصابهم ليلة مطر، فلما صلى النبي ﷺ، الصبح قال: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب. وأما من قال: أمطرنا بنوء كذا وكذا: فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**».

فصل

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدمها، وخلُّوا بينه وبين مكة. فأقام بها ثلاثًا، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوفُ في القُرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نَرُدَّه عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عَيْبةً مَكْفُوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2] فقالوا يارسول الله نعطيهم هذا: فقال: «**من أتاهم منا فأبعده الله. ومن أتانا منهم، فرددناه إليهم: جعل الله له فرجا ومخرجاً**».

(١) الجهش: أن يفزع الإنسان إلى الإنسان ويلجأ إليه، وهو مع ذلك يريد البكاء.

(٢) الاسلال: السرقة الخفية. والاغلال: الخيانة.

وفي قصة الحديبية: أنزل الله ـ عز وجل ـ فدية الأذى لمن حلق رأسه: بالصيام أو الصدقة، أو النسك في شأن كعب بن عُجْرة.

وفيها: دعاء رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثًا، وللمقصرين مرة.

وفيها: نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[1]

وفيها: أهدى رسول الله، ﷺ، في جملة هديه جَملًا كان لأبي جهل كان في أنفه بُرَةٌ من فضة، ليغيظ به المشركين.

ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. وكان في الشرط: أن من شاء أن يدخل في عقده ﷺ دخل. ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل.

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات، منهن أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط، فجاء أهلها يسألونها رسول الله، ﷺ بالشرط الذي كان بينهم. فلم يُرْجعها إليهم، ونَهاه الله عز وجل عن ذلك.

فقيل: هذا نسخٌ للشرط في النساء. وقيل: تخصيص للسنة بالقرآن. وهو عزيز جدًا.

وقيل: لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة. وأراد المشركون أن يعمموه في الصنفين، فأبى الله ذلك.

فصل في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية.

فمنها: اعتمار النبي، ﷺ في أشهر الحج. فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل، كما أن الإحرام بالحج كذلك؛ فإنه أحرم بهما من ذي الحُلَيفة، وبينها وبين المدينة مَيْلٌ أو نحوه.

وأما حديث «**من أحرم بعمرة من بيت المقدس غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[2].

وفي لفظ: «**كانت كفارة لما قبلها من الذنوب**» فحديث لا يثبت. وقد اضطرب فيه إسنادًا ومتنًا اضطرابًا شديدًا.

ومنها: أن سَوْق الهدى مسنون في العمرة المفردة، كما هو مسنون في القران.

ومنها: أن إشعار الهدى سنة، لا مُثْلَةٌ منهيٌّ عنها.

ومنها: استحباب مغايظة أعداء الله؛ فإن النبى ﷺ، أهدى في جملة هديه

---

(١) في المطبوعة «تسعة» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أم سلمة.

جَملًا لأبي جهل، في أنفه برة من فضة، يغيظ به المشركين. وقد قال تعالى في صفة النبي، ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

ومنها: أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو.

ومنها: أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عيينة الخزاعي العينَ: كان كافرًا إذ ذاك. وفيه من المصلحة: أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأي، واستطابة لنفوسهم، وأمنًا لعَتْبهم، وتعرُّفًا لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الرب في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ومنها: جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: رد الكلام الباطل، ولو نسب إلى غير مكلف؛ فإنهم لما قالوا: «خلأت القصواء» يعني حَرَنَت، فلم تَسِرْ. والخِلاء في الإبل - بكسر الخاء والمد - نظير الحران في الخيل، فلما نسبوا إلى الناقة ماليس من خُلقها وطبعها رَدَّه عليهم، وقال: «ما خلأت، وما ذاك لها بخلق» ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسمية مايلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سنة.

ومنها: جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الدِّيني الذي يريد تأكيده. وقد حُفظ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضع: في سورة يونس (٥٣) وسبأ (٣) والتغابن (٧).

ومنها: أن المشركين وأهلَ البدع والفجور والبُغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حُرْمَةً من حرمات الله تعالى: أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن مُنعوا

غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه حرمات الله تعالى، لاعلى كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك. فكلٌّ من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرْضٍ له: أجيب إلى ذلك. كائنا من كان، مالم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه. وهذا من أدقِّ المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس. ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق. وقال عمر ما قال، حتى عمل له أعمالاً بعده، والصديق تَلقّاه بالرضا والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ. وأجاب عمر عما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول الله، ﷺ. وذلك يدلُّ على أن الصديق رضي الله عنه أفضلُ الصحابة وأكملهم وأعرفهم بالله تعالى ورسوله، ﷺ، وأعلمهم بدينه وأقومهم بمحَابِّه، وأشدهم موافقة له. ولذلك لم يسأل عمرُ عما عرض له إلا رسولَ الله، ﷺ وصِدِّيقه خاصة دون سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عدلَ ذات اليمين إلى الحديبية. قال الشافعي: بعضها من الحِلِّ، وبعضها من الحَرم. وروى أحمد في هذه القصة «أن النبي ﷺ كان يُصلي في الحرم، وهو مُضْطَرِب في الحِل» وفي هذا: كالدَّلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم، لا يخص بها المسجد الذي هو مكان الطواف. وأن قوله ﷺ: «**صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي**» كقوله تعالى: ﴿**فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾ [التوبة: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ليلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحرام**﴾ [الإسراء: ١] وكان الإسراء من بيت أم هانيء.

ومنها: أن من نزل قريبًا من مكة، فإنه ينبغي له أن ينزل في الحِلِّ، ويصلي في الحرم. وكذلك كان ابن عمر يصنع.

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله، ﷺ، بالسيف ـ ولم يكن عادته أن يقُام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يُقتدى بها عند قدوم رُسُلِ العدو، من إظهار العزِّ والفخر، وتعظيم الإمام وطاعته، ووقايته بالنفوس. وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين. وليس هذا من النوع الذي ذَمَّه النبي صلى ﷺ بقوله: «**من أحب أن يَتَمثَّل له الرجال**

قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[١] كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره. وفي بعث البُدْن في وجه الرسول الآخر: دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفي قول النبي، ﷺ للمغيرة: «**أما الإسلام فأقبل. وأما المال فلست منه في شيء**» دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم، وأنه لا يُملك، بل يُرَدُّ عليه؛ فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان، ثم غَدَر بهم وأخذ أموالهم فلم يتعرض النبي ﷺ، لأموالهم، ولا ذَبَّ عنها، ولا ضمنها لهم؛ لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

وفي قول الصديق لعروة بن مسعود: «امصص ببَظر اللات» دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي، ﷺ أن يُصَرح لمن دعا بدعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: «اعضض أيْرَ أبيك، ولا يَكْنِى له» فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله وجَفوتِه. ولا يُقابَل على ذلك، لما فيه من المصلحة العامة. ولم يقابل النبي ﷺ، عروة على أخذه بلحيته وقت خطابه، وإن كانت تلك عادة العرب، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك. وكذلك لم يقابل رسول الله ﷺ، رسولي مُسيلمة حين قالا: «نشهد أنه رسول الله» وقال: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما». ومنها: طهارة النُّخامة، سواء كانت من رأس أو صدر.

ومنها: طهارة الماء المستعمل. ومنها: استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطِّيَرَة المكروهة. لقوله لما جاء سهيل بن عمرو «سَهُل أمركم».

ومنها: أن المشهود عليه إذا عُرف باسمه واسم أبيه: أغنى ذلك عن ذكر الجدِّ. لأن النبي، ﷺ لم يزد على «محمد بن عبدالله» وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراط ذكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَّاء بن خالد من النبي، ﷺ الغلام فكتب له: «**هذا ما اشترى العَدَّاء بن خالد بن هَوْذة**»[١] فذكر جَدَّه، فهو زيادة بيان، تدل على أن جائز لا بأس به، ولا تدل على اشتراطه، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم أبيه ذكره. فيشترط ذكر الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدم الاشتراك يُكْتفى بذكر الاسم واسم الأب. والله أعلم.

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث معاوية بن أبي سفيان.

ومنها: أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضَيم على المسلمين: جائز للمصلحة الراجحة. ودفع ما هو شر منه. ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما.

ومنها: أن من حلف على فعل شيء، أو نَذَره، أو وعد غيره به، ولم يعين وقتاً لا بلفظه ولا بنيته: لم يكن على الفَوْر، بل على التراخي.

ومنها: أن الحِلاق نُسك، وأنه أفضل من التقصير، وأنه نسك في العمرة، كما هو نسك في الحج، وأنه نسك في عمرة المحْصَر، كما هو نسك في عمرة غيره.

ومنها: أن المحْصَر ينحر هَدْيه حيث أُحْصِرَ من الحِلِّ والحرم، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرم إذا لم يصل إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله: ﴿**والهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه**﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضع الذي نحر فيه الهدي كان من الحِلِّ، لا من الحرم؛ لأن الحرم كله محل نحر الهدي.

ومنها: أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأنه ﷺ أمرهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحدًا منهم بالقضاء، والعمرةُ من العام القابل لم تكن واجبة، ولا قضاءً عن عمرة الإحصار؛ فإنهم كانوا في عمرة الإحصار ألفًا وأربعمائة وكانوا في عمرة القَضِيَّة دون ذلك، وإنما سميت «عمرة القضية، والقضاء» لأنها العمرة التي قاضاهم عليها، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلق على الفور، وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعْتُذِر عن تأخيرهم الامتثال: بأنهم كانوا يرجون النسخ. فأخروا متأوِّلين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يعتذر عنه. وهو باطل؛ فإنه ﷺ لو فهم منهم ذلك لم يشتد غضبه عليهم لتأخير أمره، ويقول «مالي لا أغضب؟ وأنا آمر بالأمر فلا أُتَّبع» وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة.

ومنها: أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام، إلا ما خصه الدليل. ولذلك قالت أم سلمة: «**اخرج ولا تكلم أحدا حتى تحلق رأسك، وتنحر هديك**» وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداء بفعله، ولم يمتثلوه حين أمرهم به؟

قيل: هذا هو السبب الذي لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعًا في النسخ، فلما فعل النبي، ﷺ ذلك علموا حينئذ: أنه حكم مستقر غير منسوخ، وقد تقدم فساد هذا الظن، ولكن لما تَغَيَّظ عليهم، وخرج، ولم يكلمهم وأراهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به، بادروا حينئذ إلى الاقتداء به، وامتثال أمره.

ومنها: جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم من المسلمين، وأن لا يرد من ذهب من المسلمين إليهم. هذا في غير النساء. وأما النساء. فلا يجوز اشتراط ردهن إلى الكفار. وهذا موضع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

ومنها: أن خروج البُضْع من ملك الزوج متقوم، ولذلك أوجب الله سبحانه رَدَّ المهر على من هاجرت امرأته وحيل بينه وبينها، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم رَدَّ مهور من هاجر إليهم من أزواجهم، وأخبر أن ذلك حكمه الذي حكم به بينهم، ثم لم ينسخه بشيء، وفي إيجابه رَدَّ ما أعطى الأزواج من ذلك: دليل على تَقَوُّمه بالمسمى لا بمهر المثل.

ومنها: أن شرط رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلمًا إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب؛ فإن النبي ﷺ، لم يرد أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاءوا في طلبه مكنَّهم من أخذه، ولم يكرهه على الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلموه، وتمكنوا منه، فقتل أحدًا منهم لم يضمنه بدية ولا قَوَد، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه في ذلك حكم قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم. فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذي الحليفة، وهي من حكم المدينة، ولكن كان قد تسلموه، وفَصَل عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم وغنمت أموالهم، ولم يتحيزوا إلى الإمام: لم يجب على الإمام دفعهم عنهم، ومنعهم منهم، سواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ، وبين المشركين لم يكن عهدًا بين أبي بصير وأصحابه وبينهم.

وعلى هذا: فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد: جاز للملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم، ويغنم أموالهم، إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتى به شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ نصارى مَلَطِيَّة وسبيهم، مستدلاً بقصة أبي بصير مع المشركين.

فصل

في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة.

وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

فمنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا. فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا: أن يوطِّيء لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمِنَ بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جَهْرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل. ولهذا سماه الله فتحًا مبينًا، قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيمًا، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة هذا الأمر: أن «الفتح» في اللغة: هو فتحَ المغلق. والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان بابه مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله وكان من أسباب فتحه صَدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة: ضَيْمًا وهَضْمًا للمسلمين، وفي الباطن: عزًّا وفتحًا ونصرًا. وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما ورائه من الفتح العظيم، والعز والنصر: من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورءوسهم، ورسول الله ﷺ، يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم:

وربما كان مكروه النفوس إلى ... محبوبها سببًا ما مثله سبب

فدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها: هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونصبوه لحربهم، وهم لا يشعرون. فذلوا من حيث طلبوا العز، وقُهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة. وعَزَّ رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه. فدار الدور وانعكس الأمر، وانقلب العز بالباطل ذُلًا بحق، وانقلبت الكَسْرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سببه الله سبحانه للمؤمنين من زيادة الايمان والإذعان، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضا بقضاء الله وتصديق موعوده، وانتظار ما وعدوا به، وشهود مِنَّة الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم أحوج ما كانوا إليها، في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال. فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم، وقويت به نفوسهم. وازدادوا به إيمانًا.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه، وهدايته إلى الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضَّيْمِ، وإعطاء ما سألوه كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك. ولهذا ذكره الله سبحانه جزاءً وغاية. وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى وفتحه.

وتأمل كيف وصف سبحانه النصر بأنه «عزيزًا» في هذا الموطن؟ ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب، وقلقت أشد القلق، فهي أَحْوَجُ ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بها إيمانًا إلى إيمانهم.

ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله، وأكَّدها بكونها بَيْعةً له سبحانه، وأن يَدَه تعالى كانت فوق أيديهم، إذ كانت يَدُ رسول الله ﷺ كذلك وهو رسوله ونبيه. فالعقد معه عقد مع مُرْسِله، وبيعته بيعته، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده. وإذا كان الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقَبَّله فكأنما صافح الله وقَبَّل يمينه، فيَدُ رسول الله، ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود.

ثم أخبر: أن نَاكِثَ هذه البيعة إنها يعود نَكْثه على نفسه، وأن للمُوفي بها أجرًا عظيمًا. وكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بَيْعةً على الإسلام وحقوقه فنَاكِثٌ ومُوَفٍّ.

ثم ذكر حال مَنْ تخلَّف عنه من الأعراب، وظَنّهم أَسْوَأَ الظن بالله: أن يَخْذُلَ رسوله وأولياءه وجنده، ويُظْفِرَ بهم عَدُوَّهم، فلن يَنْقَلبُوا إلى أهليهم أبدًا. وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أَهْلٌ أن يعامله به ربُّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضائه عن المؤمنين، بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه. فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضا في قلوبهم، وأثابهم على الرضا بحُكمهِ والصَّبْرِ لأمره: فتحاً قريبًا، ومغَانِمَ كثيرة يأخذونها. وكان أولَ الفتح والمغانم: فتحُ خيبر ومغانمها. ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر، ووعدهم سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عَجَّلَ لهم هذه الغنيمة. وفيها قولان.

أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم.

الثاني: أنها فتح خيبر وغنائمها.

ثم قال ﴿وكَفَّ أيدِيَ الناسِ عنكم﴾ [الفتح: ٢٠]. فقيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم. وقيل: أيدي اليهود، حين هَمُّوا بأن يَغْتَالُوا مَن بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم: من أسَد وغَطْفَان. والصحيح: تَنَاوُلُ الآية للجميع.

وقوله: ﴿ولِتَكُون آيَةً للمؤمنين﴾ [الفتح: ٢٠] قيل: هذه الفَعْلة التي فعلها بكم، وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذ كانوا أهل مكة ومن حولها، وأهل خَيْبَر ومن حولها، وأسد وغطفان، وجمهورَ قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينهم كالشامة، فلم يَصِلُوا إليهم بسوءٍ. فمن آيات الله سبحانه: كفّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشِدّة عداوتهم، وتولِّي حراستهم وحفظهم في مَشْهدهِم ومغَيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة على ما بعدها من

الفتوح، فإن الله سبحانه وَعَدَهم مغانم كثيرة، وفتوحا عظيمة؛ فعجل لهم فتح خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لصبرهم ورضائهم يوم الحُدَيْبية وشُكْرَانًا، ولهذا خصَّ بها وبغنائمها مَن شَهد الحديبية.

ثم قال: ﴿وَيَهدِيَكم صِراطًا مُسْتَقِيما﴾ [الفتح: ٢٠] فجمع لهم إلى النصر والظَّفر والغنائم الهداية، فجعلهم مَهْدِيين منصورين غانمين، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحًا أخرى، لم يكونوا في ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هي مكة، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوح التي بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه لَوَلَّى الكفار الأدبار غير منصورين، وأن هذه سُنته في المكذبين من قبلهم، ولا تبديل لسنته.

فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد وانتصروا عليهم، ولم يولوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلق بشرط، مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر، وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم ولم يحصل لهم الوعد لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذي كَفَّ أيدي بعضهم عن بعض، من بعد أن أظْفَرَ المؤمنين بهم؛ لَمَا له في ذلك من الحكم البالغة، التي منها: أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا، وهم يكتمون إيمانهم، لم يعلم بهم المسلمون، فلو سلطكم عليهم لأصبتم أولئك بمعَرَّة الجيش، وكان يصيبكم منهم مَعَرَّةُ العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به. وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم؛ لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم لعذَّب أعداءه عذابًا أليمًا في الدنيا، إمَّا بالقتل والأسر وإما بغيره. ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ورسوله بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار في قلوبهم من حَمِيَّةِ الجاهلية، التي مَصْدرها الجهل والظلم، التي لأجلها صَدُّوا رسوله وعباده المؤمنين عن بيته، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول الله، مع تَحَقُّقِهم صدقه، وتَيَقُّنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها، وسمعوا بها في مدة عشرين سنة.

وأضاف هذا الجَعْلَ إليهم ـ وإن كان بقضائه وقدره ـ كما تضاف إليهم سائر أفعالهم، التي هي بقدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ماهو مُقَابِلٌ لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية. فكانت السكينة حَظَّ رسوله وحزبه، وحمية الجاهلية حظَّ المشركين وجندهم. ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى. وهي جنس يعُمُّ كل كلمة يُتَّقَى الله بها. وأعلى أنواعها: كلمة الإخلاص. وقد فسرت ببسم الله الرحمن الرحيم. وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها، فألزمها الله أولياءه وحزبه. وإنما حَرمها أعداءه: صيانة لها عن غير كُفْئِها. وألزمها مَن هو أحق بها وأهلَهَا، فوضعها في موضعها، ولم يُضَيِّعْها بوضعها في غير أهلها. وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه: أنه صَدَق رسوله رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولابد، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته مالم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته مالم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحًا قريبًا؛ تَوْطِئَةً له وتمهيدًا.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ لِيُظهِرَهُ على الدين كله. فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أدْيَان أهل الأرض. ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتَثْبِيت، وأن يكونوا على ثِقَةٍ من هذا الوعد الذي لابد أن يُنجِزَه، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نُصرةً لعدوه، ولا تخلية عن رسوله ودينه. كيف؟ وقد أرسله بدينه الحق، ووعده أن يظهره على كل دين سواه؟

ثم ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل. فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا. ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم، وعدلهم وعلمهم

ورحمتهم، وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء. وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم. والرافضة تصفهم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها ﴿مَن يَهْدِ الله فهو المُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ فَلنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف، ١٧].

(١)فصل في الاشارة إلى ما في هذه الغزوة (٢) من الفقه واللطائف

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمِنَ الناس به، وكلم بعضهم بعضًا، وتناظروا في الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكـة من إظهـار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام. ولهذا سماه الله فتحًا في قوله: ﴿إنّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ إذ نزلت في شأن الحديبية، فقال عمر: «يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم» وأعاد سبحانه ذكـر كونـه فتحًا، فقال: ﴿لقد صَدَقَ الله رسولَهُ الرُّؤْيا - إلى قوله - فَعَلِمَ ما لم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذا شأنـه سبحـانـه: أن يقـدم بين يدي الأمور العظيمة مُقدمات تكون كالمدخل إليها، المُنَبئة عنها. كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا وخلق الولد له، مع كونه كبيرًا لا يولد لمثله.

وكما قدم بين يدي نسخ القبلة قصة البيت وبناءَه وتعظيمه والتنويه به، وذكر بَانيه. وتعظيمه ومدحه.

ووطّأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له، وقدرته الشاملة له.

وهكذا ماقدم بين يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وبشارات الكُهَّان به وغير ذلك. وكذلك الرؤيا الصالحة لرسوله ﷺ، كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة.

وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد.

ومن تأمل أسْرَار الشرع والقدر رأى من ذلك ما يَبْهَرُ حكمته الألباب.

---

(١) ٤٠١ الزاد جـ٢.

(٢) أي غزوة الفتح سرد المؤلف رحمه الله هذه الغزوة في عدة صحائف فمن أرادها فليراجعها (ج).

فصـــل

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجِوَاره وعهده: صاروا حَرْبًا له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يُبَيِّتَهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يُعلمهم على سواء. وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها صاروا نَابِذِين لعهده.

فصـــل

وفيها: انتقاض عهد جميعهم بذلك: رِدْئهم ومباشريهم، إذ رضوا بذلك، وأقروا عليه ولم ينكروه، فإن الذين أعانوا بني بكر من قريش، بعضهم لم يقاتلوا كلهم معهم، ومع هذا فقد غزاهم رسول الله ﷺ كلهم. وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعًا، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح، إذ قد رضوا به وأقروا عليه فكذلك حكم نقضهم العهد. هذا هدي رسول الله ﷺ الذي لا شك فيه كما ترى[1].

. . .[2] **ولشدة** الحاجة إلى السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها نشير إلى ذلك بحسب علومنا القاصرة، وأذهاننا الجامدة، وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فيالله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم وقد استغاث بنو إسرائيل: ياموسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا!

وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداءً ونجاءً كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه. وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا.

---

(١) استمر المؤلف في شرح هذه الغزوة وفقهها في كراسات وهي كبيرة الفائدة ألجأنا طلب الاختصار إلى الإحالة عليها هي وأمثالها (ج).

(٢) ٢٠٠ الأعلام جـ٤.

وكـذلـك السكينـة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة. وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما.

وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء الله قد أحاطوا به، كيوم بدر، ويوم حنين، ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب ـ ولاسيما على الله ـ أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحْوَجَ ما كانوا إليها: ﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ السكينةَ في قُلُوبِ الْمُؤمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمانًا مَعَ إيمانِهِمْ ولله جُنُودُ السَّمواتِ والأَرْضِ وكانَ الله عليمًا حَكيمًا﴾ [الفتح: ٤]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينـة عنـد القلق والاضـطراب الـذي لم يصـبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحُدَيبية، قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنـزالهـا أحـوج ما كانـوا إليها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المُؤمنين إذْ يُبَايِعُونَكَ تحت الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فأَنْزَلَ السكينَةَ عليهم وأثابَهُمْ فتحا قَرِيبًا﴾

لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخـول بيت الله، وحَبَسُـوا الهـدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى مافيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إذ جَعَلَ الذينَ كَفَرُوا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ الله سكينَتَهُ علَى رَسُولِه وعلَى المُؤمِنِين وأَلْزَمَهُمْ كَلِمةَ التَّقْوى وكانُوا أَحَقَّ بها وأَهْلَها وكَان الله بُكلِ شيءٍ عليماً﴾ [الفتح: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم. فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهـة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبْتَلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

فصـــل

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع، وغَضَّ الطرف، وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه.

والخشـوع نتيجـة هذه السكينـة وثمـرتهـا، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب. وقد رأى النبي، ﷺ رجلاً يَعْبَث بلحيته في الصلاة، فقال **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**.

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به.

ولقد جمع النبي، ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان **«أن تعبد الله كأنك تراه»** فتأمل كل مقام من مقامات الدين،

وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يعبر فينقلب ترحاً وحزناً.

وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً ولو أعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير وبالله التوفيق.

. . . (١)**وأما** تقديم العزيز على الحكيم. فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر فما ذكره من المعنى صحيح. وإن كان من الحكمة وهي كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها ووضعه الأشياء مواضعها وهو الظاهر من هذا الاسم فيكون وجه التقديم أن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وهو سبحانه الموصوف من كل صفة كمال بأكملها وأعظمها وغايتها، فتقدم وصف القدرة لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدة الخلق وهو مفعولاته تعالى وآياته. وأما الحكمة فمتعلقها بالنظر والفكر والاعتبار غالباً وكانت متأخرة عن متعلق القدرة. ووجه ثان أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

ووجه ثالث أن الحكمة غاية الفعل فهي متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها، فالقدرة تتعلق بإيجاده والحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية لأنها أسبق في الترتيب الخارجي.

(٢)**قال** تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [الفتح: ٦]، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده.

---

(١) ٦٧ البدائع جـ١.

(٢) ٦١ الإغاثة جـ١.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه.

وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي يجعلون له عَدْلاً في العبادة والمحبة والتعظيم.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالاً وباطلاً، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧،٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبداً، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه وليٌّ ولا شفيع.

(١)**وتأمل** قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى له وحده، وقال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]. كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال. هذه حقيقته، فعلم أن الخوف من أجل مقامات الخواص، وأنهم إليه أحوج وبه أقوم من غيرهم.

---

(١) ٢٩٢ الهجرتين.

فصــل (١)

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى: ﴿عَلَيهِمْ دَائرةُ السَّوءِ وغَضِبَ الله عَليهم وَلَعَنَهم وأَعدَّ لَهُمْ جهَنَّمَ وساَءَتْ مصيراً﴾.

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذٰلكُمْ ظَنُّكم الذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكم أرْداكم فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِين﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُون * أإفْكاً آلهةً دونَ الله تُرِيدُون * فَما ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالمينِ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وماظنكم به حين عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص؟ حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

(٢) **وأما** المسألة الثانية وهي تعريف الصراط باللام هنا. فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم، ولا قولك: أكلت طيبًا كقولك: الطيب؟ ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق**» فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط مستقيم على الإطلاق وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط

---

(١) ١٨٥ الجواب.
(٢) ١٢ البدائع جـ٣.

المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه. فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى شيء معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ [الفتح:٢]. وقوله تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾ [الشورى:٥٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهم إلى صراطٍ مستقم﴾ [الأنعام:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُل إِنَّنِي هَدَانِي رَبِي إلى صِراطٍ مستقيم﴾ [الأنعام:١٦١].

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفًا لهم فلم يجيء معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده. ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكرى لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسئول عن هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ [الفتح:٢]. نزلت في صلح الحديبية وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه. وكان الله ـ تعالى عما يقولون ـ ورسوله ﷺ أعلم فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية. فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مستقيم﴾ أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم. ولو قال في هذا الموطن إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر وللضلال حظًا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبيء أن مادخلت

عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرب به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن، وأما قوله إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]. في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك، بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قل إنَّني هَدَاني رَبِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾ ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِيْنًا قَيِمًا مِلَّة إبراهيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ [الأنعام: ١٦١] ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا.

أفتراه يمكنه ههنا أن يقول إن[1] الحرب والمكيدة فهذا جواب فاسد جدًا.

وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا.

وذلك خمسة أشياء أحدها الفتح المبين. والثاني مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. والثالث هدايته الصراط المستقيم. والرابع إتمام نعمته عليه. والخامس إعطاءه النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح.

فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه بالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، قهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد.

وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ أَرْسَل رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩]. في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف، وقال تعالى: ﴿ولقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبينَاتِ وأَنْزَلْنا مَعَهمُ الكِتابَ والْمِيزَانَ ليقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا الهدى ثم قال: ﴿وأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فيه بأسٌ شَدِيد﴾. فهذا النصر. فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

(١) في المخطوطة: أثر الحرب ولعل الصواب: إن الحرب.

وقال تعالى: ﴿**آلم * الله لا إله إلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عليكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ والإِنْجِيل * مِنْ قَبْلُ هُدى لِلَّناسِ وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ**﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهوالنصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل. ولهذا سمي تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا كما قال تعالى: ﴿**إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بالله وَمَا أَنْزلنا عَلى عَبْدِنَا يومَ الفُرْقَانِ يومَ الْتَقى الْجَمْعَانِ**﴾ [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتينا مُوسَى وهَارونَ الفُرْقَانَ وضِياءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة. هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في: **الإمالي المكية** فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة. وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظًا من الاستقامة فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع ـ رحمه الله تعالى ـ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم.

أفترى قوله تعالى: ﴿**وآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨]. يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم.

وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة.

بل يقال: تعريفه ينبىء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة؛ فإن التعريف في قوة الحصر فكأنه قيل: لا صراط مستقيم سواه وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة فتأمله هنا وفي نظائره.

فصـــل(١)

ومن ذلـك قولـه تعالى: ﴿وأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وكانُوا أحَقَّ بهَا وأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى. وقـد أخـبر سبحـانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها. والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون.

فصـــل(٢)

ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بَالحَقِّ لَتدخُلُنَّ المسجدَ الحَرَامَ إن شآء الله آمنين مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تخافُون فعلم مَا لَم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُون ذَلَكَ فَتْحاً قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٦] بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُون ذلكَ فَتحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر مالم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغى المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمدًا وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد؛ فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعـداوتهم، وكـان ذلـك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم وذلـك من أكـبر العـون على نفـوسهم، وزاد صبر المؤمـنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة ولهذا سماه فتحاً وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: نعم.

---

(١) ٦٠ شفاء.　　(٢) ٣٤ شفاء.

. . . [(١)]وقد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «نعم العَدْلان، ونعمت العِلاوة». فبالهدى خَلَصُوا من الضلال، وبالرحمة نَجَوا من الشَّقاءِ والعذابِ، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القُرْبِ والكرامَةِ. والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلالُ عن طريق السعادة، والوقوع في ضِدِّ الرحمة من الألم والعذاب، والذمُّ واللعنُ، الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رضي الله تعالى عنه من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**» رواه الترمذي.

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «وكان أبوبكر رضي الله عنه أعلمنا به يعني النبي ﷺ» فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وَسِع رَبنا كل شيء رحمةً وعلما فوسعت رحمته كل شيء، وأحاطَ بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحمُ بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والعبدُ لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يَسْعَى فيما يضرُّها ويُؤلمها، ويَنْقُصُ حظَّها من كرامته وثوابه، ويُبعدها من قربه، وهو يَظُنُّ أنه ينفعها ويُكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم.

والإنسان ظلوم جَهول، فكم من مُكرِم لنفسه بزعمه، وهو لها مُهين، ومُرَفِّهٍ لها، وهو لها مُتعِب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بَخسها حَظَّها، وأضاع حَقها، وعطَّل مصالحها،

(١) ١٧٢ الإغاثة جـ٢.

وباعَ نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذةٍ فانية مَشُوبةٍ بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطَيفٍ زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هُدي ورُحم لكان شأنه غيرَ هذا الشأن، ولكن الربّ تعالى أعلم بالمحل الذي يصلحُ للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبدَ. كما قال عن عبده الخَضِر. ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥]. ﴿**رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ [الكهف: ١٠].

فصل

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الـرَّحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبـد، وإن كَرِهتها نفسهُ، وشَقَّتْ عليها. فهذه هي الرَّحمةُ الحقيقية. فأرْحَمُ الناسِ بك من شَقَّ عليك في إيصال مصالحك، ودَفْعِ المضارِّ عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدّب بالعلم والعمل، ويَشُقّ عليه في ذلك بالضَّرْب وغيره، ويمنعَه شهواته التي تعود بضَرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لِقلة رحمته به، وإن ظنَّ أنه يَرحَمُه ويُرَفِّهُهُ ويُريحُهُ، فهذه رحمَةٌ مقرونَةٌ بجهل، كرحمة الأمِّ.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحمِ الراحمين: تَسْليطُ أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعُه من كثيرِ من أغراضهِ وشهواته: من رحمتِـه به، ولكنَّ العبـد لجهله وظُلمه يتَّهم ربهُ بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليهِ بابتلائهِ وامتحانهِ . . .

[1]**وقوله:** ﴿**محمد رسول الله**﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبَيَّنَ صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

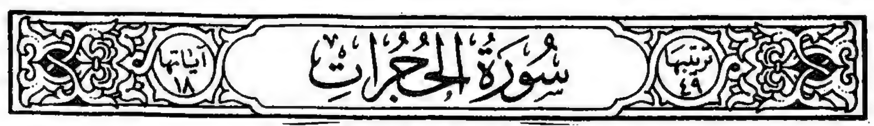
ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على

(١) ٤٧٠ المدارج جـ٣.

صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به.

وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة **﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودينِ الحَقِّ لِيُظْهره عَلَى الدِّينَ كُلِّه. وكَفَى بالله شَهيدًا﴾** [الفتح: ٢٨]. فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفتح
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١]. أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمْضِيه. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا خِلَافَ الكتاب والسنة. وروى العوفي عنه قال: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الّذينَ آمَنُوا لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النَّبيِّ ولا تَجهروا له بالقَوْل كجَهْرِ بَعضِكم لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أعْمالُكم وأنتم لا تَشعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢]. فإذا كان رَفْعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون مُحبطًا لأعمالهم؟.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعلة - وإن صغرت - إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لِمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى. وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول ﷺ في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك

---

(١) ٥١ الإعلام جـ١.		(٢) ٥١ الإغاثة جـ٢.

العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟.

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع. فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

(1)**ومن** الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهي ويأذن، كما قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ. وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهي.

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دعاءَ الرسولِ بَيْنَكُمْ كدُعاءِ بَعْضِكم بعضًا**﴾ [النور: ٦٣]. وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضا، بل قولوا: يارسول الله، يانبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسولَ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدرُ مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوامعه على أمر جامع ـ من خطبة، أو جهاد، أو

(١) ٣٨٩ المدارج جـ٢.

رباط - لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿**إنما الْمُؤمِنونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وإذا كَانُوا مَعَهُ على أمرٍ جَامعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حتّى يَسْتَأذِنُوه**﴾ [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فَاسْأَلوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كنتم لا تعلمون**﴾

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نَصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُراتِ**﴾ [الحجرات: ٤]. وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين وأثنى عليهم بِغَضِّها بقوله: ﴿**إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رسول اللَّهِ**﴾ الآية. [الحجرات: ٣]. وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال على أنه تكلم حقيقة لا مجازًا وكذلك نصوص الوحي الخاص كقوله تعالى: ﴿**إنَّا أَوْحَيْنَا إليك كَمَا أوْحَيْنَا إلى نُوحٍ**﴾ [النساء: ١٦٣]. قال الجارودي سمعت الشافعي يقول: أنا مخالف ابن علية في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله، أنا أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء حجاب، وهو يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلامه أسمعه موسى. وقد نوع الله تعالى هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعًا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة. والرب تبارك وتعالى يخلق بقوله وكلامه كما قال تعالى: ﴿**إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]. فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه انتفى الخلق. وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلّم ولا تكلم عابديها ولا ترجع إليهم قولاً. والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة. وقد

---

(١) ٢٨٥ الصواعق جـ٢.

ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام فيفنى المداد والأقلام ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه وتكليمه، وخطابه ونداؤه، وقوله وأمره ونهيه، ووصيته وعهده، وإذنه وحكمه، وإنباؤه وإخباره وشهادته كل ذلك مجازًا لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه ﴿وَيُحِقّ اللَّهُ الحقّ بِكَلِماتِه ولو كَرِهَ المُجرمُون﴾ [يونس: ٨٢]. فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله.

(١)**وأما** الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم - على اختلاف مراتبهم - بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص.

فمع الوالدين: أدب خاص، وللأب منهما: أدب هو أخص به. ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به.

وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره. فما استُجْلِب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نَجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة ؟ والإخلال به مع الأم - تأويلاً - وإقبالاً على الصلاة كيف امتحِن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟.

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟.

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السَّلَب بعد أن بَرَد بيديه؟ .

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن أثبت مكانك جمزًا وسعيًا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم.

---

(١) ٣٩٠ المدارج جـ٢.

فصـــل(١)

في السرايا والبُعُوث في سنة تسع

ذِكْر سَرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

وذلك في المحرم من هذه السنة. بعثه إليهم في سرية ليغزوهم في خمسين فارسًا، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكْمُنُ النهار، فهجم عليهم في صحـراء، وقد سَرَّحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولَّوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلًا، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صَبيًا. فساقهم إلى المدينة، فأنزلوا في دار رَمْلَة بنت الحرث. فقدم فيهم عِدَّة من رؤسائهم: عُطارِد بن حاجب، والزِّبْرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحرث، ونعيم بن سعد، وعمـروبن الأهتم، ورباح بن الحـرث، فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا إليهم، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يامحمد، أخرج إلينا. فخرج رسول الله ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلَّقوا برسول الله يُكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى، فصلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فقدَّموا عطارد بن حاجب، فتكلم وخطب، فأمـر رسـول الله ثابت بن قيس بن شَمَّاس فأجابهم، وأنزل الله فيهم ﴿**إن الذين يُنادُونَك من وراء الحجُرَاتِ أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صَبَرُوا حتى تخْرُجَ إليهم لكـانَ خيراً لَّهُمْ والله غفـورٌ رَّحيمٌ**﴾ [الحجرات: ٤، ٥]. فرد عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسَّبْي. فقام الزِّبرقان شاعرُ بني تميم، فأنشد مفاخرًا:

نحن الكـرام فلا حيٌّ يُعـادلنـا	منـا المـلوك وفينـا تُنْصَبُ البِيَعُ
وكـم قَسَرنـا من الأجياد كلهم	عنـد النِّهـاب وفضـل العز يُتَّبَعُ
ونحن نُطعم عنـد القَحْط مُطعمنـا	من الشِّـوَاءِ إذا لم يؤنس القَـزَعُ
بما ترى النـاس تأتينـا سُرَاتُهم	من كل أرض هَوِيًا ثم تصطـنعُ
فننحـر الكُرمَ عَبطًا في أرومتنا	للنـازلـين إذا ما أنـزلـوا شبعـوا
فما ترانـا إلى حي نفـاخـرهـم	إلا استقادوا فكانوا الرأس يقتطعُ
فمن يفـاخـرنـا في ذاك نعرفـه	فيرجـع القـوم والأجياد تتبـعُ
إنـا أبَيْنَـا ولا يأبى لنـا أحـد	أنـا كذلـك عند الفخـر نرتفـعُ

(١) ٤٧٢ الزاد جـ٢.

فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأجابه على البديهة:

إن الـذَّوائِب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بيَّنوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ
يرضى بهم كلُّ مَن كانت سَريرتُه ... تقوى الإله وكل الخير مُصطنعُ
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدُوَّهم ... أوحاولوا النفع في أشياعهم نفعُوا
سَجيَّةٌ تلك فيهم غير محْدَثَةٍ ... إن الخلائق فاعلم شرُّها البدَعُ
إنْ كان في الناس سَبَّاقون بعدهم ... فكل سبق لأدْنى سَبقهم تَبَعُ
لا يرقَع الناس ما أوْهَتْ أكُفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعواُ
إن سابقوا الناس يومًا فاز سبَقْهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى منعواُ
أعفة ذُكرت في الوحْي عفَّتُهم ... لا يطمعون فلا يرديهم طمعُ
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مَطْمَع طَبَعُ
إذا نصبنا لحي لم نَدبَّ لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرعُ
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خضعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خَوَر ولا هَلَع
كأنهم في الوغى والموت مكتنف ... أُسْدٌ بحليه في أرساغها فَدَع
خذ منهم ما أتوا عفوًا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي صنعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم ... شرًّا يُخاض عليه السُّمُّ والسلعُ
أكْرِمْ بقوم رسولُ الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشِّيَعُ
أهدى لهم مِدْحتي قلبٌ يوازره ... فيما أحب لسان حائك صنَع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جَدّ بالناس جِدُّ القول أوشمعوا(١)

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له، لَخَطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشَاعِرهُ أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

فصل

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ: أن أخْرُجْ إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم، فخرج إليهم.

---

(١) فسرها السهيلي بمعنى: ضحكوا.

فقالوا: جئنا لنفاخرك، فائْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: «**نعم، قد أذِنْتُ لخطيبكم، فليَقُمْ**» فقام عطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنُّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عِظامًا، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيْسَرَهُ عُدَّةً. فمن مِثْلُنا في الناس؟ ألَسْنَا. رءُوس الناس، وأُولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عدَدْنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَف بذلك. أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمرٍ أفضل من أمرنا. ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شَمَّاس: «**قُمْ، فأجبه**»، فقام، فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله: أنْ جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حَسَبًا، فأنزل عليه كتابه، وائْتَمنه على خلقه. فكان خيْرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه، وذَوِي رَحِمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسنهم وجوهًا، وخير الناس فِعالاً. ثم كان أولَ الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ: نحن، فنحن أنصار الله، ووزَرَاء رسوله ﷺ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله مَنع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا. وكان قتله علينا يسيرًا. أقول هذا، وأستغفر الله العظيم لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم». ثم ذكر قيام الزبرقان وإنْشادَه، وجواب حسان له بالأبيات المتقدمة. فلما فرغ حسان من قوله. قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل، لمؤتى، لخَطيبُه أخْطَبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعَر من شاعرنا، ولأصواتُهم أحلى من أصواتنا. ثم جَوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

فصل(١)

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿**ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيّنه في**

(١) ٣٥٩ المدارج جـ١.

قُلُوبكم وكَرَّه إليكُمُ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصْيان أولئك هم الرَّاشِدُون﴾

والمفرد ـ الذي هو فسوق كفر ـ كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ به كَثِيراً ويَهْدِي به كَثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفَاسِقِين * الذين يَنْقُضُون عهدَ الله﴾ الآية. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَد أَنْزَلْنا إليك آياتٍ بَيِّنَاتٍ وما يَكفُرُ بها إلا الفاسِقُون﴾ [البقرة: ٩٩]. وقوله: ﴿وأما الذين فَسَقُوا فمأْوَاهُم النَّارُ كلما أَرادُوا أن يَخرُجُوا منها أُعِيدُوا فيها﴾ الآية. [السجدة: ٢٠]. فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَفعَلُوا فإنه فُسُوقٌ بكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأٍ﴾ [الحجرات: ٦]. فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدِقًا ـ وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ـ فلما سمع القومُ بمقدمه تَلَقَّوه، تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ. فحدَّثه الشيطان: أنهم يريدون قتله. فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله ﷺ، وهَمَّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قِبَلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رَدَّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه. وقال له: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد، ووافاهم، فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية. و «النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبَرِ إذا كان له شأن. و «التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا.

وههنا فائدة لطيفة. وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل

الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو مُتَحَرٍّ للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين. ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد. **ففسق** العمل نوعان: مقرون بالعصيان، ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿**لا يَعْصُون اللّهَ ما أَمَرَهُمْ**﴾ [التحريم:٦]. وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام: ﴿**ما مَنَعَكَ إذ رأيتَهُمْ ضَلُّوا * ألا تَتَّبعنِ أفَعَصَيْتَ أَمْري**﴾ [طه: ٩٢:٩٣] وقال الشاعر:

أمـرتُـك أمـرًا جازمًـا فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمـارة نادمًـا

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى: ﴿**وإن تَفْعَلُوا فإنه فُسُوق بكم**﴾ [البقرة:٢٨٢]. والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿**إلاّ إبليس كَانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عن أمْـرِ ربـه**﴾ [الكهف: ٥٠]. فسمى مخالفته للأمر فسقًا. وقال: ﴿**وعَصَى آدمُ ربَّه فغَوى**﴾ [طه: ١٢١]. فسمى ارتكابه للنهي معصية. فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

و«**التقوى**» اتقاء بمجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك

معصية الله، على نور من الله يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ماحرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

فصل(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمْر لَعنتُّمْ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإيمان وَزَيَّنَه في قُلُوبِكُمْ وكَرَّه إِلَيكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أولئك هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه.

...(٢)و«**التوفيق**» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًا له، مؤثرًا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا مجرد فعله، والعبد محل له. قال تعالى: ﴿**ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنه في قُلوبكم وكَرّه إليكم الكُفْر وَالفُسُوقَ والعِصيان أولئك هم الراشدون * فَضْلاً من الله ونعمَة والله عليمٌ حكيمٌ**﴾ [الحجرات: ٧-٨].

---

(١) ٥٧ شفاء.

(٢) ٤١٤ المدارج جـ١.

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمْر لَعنتُمْ﴾.

ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقَدِّموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون: لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضُرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولاً، وكتب معه إليهم كتابًا يعلمهم أن العدو مُصَبِّحهم عن قريب ومجتاحهم، ومُخَرِّب البلد، ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالاً ومراكب وزادًا وعُدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد. واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم؛ فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي. فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم. فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملاً، وساقوهم سوقًا إلى الملك. فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء، أم عادلاً فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

[1]**قد** ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي.

---

(١) ٢١٩ المدارج جـ١.

ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أمورًا.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح. وَمَنْ وَصفُه الجهلُ والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة. فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها؛ فإنه رَبُّها ومولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طَرْفَةَ عين؛ فإنه إن وَكَله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه. وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل: **اللهم ألهمني رُشْدِي، وَقِني شرَّ نفسي**» وفي خطبة الحاجة «**الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**» وقد قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المُفْلِحُون**﴾ [التغابن: ١٦]. وقال: ﴿**إن النفْسَ لأَمَّارَةُ بالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه عَلِمَ أنها مَنْبَع كل شر ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها. كما قال تعالى: **ولولا فَضلُ اللهِ عَلَيكُمْ ورَحْمتُه مازَكَى مِنكم من أَحد أَبدًا**﴾ [النور: ٢١]. وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإِيمانَ وَزَينَهُ في قلوبِكُم وَكَرَّهَ إليكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصيانَ أولئك هم الرَّاشدون**﴾ [الحجرات: ٧]. فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها. ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين ﴿**فَضْلاً من الله ونِعْمةً والله عليمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الحجرات: ٨]. «**عليم**» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «**حكيم**» **فلا يضعه** عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

(١)**الفرق** الثاني أن عمل الحسنات من إحسان الله ومنه وتفضله عليه

---

(١) ١٦٨ شفاء.

بالهداية والإيمان كما قال أهل الجنة ﴿الحمد للّهِ الذي هدانا لِهذا وما كُنَّا لِنهتَدِيَ لولا أن هَدَانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣].

فخلقُ الرب سبحانه لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة، وإرسالُ الرسل، وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به، وإلهامهم الإيمان وتحبيبه إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه ضده إليهم كل ذلك من نعمه كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإيمانَ وَزَيَنَهُ في قلوبكُم وَكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصيانَ أولئكَ هم الرَّاشدون * فَضْلاً مِن اللّهِ وَنِعمْةً والله عليمٌ حكيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلك لهم، ومن غير حول وقوة منهم إلا به، وهو خالقهم وخالق أعمالهم الصالحة وخالق جزائها، وهذا كله منه سبحانه.

بخلاف الشر فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد، وذنبه من نفسه.

وإذا تدبر العبد هذا علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر ربه على ذلك فزاده من فضله عملاً صالحًا ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب فزال عنه سبب الشر، فيكون دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له والشر يندفع عنه.

فصل(١)

والحقوق نوعان: حق الله، وحق الآدمي؛ فحق الله لا مَدْخَلَ للصلح فيه، كالحدودِ والزكَوات والكفارات ونحوها. وإنما الصلح بين العبد وبين ربه في إقامتها، لا في إهمالها، ولهذا لا يقبل بالحدود، وإذا بلغت السلطان فلَعَن الله الشافع والمشفوع.

وأما حقوق الآدميين فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعارضة عليها. والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله ﷺ كما قال: ﴿فأَصْلِحُوا بينهما بالْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩]. والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصلح، بل يصلح صلحًا ظالمًا جائرًا، فيصالح بن الغريمين على دون الطفيف. من حق أحدهما: والنبي ﷺ صالح بين كعب وغريمه، وصالح أعدل

(١) ١٠٨ الإعلام جـ١.

الصلح فأمره أن يأخذ الشطر ويَدَعَ الشطر.

وكذلك لما عزم على طلاق سَودة رضيت بأن تهَبَ له ليلتها وتبقى على حقها من النفقة والكسوة. فهذا أعدل الصلح؛ فإنالله سبحانه أباح للرجل أن يطلق زوجته ويستبدل بها غيرها، فإذا رضيت بترك بعض حقها وأخْذِ بعضه وأن يُمْسِكَها كان هذا من الصلح العادل. وكذلك أرْشَدَ الخصمين اللذين كانت بينهما المواريث بأن يتوخيا الحقَّ بحسب الإمكان ثم يحلل كل منهما صاحبه.

وقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولاً، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هَضم لحق الطائفة المظلومة. وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم بما يرضى به القادر صاحب الجاه، ويكون له فيه الحظ، ويكون الإغماض والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح، ولا يمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، بل يمكن المظلوم من استيفاء حقه، ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتبه بالإكراه للآخر بالمحاباة ونحوها.

(١)**ندب** الله سبحانه وتعالى إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء فقال: ﴿**وإن طَائِفتانِ من المؤمنين اقْتَتلوا فأصْلِحُوا بينهما**﴾.

ونَدَب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: ﴿**وإن امرأة خَافَتْ من بَعْلها نُشوزًا أو إعراضًا فلا جُناحَ عليهما أن يُصلِحا بينهما صُلْحًا والصُّلْحُ خير**﴾ [النساء: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿**لا خَيْرَ في كثير من نَجْوَاهم إلا مَنْ أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصْلاحٍ بَيْنَ الناس**﴾ [النساء: ١١٤].

وأصلح النبي ﷺ بين بني عمرو بن عوف لما وقع بينهم.

ولما تنازع كعبُ ابن مالك وابن أبي حَدْرَد في دَيْنٍ على ابن أبي حَدْرَد، أصلح النبيُّ ﷺ بأن استوضَعَ من دين كعب الشطرَ و[أمَرَ] غريمه بقضاء الشطر.

وقال لرجلين اختصما عنده «اذْهَبَا فاقْتَسِمَا ثم توخيًا الحقَّ ثم اسْتَهِمَا ثم ليحلل كل منكما صاحبه.

---

(١) ١٠٧ الإعلام جـ١.

فصـــل(١)

والصلح الذي يحل الحرام ويحرم الحلال كالصلح الذي يتضمن تحريم بُضْع حلال، أو إحلال بُضْع حرام، أو إرقاق حر، أو نقل نسب أو ولاء عن محل إلى محل، أو أكل رِبا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذلك؛ فكل هذا صلح جائر مردود.

فالصلح الجائز بين المسلمين هوالذي يعتمد فيه رضي الله سبحانه ورضى الخصمين؛ فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل؛ فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل؛ فدرجة هذا أفْضَل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأفْضَلَ من درجة الصائم القائم**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **إصلاحُ ذاتِ البَيْن؛ فإن فساد ذات البين الحالقة، أما إني لا أقول تَحْلق الشَّعْر، ولكن تحلق الدين**» وقد جاء في أثر: أصلحوا بين الناس؛ فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة. وقد قال تعالى: ﴿**إنما المُؤْمنُون إخوَةٌ فأصْلِحُوا بين أخَوَيكُم واتقوا الله لَعَلَّكم تُرحَمُون**﴾ [الحجرات: ١٠].

(١)**قال** تعالى: ﴿**ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [الحجرات: ١١]. قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسم ثالث البتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ. ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ياأيُّها النَّاسُ: تُوبُوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وكان أصحابه يَعُدُّونَ له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إلى آخرها إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**».

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن ينجى أحدًا منكم عمله**. قالوا ولا أنت يارسول الله قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**». فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحق جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

---

(١) ١٠٩ الإعلام جـ١.	١٧٨ المدارج جـ١.

فصل[1]

ومنها قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمَنُوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَنِّ إن بعضَ الظَنِّ إثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغتَبْ بعضُكم بَعْضًا أيحبُّ أحَدُكُم أن يأكُلَ لحْمَ أخيه مَيْتا فَكَرِهْتُمُوه واتَّقُوا الله إن الله توابٌ رَّحيمٌ**﴾ [الحجرات:١٢]. وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شَبَّه تمزيق عِرْضِ الأخ بتمزيق لحمه.

ولما كان المُغْتَابُ يمزق عرضَ أخيه في غيبته كانَ بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.

ولما كان المغتاب عاجزًا عن دَفْعِه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مُقْتَضى الأخوة التراحُمَ والتواصُلَ والتناصر فعلّق عليها المغتاب ضدّ مقتضاها من الذم والعَيْب والطعن كان ذلك نظيرَ تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حِفْظَه وصِيانته والذبّ عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكهًا بِغِيبته وذمه متحليًاً بذلك شبِّهَ بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.

ولما كان المغتاب محبًا لذلك مُعْجَبًا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبتُه لذلك قَدْرٌ زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدرٌ زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحُسْنَ مَوْقِعه ومُطابقة المعقول فيه المحسوس.

وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكلِ لحم الأخ ميتًا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحِبَ أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نُفْرَةً عنه؛ فلهذا يوجِبُ العقلُ والفِطْرَة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرةً عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق.

[2]**وقال** ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه**» ذكره مسلم.

---

(١) ١٦٩ الإعلام جـ١. (٢) ٤٠١ الإعلام جـ٤.

وللامام أحمد ومالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما الغيبة؟ فقال: «**أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع**» فقال: يا رسول الله [و] إن كان حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا قلت باطلاً فذلك البهتان**».

وسئل ﷺ عن الكبائر، فقال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وقتل النفس التي حرم الله، والفرار يوم الزحف، ويمين الغموس، وقتل الإنسان ولَدَه خشية أن يطعم معه، والزنا بحليلة جاره، والسحر، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات**» وهذا مجموع من أحاديث.

(١)**والفرق** بين النصيحة والغيبة أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع، أو فتان، أو غاش، أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم فقال: «**أما معاوية فصعلوك وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه: «**إذا هبطت بلاد قومه فاحذره**».

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات. وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب.

(٢)فصل في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح

قال اللهَ تعالى: ﴿**يا أيها الناسُ إنا خَلَقْنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأُنْثىٰ وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقبائَل لتعَارَفُوا إن أكرمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكم**﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى: ﴿**إنَّما المُؤْمِنُون إخوةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿**والمؤْمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بعضُهم أولياءُ بَعْض**﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿**فاستجَابَ لهم ربُّهم أني لا أُضِيعُ عَمَل عامِلٍ مِّنكم من ذَكَرٍ أو أُنْثى بَعْضُكم من بَعضٍ**﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض: إلا بالتقوى. الناس من آدم. وآدم من تراب**».

وقال ﷺ: «**إن آل بني فلان: ليسوا لي بأولياء، إن أوليائي المتقون حيث كانوا،**

---

(١) ٢٩٣ الروح.　　(٢) ٤١ الزاد جـ٤.

وأين كانوا». **وفي الترمذي عنه ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلقه فانكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، قالوا**: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ **فقال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه» ـ ثلاث مرات»**.

وقال النبي ﷺ لبني بَياضة **«انكحوا أبا هند، وانكحوا إليه»** وكان حجامًا. وزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة مولاه. و«زوج فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة بن زيد» و«تزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف».

وقد قال الله تعالى: ﴿**الطيِّباتُ للطيِّبين والطيِّبون للطَيِّبَاتِ**﴾ [النور: ٢٦]. **وقال** تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النساءِ**﴾ [النساء: ٣].

فالذي يقتضيه حكمه ﷺ: اعتبار الدين في الكفاءة أصلاً وكمالاً، **فلا تزوج** مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة **أمرًا وراء ذلك؛** فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسبًا، ولا صناعة، **ولا** غنى ولا حرفة. فيجوز للعبد القِنّ نكاح الحرة النسيبة الغنية، إذا كان عفيفًا مسلمًا، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشمات، وللفقراء نكاح الموسرات.

وقد تنازع الفقهاء في أوصاف الكفاءة، فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدين. وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدين، والحرية، والسلامة من العيوب. وقال أبو حنيفة: هي النسب، والدين. وقال أحمد في رواية عنه: هي الدين، والنسب خاصة. وفي رواية أخرى: هي خمسة: الدين، والنسب، والحرية، والصناعة، والمال.

(١)**وأما** كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه. فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق. فالمسألة أيضًا فاسدة في نفسها؛ فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿**إن أكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتْقَاكُم**﴾ [الحجرات: ١٣]. ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: والفقر والغنى ابتلاء من الله

---

(١) ٤٤٢ المدارج جـ٢.

لعبده. كما قال تعالى: ﴿فأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه رَبُّه فأكرمَهُ ونَعمه فيَقُولُ رَبِّي أكـرَمَنِ * وأمـا إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقَه فيقول رَبِّي أهانَنِ * كلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]. أي ليس كل مَنْ وسَّعتُ عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقَـتَّرت: أكـون قد أهنته؛ فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال - يعني ابن تيمية - ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر. بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألـة عند يحيى بن معاذ. فقال: لا يوزن غدًا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

[1]**يذكر** الله سبحانه في كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَينِ الصُّلب والتَّرائِب﴾ [الطارق: ٥-٧]. وقوله: ﴿ألم يَكُ نطفةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧]. ونظائرها من الآيات التي إن لم تختص بماء الـرجل فهي فيه أظهر، وإذا كان جزءًا من الواطىء وجزءًا من الأم فكيف كان ملكًا لسيد الأم دون سيد الأب؟ ويخالف القياسَ من وجه آخر، وهو أن المـاء بمنـزلة البَذْر، ولو أن رجلًا أخذ بذر غيره فزرَعَه في أرضه كان الزرعُ لصاحب البذر وإن كان عليه أجرة الأرض.

قيل: لا رَيْبَ أن الولد منعقد من ماء الأب كما هو منعقد من ماء الأم، ولكن إنما تكَوَّنَ وصار مالًا متقومًا في بطن الأم؛ فالأجزاء التي صار بها كذلك من الأم أضعافُ أضعافِ الجزء الذي من الأب، مع مساواتها له في ذلك الجزء؛ فهو إنما تَكَوَّن في أحشائها من لحمها ودمها، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلًا، بل كان كما سماه الله ماء مَهينًا لا قيمة له، ولهذا لو نَزَا فحلُ رجلٍ على رَمَكة[2] آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البَذْر فإنه مال متقوم له قيمة قبل وضعه في الأرض يُعاوَضُ عليه بالأثمان، وعَسْبُ الفحل لا يعاوض عليه، فقياسُ أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك في النسب، وجعلتموه للأم كما جعلتموه للأب.

---

(١) ٤٦ الإعلام جـ١. (٢) الرمكة - محركة -: الفرس والبرذونة تتخذ للنسل والجمع رمك وجمع الجمع أرماك.

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسَب للأب، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم في الحرية والرق، وهذا هو الذي تقتضيه حكمة الله شرعًا وقدرًا؛ فإن الأب هو المولود له، والأم وِعاء وإن تكوَّن فيها.

والله سبحانه جعل الولد خليفة أبيه وشَجْنَته والقائمَ مقامه، ووضع الأنساب بين عباده؛ فيقال: فلان ابن فلان، ولا تتم مَصالحهم وتعارفُهم ومعاملاتهم إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلقْنَاكم من ذَكَرٍ وأُنثى وَجَعَلْنَاكم شُعُوبًا وقبائل لتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات:١٣]. فلولا ثبوتُ الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفَسَد نظام العباد؛ فإن النساء محتجبات عن العيون فلا يمكن في الغالب أن تعرف عين الأم فيشهد على نسب الولد منها. فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت وفسدت، وكان ذلك مناقضًا للحكمة والرحمة والمصلحة. ولهذا إنما يُدعىَ الناس يوم القيامة بآبائهم لا أمهاتهم.

[١] فصل في قدوم وفد بني أسد

وقدم عليه ﷺ وفد بني أسد: عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلموا، فقال متكلمهم: «يارسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يارسول الله، ولم تَبْعَثْ إلينا بَعْثًا. ونحن لمن وراءنا» قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله: ﴿**بلِ اللهُ يَمُنُّ عَليكُمْ أن هَدَاكم للإيمانِ إن كُنْتُمْ صادقين**﴾ [الحجرات:١٧]. وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة والكهانة، وضرب الحصي، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله. فقالوا: «يارسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيتَ؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخَطَّ. قال: علمه نبي من الأنبياء. فمن صادف مثل علمه علم».

[٢] ﴿**قالت الأعرابُ آمنا قل لم تُؤْمِنُوا ولكن قُولُوا أَسْلَمنا ولما يدخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكم**﴾ [الحجرات:١٤]. فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفارًا؛ فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿**ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمنا**﴾. ولم

(١) ١٠٠ الزاد جـ٣.
(٢) ٩١ المدارج جـ٣.

يرد: قولـوا بألسنتكم، من غير مواطأة القلب؛ فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنـا» ولكن لما لم يذوقـوا طعم الإيمان، قال: «لم تؤمنـوا» ووعـدهم سبحانه وتعالى ـ مع ذلك ـ على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله، ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب لأن الإيمان قد باشر قلوبهم، وخالطتها بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضع. وصَدَّق ذلك الذوقَ: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته؛ فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشـك والنفاق: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين: يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك: يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

. . .[1]قوله تعالى: ﴿قالتِ الأعْرَاب آمنًا قل لَمْ تُؤْمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان لوجوه:

منها أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك. ومنها أنه قال: ﴿قالت الأعراب﴾ ولم يقل قال المنافقون. ومنها أن هؤلاء الجناة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿ولما يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم﴾. ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم. ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان. ومنها أن الله تعـالى قال: ﴿وإن تُطِيعُـوا اللهَ وَرَسُـولَـه لا يَلِتكُمْ من أعـمالِكُم شَيئًـا﴾ [الحجرات: ١٤]. أي لا ينقصكم. والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يمنُّون عليك أَنْ أَسْلَمُوا قل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكم﴾ [الحجرات: ١٧].

---

(١) ١٧ البدائع جـ٤.

فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ. ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿**نَشْهَدُ إنك لَرسولُ الله**﴾ [المنافقون: ١]. لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿**بل اللّهُ يمُنُّ عليكُم**﴾. ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم.

ومنها أنه قال: ﴿**أن هَدَاكُمْ للإيمان**﴾. ولا ينافي هذا قوله: ﴿**قل لم تُؤْمِنُوا**﴾ [الحجرات: ١٤]. فإنه نفي الإيمان المطلق ومن عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن فقال: **أو مسلم ثلاث** مرات وأثبت له الإسلام دون الإيمان[1].

وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

[2]**وأما** تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعانَ بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لايشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه!

وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغه من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ماكان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة. ومافرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر فإنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضًا بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!.

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه. ولا ينفك عنهما. فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته.

قال الله تعالى: ﴿**لقد مَنَّ الله علَى المُؤْمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهم رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهم**﴾ [آل عمران: ١٦٣]. وقال: ﴿**بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيكُمْ أن هَدَاكُم للإيمان**﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال: ﴿**فَلِلهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ**﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكوني أيضًا متضمن لمنته وحجته. فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا

---

(١) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية (ج).		(٢) ١٧١ المدارج جـ١.

باتصال الحكم الديني به فهو مِنَّة عليه. وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني. فتوفيقه للقيام به منة منه عليه. وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه. فالمنة: باقتران أحد الحكمين بصاحبه. والحجة: في تجرد أحدهما عن الآخر. فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة. وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة. وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أومقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [البقرة: ٢١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجرات

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ق والقُرْآنِ المَجِيدِ * بل عَجِبُوا أن جاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكافِرُونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ**﴾ [ق: ١، ٢].

الصحيح أن [ق، ون، وص]، بمنزلة [حم. وألم. وطس]: تلك حروف مفرد وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل.

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه ثم أخذ ـ سبحانه ـ في بيان عجب الكفار من غير عجيب بل بما لا ينبغي أن يقع سواه.

كما قال سبحانه: ﴿**الر تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ١، ٢]. **فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون**: ﴿**إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ**﴾؟ [يونس: ٧٦].

وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم. كما قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ**﴾ [الرعد: ٥].

(٢)**قوله**: ﴿**ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدما قدما في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

---

(١) ٢٧٠ التبيان. (٢) ٩٤ التبيان.

(١) . . . **وقد** كرر سبحانه ذكر هذا الدليل(٢) في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دَلَالته، وقُرْب تَناوله، وبعده من كل معارضة وشُبْهة، وجَعَله تبصرةً وذكرى كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّرَ به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّمَ عليه في اللفظ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تَفَعُّلٌ من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهدَهُ على وَجْهه أوْجَبَ له البصيرة، فأبْصرَ ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

وقد دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلى أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على مَعاده وصِدْق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

(٣) **قال** تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]. طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى الكُفُرَّى.

والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له نضيد: مادام في كُفُرَّاه، فإذا انفتح فليس بنضيد. **وأما** «الهضيم» فهو المنضم بعضه إلى بعض، فهو كالنضيد أيضًا، وذلك يكون قبل تشقق الكُفُرَّي عنه.

«**والطلع**» نوعان: ذكر وأنثى، والتقليح: هو أن يؤخذ من الذكر ـ وهو مثل دقيق الحنطة ـ فيجعل في الأنثى، وهو التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى.

وقد روى مسلم في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله قال: «مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأي قومًا يُلَقِّحون، فقال: «**ما يصنع هؤلاء**»؟ قالوا:

---

(١)

(٢) يشير إلى ما تقدم من ذكره آية فصلت على قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ (ج).

(٣) ٣٦٧ زاد المعاد جـ٣.

يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى قال: «ما أظن ذلك يغني شيئًا»، فبلغهم، فتركوه، فلم يصلح، فقال النبي ﷺ: «إنما هو ظن، فإن كان يغني شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم عن الله ـ عز وجل ـ فلن أكذب على الله» اهـ.

(١)﴿بَلْ هُم فِي لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه: نشأة أخرى، وهي مثل الأولى، وسماه: خلقًا جديدًا، وهو مثل الخلق الأول، كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. وسماه: أمثالاً وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن، وصدّق بعضها بعضًا، وبيّن بعضها بعضًا. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعًا ـ معاذ الله من اعتقاده ـ بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

(٢)وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. فهذه الآية لها شأن وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين، فقالت طائفة: نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به والقول الثاني: إن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم إليهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]. وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول الله ﷺ وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]. فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه. وملائكته هم الذين باشروه، إذ هو بأمره، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه: أحدها: أنه ـ سبحانه ـ قيد القرب في الآية بالظرف وهو قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]. فالعامل في الظرف ما في قوله ﴿وَنَحْنُ

(١) ١٢٤ التبيان. (٢) ٢٦٧ مختصر الصواعق جـ٢.

أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق:١٦]. من معنى الفعل، ولو كان المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين، ولا كان في ذكر التقييد به فائدة، فإن علمه ـ سبحانه ـ وقدرته ومشيئته عامة للتعلق. (الثاني) أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة ملائكته لعمل العبد. وهذا نظير قوله: **﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** [الزخرف: ٨٠].

وقريب منه قوله ـ تعالى ـ في أول السورة: **﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾** [ق: ٤]. ونحو قوله: **﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾** [طه: ٥٢].

الرابع[1] أن قرب الرب تعالى إنما ورد خاصًا لا عامًّا وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة، ومن مطيعه بالإثابة، ولم يجيء القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة أن الله قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر. وإنما جاء خاصًّا بقوله تعالى: **﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾** [البقرة: ١٨٦] فهذا قريب من داعيه وسائله». . .

[2]**فإن** قيل: فكيف تصنعون بقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**؟ [ق:١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس.

أحدهما: أنه قربه بعلمه. ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان. و«حبلُ الوريد» حبل العنق، وهو عرق بين الحلقوم والودَجين الذي متى قطع مات صاحبه. وأجزاء القلب، وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه. فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾** [يوسف: ٣]. وقوله: **﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾** [القيامة: ٨]. فإن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي قصه عليه بأمر الله. فنسب تعليمه إليه. إذ هو بأمره، وكذلك

(١) كذا في المطبوعة ولعله: الثالث. المراجع.　　(٢) ٢٩٠ مدارج جـ٢.

جبريل هو الذي قرأه عليه. كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها.

قلت: أول الآية يأبى ذلك. فإنه قال: **﴿ولقد خَلْقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نَفْسُه﴾**. قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة. قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة: «فيقول الملك الذي يخلقه: يارب، ذكر أم أنثى؟ أَسَوِيٌّ أم غير سَوِيّ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك» فهو ـ سبحانه ـ الخالق وحده. ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه فما ثَمَّ خالق على الحقيقة غيره.

(١)**قال:** وشر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به، أو الخير والشر فقط؟ على قولين: أظهرهما الأول. وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه، وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد. والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره. والله عند لسان كل قائل و**﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق:١٨]. وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الآخرة: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد تكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء، مداهن إذا لم يخف على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين. وأهل الوسط: هم أهل الصراط المستقيم، كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة. فلا يرى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته. وأن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ـ عز وجل ـ وما اتصل به.

(٢)**قال الله تعالى: ﴿قال قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ**

---

(١) ٢١٦ الجواب الكافي.

(٢) ١٣٦ مدارج جـ١.

لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالوَعِيدِ * ما يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيّ وَمَا أَنا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٧-٢٩]. أي لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي. وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه. فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

[(١)] **قال** الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

قلت: جعل الله ـ سبحانه ـ كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغى بسمعه. فيميله كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحَدَّق بها نحو المرئي. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه، ولكن قلبه كله في موضع آخر: لم يدركه. فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء[(٢)].

[(٣)] قاعدة جليلة

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم ـ به سبحانه ـ منه إليه[(٤)] فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ له قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. وذلك أن تمام التأثير لماكان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

---

(١) ٢٣١ مدارج جـ٣. (٢) تقدم في سورة الحج نقلاً عن المدارج ص٢٤٦ جـ٣ بحث جامع مفيد جدًا على قول الله ـ تعالى ـ ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (ج).

(٣) ٣ فوائد. (٤) الضمير الأول في لفظة [منه] عائد إلى من تكلم، والضمير الثاني في لفظة [إليه] عائد إلى من يخاطبه.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ماتقدم من أول السورة إلى ههنا. وهذا هو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هوالمحل القابل؛ والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠]. أي حي القلب. وقوله: ﴿أو أَلقى السَّمع﴾ أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له؛ وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: ﴿وهو شهيد﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه؛ وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحيّ، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: ﴿أو أَلْقَى السَّمْعَ﴾ والموضع موضع [واو] الجمع لا موضع [أو] التي هي لأحد الشيئين. قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه بأن يقال: خرج الكلام [بأو] باعتبار حال المخاطب المدعو.

فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة؛ فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره، دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة؛ وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]. وقال في حقهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. فهذا نور الفطرة على نور الوحي. وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي. قال ابن القيم[1]: وقد ذكرنا ماتضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر ـ في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية. فصاحب القلب

---

(١) كذا بالمطبوعة ولعله سهو من الناسخ. المراجع.

يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحيّ الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول حال من رأى بعينيه ما دُعِي إليه وأُخبِر به.

والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه، وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر، ودخل به في الإسلام. فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة؛ فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب: كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالإبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين.

فصل

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى: هالك شقي، وفائز سعيد. وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمنت إثبات صفات الكمال للَّه وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب. وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى، والعالمين الأكبر وهو عالم الآخرة والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده وإحاطته ـ سبحانه ـ به من كل وجه حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلمَ بها وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان فيقال: هذا فلان قد أحضرته،

فيقول: اذهبوا به إلى السجن، وعاقبوه بما يستحقه.

وتأمل كيف دلت السورة صريحًا على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه ـ سبحانه ـ يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لا يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله ـ سبحانه ـ يخلق بدنًا غير هذا البلدن من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن، فيخلق روحًا غير هذه الروح، وبدنًا غير هذا البدن. وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل، ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى.

وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئًا بعد شيء، فكل وقت يخلق الله ـ سبحانه ـ أجسامًا وأرواحًا غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانًا؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى، وصاروا عظامًا ورفاتًا فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء. ولهذا قالوا: ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ [الواقعة: ٤٧]. وقالوا: ﴿**ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾.

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ**﴾ [ق: ٤]. كبير معنى، فإنه ـ سبحانه ـ جعل هذا جوابًا لسؤال مقدر، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها؛ وتأليفها خلقًا جديدًا. وهو ـ سبحانه ـ يقرر المعاد: بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته. فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع

الإنساني شيئًا بعد شيء هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فإما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]. وقال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويجمع - سبحانه - بين الأمرين كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾. [القيامة: ٣٦]. وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

ولهذا كان الصواب؛ أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب - تعالى - وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص. ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها، وهيأها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا

تأملها العبد المنيب وتبصر بها، تذكَّرَ ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصر أولاً ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم؛ وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] أي مثل هذا الإخراج من الأرض، الفواكه والثمار والأقوات والحبوب: خروجكم من الأرض ما غيبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا: المعالم، وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل ـ سبحانه ـ إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصلاً مطابقًا لما عند أهل الكتاب. ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] يقال لكل من عجز عن شيء عيي به وعيي فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

عيّوا بأمرهم كما	عييت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣] قال ابن عباس: يريد أفعجزنا، وكذلك قال مقاتل:

قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة وحقيقتها أعم من ذلك، فإن العرب تقول أعياني أن أعرف كذا، وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله، فتقول: أعياني دواؤك، إذا لم تهتد له ولم تقف عليه؛ ولازم هذا المعنى العجز عنه؛ والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرها، كما هو حال من عيّ بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه. وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥] أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا.

ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد؛ وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد. وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته. ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن إحاطة علمه به حتى علم وساوس نفسه. ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا المراد بقول: نحن؛ أي ملائكتنا، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل.

قال ويدل عليه قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٧] فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين، فلا حجة في

الآية لحلولي ولا معطل. ثم أخبر سبحانه: أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبهّ بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه ـ سبحانه ـ والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى، ثم ذكر القيامة الكبرى، يقول: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم وأن كل أحد يأتي الله ـ سبحانه ـ ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين. ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق:٢٢]. ولم يقل عنه كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥]. ولم يقل في شك فيه، وجاء هذا في المصدر، وإن لم يجيء في الفعل، فلا يقال: غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكه. وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك، ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم، كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة يكتب عمله، وقوله يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا، قد أحضرته، وأتيتك به، هذا قول مجاهد. وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه، وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي.

والتحقيق: أن الآية تتضمن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق:٢٤]، وهذا إما أن يكون خطابًا للسائق والشهيد، أو خطابًا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف. ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه. الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب: أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتخذ مع الله إلها آخر، يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضي له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله، فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه، وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢]. وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله.

وقالت طائفة: بل قرينه ههنا هو الملك، فيدَّعِي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه، وطغى، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب. فيقول الملك: مازدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]. فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق:٢٨].

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي الصافات والأعراف، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة ص.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ: أنه لا يبدل القول لديه، فقيل المراد بذلك قوله: **﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** [السجدة:١٣]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عباس: يريد ما لِوَعْدِي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي.

قال مجاهد قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغير عند الملوك والحكام. فيكون المراد بالقول، قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة: قال الفراء: المعنى ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: أي ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال القول عندي ولم يقل قولي، وهذا كما يقال لا يكذب عندي.

فعلى القول الأول يكون قوله: **﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾** [ق:٢٩]. من تمام قوله: **﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾** في المعنى. أي: ما قلته ووعدت به لابد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين: أحدهما أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه، وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده. ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقى فيها تَقُولُ: هل مِنْ مَّزِيد. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي؛ ليس من مزيد، والحديث الصحيح يرد هذا التأويل. ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع.

إحداها: أن يكون أوّابًا أي رجّاعًا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأواب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها. وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظًا. قال ابن عباس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه، وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. ولما كانت النفس لها قوتان؛ قوة الطلب وقوة الإمساك. كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه. فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب المقبل على الله بطاعته.

المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣]. يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله، وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُود * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥].

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم بطشًا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصًا ومنجىً من عذاب الله. قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركًا. وقال الزجاج: طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصًا من الموت. وحقيقة ذلك: أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن في هذا الذي ذكر ﴿لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به ـ سبحانه ـ في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه ـ سبحانه ـ صبر على قول اليهود أنه استراح، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر؛ وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود. فقيل هو الوتر، وقيل الركعتان بعد المغرب.

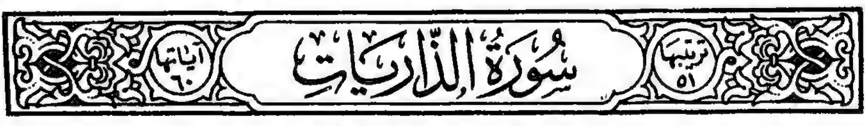
والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر، وعلي، وأبي هريرة، والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة، أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات. ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر.

وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد، يوم يسمعون الصيحة بالحق بالبعث، ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات، فيخرجون سراعًا من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه ـ سبحانه ـ.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه وهو ـ سبحانه ـ يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء، ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده؛ فهو الذي ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه، ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة قٓ

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله: ﴿والذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فالحَامِلاَتِ وِقْرًا * فالجَارِياتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾** [الذاريات: ١-٤]. أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر، وتذرو التراب، وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: **﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾** [الكهف: ٤٥]. أي تفرقه وتنشره. ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقراً، أي ثقلا من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله ـ سبحانه ـ على متون السحاب.

الرياح كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: **«هل تدرون ما هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى قوم لا يشكرونه، ولا يدعونه»**.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بما فوق ذلك، وهي **الجاريات يُسْرا**، وهي النجوم التي من فوق الغمام، و**﴿يُسراً﴾** أي: مسخرة مذللة منقادة. وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً. ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا ـ رحمه الله ـ القول الأول. وقال هو أحسن في الترتيب، والانتقال من السافل إلى العالي؛ فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه.

والصحيح أن المُقْسِّماتِ أَمرًا لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل. وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله. وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمراً. وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم. والله أعلم.

وأقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على

(١) ١٧٤ التبيان.

ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته. ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها.

فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح. وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاء تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذاباً تارة؛ فتارة يحيي بها الزرع والثمار. وتارة يعطبها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيماً، وتارة لاقحة، وتارة جنوباً، وتارة دبوراً، وتارة صبا، وتارة شمالاً، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله ـ سبحانه ـ إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الأذان، والرائحة إلى الأنف. والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد. فخلق الجبال، فقال بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، وقالوا: يارب! هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يارب! فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال نعم، النار. قالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال نعم، الماء. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال نعم، ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله**». ورواه الإمام أحمد في مسنده وفي الترمذي في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية. قال البخاري

في صحيحه: عتت على الخزنة، فلم يستطيعوا أن يردوها.

والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو. في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح، فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان، فأنشأه ـ سبحانه ـ في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاة إليه.

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولاً، فإن لم يجبك جواباً حباك اعتبار مرسل[1] الرياح، من أنشاها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، جعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء، وذارية، ولاقحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفاً، وعاصفاً، ومهلكة وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها. فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟.

وسل الجاريات يسراً من السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟. ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها؟.

---

(١) هكذا في الأصل، وهو خطأ شنيع، وصوابه: «فإن لم يجبك حوارًا أجابك اعتبارًا، وسل الرياح ـ الخ» أبو رجاء.

ومن الـذي أجـرى لها ريحـاً واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يميناً وشمالاً، تتلاعب بها الريح؟.

ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره، مقبلاً ومدبراً بريح واحدة، تجري في موج كالجبال: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ ۞ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾** [الشورى: ٣٢-٣٤]. ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل الجاريات يسراً من الكواكب، والشمس، والقمر: من الذي خلقها، وأحسن خلقهـا، ورفـع مكـانها، وزين بها قبـة العـالم، وفـاوت بين أشكالها، ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها من السماء.

فمنها الكبـير، ومنهـا الصغـير، والمتوسط، والأبيض، والأحمر، والزجاجي اللون، والـدري اللون، والمتـوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك؟ ومنها مايقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام. ومنها مايقطعه في ثلاثين عاماً، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك. ومنها مالا يزال ظاهراً لا يغيب بحال، فهو أبدي. ومنها أبدى الخفاء، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء. ومنها ما له حركتان: حركة عرضية من المشرق إلى الغرب، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق. فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهـو آخـذ في الارتفـاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها. تدل على المعاد كما تدل على المبدأ. وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة. وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله.

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد، والنبوة. ودلالتها على

هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر. بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية. فهي هداية في هذا وهذا.

وأما دلالة ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ وهم الملائكة، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة.

فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم. فوكل بالشمس والقمر والنجوم، والأفلاك طائفة منهم. ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة. ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة. وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة.

هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم. . . .

. . .[1]فكل حركة في السموات والأرض: من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب، والنبات، والحيوان، **فهي** ناشئة عن الملائكة الموكَّلين بالسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات: ٤]. وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم. وقد أشبعنا الردّ على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح[2].

وقد دلَّ الكتابُ والسُّنَّة على أصنافِ الملائكة، وأنها موكَّلة بأصناف المخلوقات، وأنه ـ سبحانه ـ وكَّل بالجبال ملائكة، ووكَّل بالسَّحاب والمطَر ملائكة، ووكَّل بالرَّحِم ملائكة تُدَبِّر أمر النُّطْفة حتى يتمَّ خَلْقُها، ثم وكَّل بالعبد ملائكة لِحِفْظِه، وملائكةً لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته. . . .

[3]...**ثم** أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب

---

(١) ١٢٥ إغاثة جـ٢.

(٢) هو كتاب مفتاح دار السعادة، وهذا البحث فيه في (ج٢ ص١٣٢ ـ ٢٤٠) طبع الخانجي.

(٣) ١٧٩ التبيان.

والعقـاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]. أي ما توعدون من أمر السـاعـة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]. أي إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف. والمعنى أن الذي توعدونه لصادق، أي كائن وثابت. وأن تكون مصدرية، أي إن وعدكم لحق وصدق. ووصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه بكونه صدقاً. ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه. بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه. فوصف كلامه بأنه صادق.

وهـذا مثـل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، ومـاء دافق. ومنـه ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب. وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه، مرشداً إليه.

ثم أقسم سبحـانه بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]. أصل الحبك في اللغة إجادة النسج. يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه. وقال شمر: المحبوك في اللغة ما أجيد عمله. ودابـة محبـوكة: إذا كانت مدمجة الخلق. وقال أبو عبيدة، والمبرد: الحبك: الطريق، وأحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق على جناحيه. وحباك الماء طريقه. وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريح والماء الدائم إذا مرت به الريح. وتجعد الشعر حبك أيضاً، واحدها حبيكة، مثل طرق وطريقة، وحباك مثل مثال، ومثل.

والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن. وروى سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها. وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقنة البنيان. وقال أيضًا: ذات الطرائق.

ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وكحبك الشعر. وقال عكرمة: بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال «ورأسه حبك» أي جعد الشعر. ومن أحسن

ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن، عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «هـل تدرون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف» وذكر الحديث[1].

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. فالقول المختلف: أقوالهم في القرآن، وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله. فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبم، وآراؤهم، وطرائقهم، وأقوالهم. فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم. فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. أي: مختلط ملتبس. وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، بسبب تكذيبهم بالحق. ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرفِ. فعن هٰهنا فيها طرف من معنى التسبيب، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣].

---

(١) روى الترمذي في تفسير سورة الحديد عن الحسن عن أبي هريرة قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب. فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون هذا؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان. هذه روايا الأرض، يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» ثم قال: «هل تدرون مافوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف» ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة» ثم قال: «هـل تدرون مافوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك سماءين مابينهما مسيرة خمسمائة عام» حتى عد سبع سموات مابين كل سماءين ما بين السماء والأرض، ثم قال: «هل تدرون مافوق ذلـك» قالـوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين» ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الأرض» ثم قال: «هل تدرون ماالذي تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن تحتها أرضًا أخرى، بينها مسيرة خمسمائة سنة» حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسماةئة سنة. ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» ثم قرأ: ﴿هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ [الحديد: ٣] قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة: وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقالوا: إنما هبط على علم الله وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف في كتابه اهـ.

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أي من سبق في علم الله أنه يضل، ويؤفك، كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣]. وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى الرسول، والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً. قال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي المكذبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]. وجهالة قد غمرت قلوبهم أي غطتها وغشتها، كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل، أو هوى، أو سكر، أو غفلة، أو حب، أو بغض، أو خوف، أو غم، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]. أي غفلة، وقيل جهالة. ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه. والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة، والسهو لا يستلزم ذلك.

فصل[1]

وأما الغَمَرَات فهي جمع غَمْرَة، والغَمْرة ما يَغْمُرُ القلب من حب أو سكر أو غفلة. قال الله - تعالى -: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]. أي في غفلة قد غَمَرت قلوبَهم. وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. ومنه [الماء] الغَمْر الكثير الذي يغطي من دخل فيه. ومنه غَمَرات الموت أي شدائده، وكذلك غَمَرات الحبّ وهو[ما] يغطي قلب المحب فيَغْمُرُه. ومنه قولهم: رجلٌ غَمْرُ الرِّداء - كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب أي يغطيها، فلا يظهر مع السخاء عيب قال كُثَيِّر:

غَمْرُ الرداء إذا تبسم ضاحكاً		غَلِقت لضَحْكَتِه رقابُ المال

وقال القُطاميّ يصف سفينة نوح:

إلى الجُودِيِّ حتى صار حِجْراً		وكان لذلك الغَمْر انْحسار

أي لذلك الماء الذي غمَر الأرض ومن عليها.

[2]ثم قال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]. استبعاداً للوقوع

---

(١) ٣٨ روضة المحبين.		(٢) ١٨٢ التبيان.

وجحداً. فأخبر تعالى أن ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]. والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون، ولكن لفظة على تعطي معنى زائداً على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم في النار يفتنون. ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم [على] بمعنى [في]، كما تكون [في] بمعنى [على].

والظاهر أن فتنتهم على النار، قيل: فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها، ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها. ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات.

وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة، ولهذا قال: (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]. وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها. ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم. ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى، وهو الجنات والعيون، وأنهم ﴿آخِذِينَ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٦]. من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور: منها قبولهم له. ومنها رضاهم به. ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق. ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ماآتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه، وحقوق عباده. ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه. وقد قيل: إن (ما) نافية، والمعنى ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير؟ وهذا ضعيف لوجوه.

أحدها: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ، وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنه ـ سبحانه ـ لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف، أو النقصان منه، أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال: «**يا عثمان أرغبت عن سنتي؟**» قال: لا والله يارسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «**فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله ياعثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصل ونم**[1]». **ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي** الليل كله حتى جعلت حبلاً بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله[2].

السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي ـ الذي سَبَبه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة ـ بقرة الأعين.

الثامن: أن أصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً. فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.

التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام وتقديماً لمعمول العامل المنفي عليه، لأنك تجعل قليلاً مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون. وفصل بعضهم، فأجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره . . .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عائشة.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك.

(١)ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر. فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربهم سجداً وقياماً، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك. وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً. وأمره الله ـ سبحانه ـ أن يختم عمره بالاستغفار. وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار. وشرع ﷺ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة. فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

(٢)﴿كَانُوا قَلِيلاً من الليل مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبي، ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفَقْر والذنوب، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لا يزال لسانُكَ رَطْبًا من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها. وفي الحديث الصحيح الإلهي «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إِليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه». فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته، لا لأهل الفناء المستغرقين في شهود الربوبية.

وقال ﷺ لآخر: «عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة».

(٣)...ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم. فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان، ضد: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٥، ٦]. وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور. والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

(١) ١٨٤ التبيان.
(٢) ٢٦٢ مدارج جـ١.
(٣) ١٨٥ التبيان.

وتأمل حكمة الرب ـ تعالى ـ في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاء، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين. فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع عطاءه بأمره، وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بآياته الأفقية والنفسية، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. فآيات الأرض أنواع كثيرة.

منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به.

ومنها سعتها وكبر خلقها. ومنها تسطيحها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]. ولا ينافي ذلك كونها كروية. فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قراراً.

وجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها.

وجعلها بساطاً، وجعلها كفاتاً للأحياء، تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها. وطحاها فمدها وبسطها، ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة. وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه تكفأ السفينة. فاقتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها، لئلا تميد، وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها، والبناء فيها، والغرس، والزرع، والنوم عليها، والمشي فيها.

ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة. فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة. بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها. وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أغلى وأعز، فغلاؤها وعزتها لقلتها. وإلا فالتراب أنفع منها، وأبرك، وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور. وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان، ولا يتأتى فيه النبات. وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف. فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان، والأنام والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته. وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة. فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها. وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت. وهذه تربة، وتلاصقها رمال. وهذه صلبة، ويلاصقها ويليها رخوة. وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء. وهذه حصي كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر. وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره. وهذه سبخة مالحة. وهذه بضدها. وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم. وهذه مسجرة بالجبال. وهذه لا تصلح إلا على المطر. وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله ـ سبحانه ـ الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها. وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال. ومن بارك فيها، وقدر

فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكنا ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة. ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها، ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات، وأحسن المصنوعات. بل أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وأنشأ منها أولياءه، وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك. ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات.

وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء: كالأب، والأرض: كالأم، والقطر: كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة. وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه. ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب

الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية. وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم. فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال. ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غني عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب ـ تعالى ـ امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات. ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج. وحرارة الصيف للإنضاج. هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فهذا بعض آيات الأرض. ومن الآيات التي فيها وقائعه ـ سبحانه ـ التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ❊ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧]. وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ❊ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۞ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦] . أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله. وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۞ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] . أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون. وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] . قوم عاد ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] . وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده، لا عدة له ولا عدد، ولا مال. فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم، أو أكثرهم على تكذيبه، ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عدداً وقوة، ومنعة وأموالاً:

فيالك من آيات حق لو اهتدى　　بهن مريد الحق، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة　　فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا - إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً، وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرته به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله - سبحانه - وتعالى في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

وهذه الإراءة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يُري الله - سبحانه - أهلَ

كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر، وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير.

ثم قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر، والتفكر في نفسه. فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل. فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه؛ إذا يجده مكوناً من قطرة ماء: لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب. قد قمطت وشدت، وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً، للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها. وجعل داخل بابي السمع مرًّا قاتلاً، لئلا تلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه. وجعل داخل بابي البصر مالحاً، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم. وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليسيغ به ما يأكله ويشربه. فلا يتنغص به لو كان مرًّا أو مالحاً.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه، طليعة له.

وركب هذا النور في جزء صغير جدًّا يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة. وجعل على محله غلقاً بمصراعين أعلا وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين، وزينة وجمالاً. وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل. ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك.

وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلاً مخصوصاً، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة. وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة. ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره.

واقتضت حكمته - سبحانه - أن جعل فيها بياضاً وسواداً، وجعل القوة الباصرة في السواد. وجعل البياض مستقراً لها ومسكناً، وزين كلا منهما بالآخر. وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم، والحواجب بالأهداب. وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر، فضعف الإدراك، فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر. وخلق - سبحانه - لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة، التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل - سبحانه - هذه الأجفان متحركة جدًّا بالطبع إلى الانطباق، من غير تكلف، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات. ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات. وكما جعل - سبحانه - العينين مؤديتين للقلب ما يريانه، فيوصلانه إليه كما ترياه جعلهما مرآتين للقلب، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، الزيغ والاستقامة. فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة: وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب. فالعين مرآة للقلب، وطليعة ورسول.

ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها. وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان؛ فإنها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك: الأذنان، شقهما - تبارك وتعالى - في جانبي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع. وأودعهما القوة السمعية.

وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات، لتطول المسافة قليلاً، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته، فلا يصدمها وهلة واحدة، فيؤذيها.

وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك، فسهل إخراجه.

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان.

وأما الأذنان فكان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان، وأمامه، وعن يمينه، وعن شماله سواء. فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة.

وخلقت العينان بغطاء، والأذنان بغير غطاء. وهذا في غاية الحكمة. إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء. والصوت عرض لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء، بخلاف ما تراه العين، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين.

وجعل ـ سبحانه ـ الأذن عضواً غضروفيًا ليس بلحم مسترخ، ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد، والشمس والسموم تأثر اللحم. إذ المصلحة في بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار.

ومن ذلك الأنف؛ نصبه سبحانه في وسط الوجه قائماً معتدلاً، في أحسن شكل وأوفقه للمنفعة، وأودعه حاسة الشم، التي يدرك بها الروائح وأنواعها. . .[1].

[2]**وتأمل** كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضًا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [التغابن: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

---

(١) بحث المؤلف بحثًا مطولاً فمن أراده فليرجع إليه (ج).   (٢) ١١٦ بدائع جـ١.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ[1] وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة أخباراً بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط، بل قال: السبع.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات فكان لفظ الإفراد أليق بها. ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجيء في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء نفسها، بل المراد الوصف وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعاً وإفراداً وتقديماً وتأخيراً إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه.

[2]... **ومن** تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق. كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]. أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: **«إنه لحقّ مثلَ ما أنك ههنا». فكأنه ـ سبحانه ـ يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق.**

---

(١) في المطبوعة زيادة [ومن في] الأرض وهي غير موجودة بالآية. المراجع.
(٢) ١١٠ التبيان.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه(١).

(٢)**ورأس** الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله حيث تستولى على الفكر، وتشغل القلب، فإذا صار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكناً وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وهي تَمُرّمَرَّ السَّحابِ﴾ [النمل: ٨٨].

فصل

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البين(٣) غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد. قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠] فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم. وإنما امرأته عجبت من ذلك. فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت أداب الضيافة وحقوقها، وكيف ترعى حق الضيف؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه؟

---

(١) هذا جزء من تفسير قول الله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون﴾ وهو بكامله موجود في سورة الحاقة اهـ (ح).

(٢) ٥٠ التبوكية.		(٣) لعله: البيان.

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. افتتح ـ سبحانه ـ القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة الاستفهام. ولهذا قال بعض الناس: إن [هل] في مثل هذا الموضع بمعنى [قد] التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فيقول له: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكراً به وإما واعظاً له مخوفاً، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له.

فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩]. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١]. و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

ففيه أمر آخر وفيه وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في المكرمين قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله، كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾

[الأنبياء: ٢٦] . هو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] . متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن. ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون فتذمم منهم، ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش وكان النبي، ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه، بل يقول: **«ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا»**.

الثاني: قوله: ﴿قوم منكرون﴾ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر ﴿نكرهم﴾ ولا ريب أن قوله: منكرون، ألطف من أن يقول أنكرتم. وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف، منها قول: ﴿فراغ إلى أهله﴾، والروغان بسرعة واختفاء[1] وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وأن لا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبادر[2] على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة راغ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله: ﴿إلى أهله﴾ مدح آخر لما فيه من الأشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

---

(١) كذا في الأصل. وفي لسان العرب (وراغ فلان إلى فلان) أي مال إليه سرًّا. ومنه قوله تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فقال الفراء: فراغ إلى أهله. معنا رجع إلى أهله في حال إخفاء منه لرجوعه.

(٢) كذا بالأصل ولعله (يتنادر) أو (يتبارد).

وقوله: ﴿فجاء بعجل سمين﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح.

إحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ليتخيروا من أطيب لحمه ماشاؤا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين فإنهم يعبجون به فمن كرمه هان عليه ذبحه واحضاره.

وقوله: ﴿إليهم﴾ متضمن المدح وآدابًا أخرى وهو احضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيء الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿ألا تأكلون﴾ فيه مدح وآداب أخر فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: **﴿ألا تأكلون﴾** وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول: ضعوا إيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا ونحو هذا. **﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾** [الذاريات: ٢٨]. لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك **﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾** [الذاريات: ٢٨] وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل لأن امرأته عجبت من ذلك، فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنىّ لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر، وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾** [هود: ٧١]. وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: **﴿فَأَقبلت امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾** [الذاريات: ٢٩] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، ولم تقل: أنا عجوز عقيم. واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره. وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم، وصرحت بالعجب. وقوله تعالى: **﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾** [الذاريات: ٣٠] متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: **﴿إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾** [الذاريات: ٣٠]. متضمن لإثبات

صفة الحكمة والعلم الذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته. وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال.

فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب. ولهذا كان أصح القولين: إن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل مايدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله ومنته على عباده عن غيرها كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق من الله كتبت في ذلك سفراً كبيراً لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف وحسن البيان والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين بخلاف غيره من الأدلة، فإنها على العكس من ذلك، وليس هذا موضع التفصيل. والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته.

واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائها لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رُسله وصحة ما أخبروا به عن ربهم. ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]. ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً. وقوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين. وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد. وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهـو: إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثنى الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس، وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود و المؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]. فيه دليل على أن آيات الله ـ سبحانه ـ وعجائبه التي فعلها في هذا العالم، وأبقى آثارها دالـة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى، كما قال الله ـ تعالى ـ في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]. فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثاره وكنوزه، ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**قال** الله تعالىٰ: ﴿**فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ**﴾ [الذاريات: ٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلىٰ شيء. وهو نوعان: فرارالسعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلىٰ الله عز- وجل -. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿**ففروا إلىٰ الله**﴾ فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فِرُّوا مما سوىٰ الله إلىٰ الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلىٰ ثواب بالإيمان والطاعة.

(٢)**قال** تعالىٰ: ﴿**فَفِرُّوا إِلَىَ اللهِ**﴾ والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه. وتحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه - سبحانه - يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلـٰهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإن ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**» وقوله: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**» فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً. فالفار والمستعيذ فار مما أوجد قدر الله ومشيئته وخلقه إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه.

ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، مستعيذ بالله منه. وتصور هذين الأمرين

(١) ٤٦٩ مدارج جـ١. (٢) ٧١ التبوكية.

يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة. فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده. فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء. ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجباً لخوفه منه مثل من يفر من مخلوق إلىٰ مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذراً أن لا يكون الثاني يعيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضىٰ وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره.

فتفطن إلىٰ هذا السر العجيب في قوله: «**أعوذ بك منك**» «**ولا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك**» فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلىٰ الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ. ولهذا قال النبي ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» ولهذا يقرن ـ سبحانه ـ بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أن الهجرة إلىٰ الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لا بد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلىٰ خلاف ما يحبه ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلىٰ غير مرضاة ربه وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه. فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله ولا ينفك في هجرته إلىٰ الممات.

فصل

وهذه الهجرة تقوىٰ وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوىٰ كانت هذه الهجرة أقوىٰ وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتىٰ لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة.

والذي يقضي منه العجب أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً، وأما هذه الهجرة التي هي واجبة علىٰ مدىٰ

الأنفاس لا يحصِّل فيها علماً ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من غشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان. وبالله التوفيق. لا إلـٰه غيره، ولا رب سواه.

...(1)**ولما** كانت الدنيا حقيرة عند الله، لاتساوي لديه جناح بعوضة كانت ومافيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة. وهو- سبحانه - إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ماكان متضمناً لإقامة ذكره ومفضياً إلىٰ محابه، وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنىٰ عليه ويمجد، ولهذا خلقها وخلق أهلها. كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون**﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرِ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ علىٰ كلِّ شَيْءٍ قديرٌ وأَنَّ اللهَ قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً**﴾ [الطلاق: ١٢] فتضمنت هاتان الآيتان أنه - سبحانه - إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد، فهذا المطلوب، وماكان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنىٰ من اللعنة واللعنة. واقعة علىٰ ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله - سبحانه - إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضىٰ إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

(2)**الوجه** الثامن: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحساناً. فهو سبحانه - لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليعبدُون * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُون * إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. وقال تعالىٰ: ﴿**وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ**

(1) ٦٩ مفتاح جـ١.		(2) ٤١ إغاثة جـ١.

مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلىٰ ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلىٰ نفسه، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلة وطريقاً إلىٰ وصول نفع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلىٰ ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره.

وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلىٰ نفسه بإحسانه إلىٰ الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالىٰ في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلىٰ نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلىٰ يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص علىٰ ما ينفعه ولا يعجز عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالىٰ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «**ياعبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ ياعبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[1].

[2] **وينتصل** ـ سبحانه ـ إلىٰ عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته، ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به. وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر رضي الله عنه في حديثه الطويل. (٢) ١٣٥ طريق الهجرتين.

ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول ـ سبحانه ـ: «إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء»، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم . . .

[1]**وقال:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو ـ سبحانه ـ كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنىٰ عليه ويذكر بأوصافه العلي وأسمائه الحسنىٰ. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**» وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال: يارسول الله، إني حمدت ربي بمحامد فقال: «إن ربك يحب الحمد».

فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثني على نفسه. ويحمد نفسه، ويقدس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثني عليه.

بل كلما كانت محبة عبده له أقوىٰ كانت محبة الله له أكمل وأتم، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثني عليه. ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه لأنه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة، والتسوية فيها بينه وبين غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التي يسقط بها من عينه، وتنقص بها

(١) **٢٣٩** طريق الهجرتين.

مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين.

فكيف يحتمل ربّ العالمين أن يشرك بينه وبين غيره في المحبة. والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضىٰ به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبداً، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات في حقه. ومتىٰ علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب، ولم يقربه إليه، هذا مقتضىٰ الطبيعة والفطرة.

أفلا يستحي العبد أن يسوي بين إلهه ومعبوده وبين غيره في هذه العبودية والمحبة؟ قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من أحب شيئاً دون الله كما يحب الله فقد اتخذه نداً. وهذا معنىٰ قول المشركين لمعبوديهم: ﴿**تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

فهذه تسوية في المحبة والتأليه، في الذات والأفعال والصفات.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه، وخلق خلقه لذلك، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك، وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والأرض وكان الخلق والأمر، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذي خلق له فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه إذ كان يحب ويرضىٰ، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته، لأنه خرج عما خلق له وصار إلىٰ ضد الحال التي هو لها، فاستوجب منه غضبه بدلاً من رضاه، وعقوبته بدلاً من رحمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الذاريات

والحمد لله رب العالمين

سورة الطور　ترتيبها ٥٢　آياتها ٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالى ـ : ﴿**والطُّورِ * وكتابٍ مَّسطُورٍ * في رَقٍّ منشُورٍ * والبيتِ المعْمورِ * والسَّقفِ المرفُوعِ * والبحرِ المسْجُورِ * إنَّ عذابَ ربِّكِ لَوَاقعٌ * مالَه من دافعٍ**﴾[الطور: ١ ـ ٨]. تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة. فقال ﴿**وطُورِ سِينِينَ**﴾[التين: ٣] وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا، والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبدالله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان، قال حدثنا جعفر بن سليمان، قال حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى الجبال: إني نازل على جبل منكم. قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور، فإنه تواضع، وقال: أرضى بما قسم الله لى، فكان الأمر عليه، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به، وإنه لسيد الجبال.

(الثاني) الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل: هو اللوح المحفوظ؛ وهذا غلط، فإنه ليس برق. وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور. وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من لم يذكر غيره، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال. هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح.

(١) ١٦٥ التبيان.

وقيل هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال، لأنه ـ سبحانه ـ وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة. فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين. نبوة موسى، ونبوة محمد. وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون.

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور. وفي وصفه الكتاب بأنه: مسطور. تحقيق لكونه مكتوبًا مفروغًا منه. وفي وصفه بأنه: منشور. إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور. وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي، ﷺ، ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض وقيل: هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلا منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما: السقف المرفوع، وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدرًا وارتفاعًا، وسعة وسمكًا، ولونًا، وإشراقًا وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار، والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف. ومنها تنزل البركات. وإليها تصعد الأرواح، وأعمالها وكلماتها الطيبة.

والثاني: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[الطور: ٦]، وهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا الله. واختلف في هذا البحر، هل هو الذي فوق السموات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين:

فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه أبو داود، من حديث سماك عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس، قال كنت بالبطحاء في عصابة، فيهم رسول الله، ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «**ما تسمون هذه؟**» قالوا: السحاب، قال: «**والمزن؟**» قالوا: والمزن، قال: «**والعنان؟**» قالوا: والعنان قال: «**هل**

تدرون ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري، قال: **«إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، مابين أسفله وأعلاه مثل مابين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك»**. وهـذا لا ينـاقض ما في جامع الترمذي **«إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام»** إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسائة مقدرة بسير الأبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل سبعة أضعاف وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكى عن علي بن أبي طالب.

والثاني أنه بحر الأرض واختلف في المسجور، فقيل المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة. قال الفراء: المسجور في كلام العرب: المملوء. يقال: سجرت الاناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا　　مسجورة متجاور أقـــلامها

وقال المبرد: المسجور: المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عينا مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجورة الممتلىء. وقال مجاهد: المسجور الموقد. قال الليث: السجر إيقادك في التنور تسجره سجرًا، والسجر اسم الحـطب. وهـذا قول الضحـاك وكعب وغـيرهما. قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القــول عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنــه ـ. قال:
جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. قال: مسجور. قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول: سجرت التنور إذا ملأته حطبًا. ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف. وهذا القول اختيار أبي العالية. قال أبو زيد: المسجور: المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء، جعله من الأضداد.

وقد روي عن ابن عباس أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد [illegible] كه. والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض

على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعًا «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم». وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره.

وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين ـ غير معقولة. فإن العناية الإلهية تقتضي حياته، وقدرته، ومشيئته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به. فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع. وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد. وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[التكوير: ٦]. قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها، فلا يناقض كونها نارًا موقدة. وكذا من قال: ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا: فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني. والله أعلم.

(١)**ومن** آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب ـ تبارك وتعالى ـ له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء.

ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء

(١) ٢٠٤ مفتاح جـ٢.

طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية، والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضي في الأرض وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**».

وهذا أحد الأقوال في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ**﴾ [الطور: ٦]. أنه المحبوس حكاه ابن عطية وغيره. قالوا: ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها، حتى أن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيء، وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلاً، هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها، وهي الصدفة تكنها وتحفظها، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي.

وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء.

قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]. وقال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٤]، فما

أعظمها من آية وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا.

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله ـ سبحانه ـ وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[الحاقة: ١١، ١٢].

(١)**وهذا** عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ**﴾[الطور: ٧]. فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثا، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة فيبقى في البيت أيامًا ويعاد، يحسبونه مريضًا وكان في وجهه رضي الله عنه، خطان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس. مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، وفعل. فقال: وددت أني أنجو؛ لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

(٢)**وأقسم** ـ سبحانه ـ بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿**إِنَّ عذابَ رِبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِن دَافِعٍ**﴾، [الطور: ٧ ـ ٨]. ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر ـ سبحانه ـ أن لا دافع له. وهذا يتناول أمرين: أحدهما أنه لا دافع لوقوعه، والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع

ثم ذكر ـ سبحانه ـ وقت وقوعه، فقال: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْرًا**﴾[الطور: ٩، ١٠]. والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال. فقال: ﴿**وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيراً**﴾[الطور: ١٠]، وقال: ﴿**وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ [التكوير: ٣] من مكان إلى مكان. وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء. قال الجوهري: مار الشيء يمور مورًا، ترهيأ أي: تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة، أي الطويلة. ومنه قوله: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا**﴾ [الطور: ٩].

---

(١) ٤٩ الجواب الكافي.
(٢) ١٦٩ التبيان.

قال الضحاك: تموج موجًا. وقال أبو عبيدة، والأخفش: تكفأ. وأنشد: للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة، لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح. بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم، وهم يدعون إليها دعًا أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعًا بعد دفع. فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿**هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾[الطور: ١٤]. وتقولون: لا حقيقة لها، ولا من أخبر بها صادق. ثم يقال: ﴿**أَفَسِحْرٌ هَذَا**﴾[الطور: ٥]. الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذ: ﴿**فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا**﴾[الطور: ١٦]، كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب. ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم اعلموا بأن الرب ـ تعالى ـ لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدًا، بل صارت عذابا لازما لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا. فإذا زال ذلك باللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كليًا لم يعذبوا عليه في الآخرة، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل

تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض. وغلب الأقوى الأضعف، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أرباب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم. وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[الطور: ١٨] والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه ـ بالكسر ـ يفكه فهو فكه، وفاكه إذا كان طيب النفس، والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء. إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها ومنه قوله: ﴿فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ﴾[الواقعة: ٦٥] قيل: معناه تندمون وهذا تفسير يلازم المعنى وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه وإذا زال التفكه خلفه ضده يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج، وتحوب وتأثم. ومنه تفكه. وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم، وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقًا؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقًا لأعمالهم. ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله ﴿هنيئًا﴾ فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[الطور: ٢٠]، وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا. كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾[الواقعة: ١٦]، فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدًا منه، قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين

الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن. وليس من عقد التزويج. واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب:٣٧]، وفي الحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن» وقال غيره: العرب تقول: تزوجت بامرأة، وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، ليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾[الطور: ٢٠] أي قرناهم وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أى شفعناهم وقرناهم بهن. وقالت طائفة، منهم مجاهد: زوجناهم بهن أى: أنكحناهم إياهن. قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد. والله أعلم.

وأما الحور العين، فقال **مجاهد**: التي يحار فيها الطرف باديًا مُخُّ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون. وقال قتادة بحور، أى بيض. وكذا قال ابن عباس.

وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه، العين: الحسان الأعين. وعين حوراء: شديدة السواد، نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد. فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[الرحمن: ٧٠] فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن. وقد وصف الله - سبحانه - نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه...

(1)**ثم** أخبر - سبحانه - عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم. وأخبر - سبحانه - أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء، ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر - سبحانه - أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا

---

(١) ١٧٣ التبيان.

يفعل بهم ذلك، بل ﴿**كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾. [الطور: ٢١]. ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿**وَمَا أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِنْ شَيْءٍ**﴾[الطور: ٢١] دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿**وما أَلَتْناهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ**﴾ أي ما نقصناهم.

[1]**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الطور: ٢١] فهذه الآية تدل على أن الله ـ سبحانه ـ يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وأنهم يكونون معهم في درجتهم. ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن الله لم يلتهم ـ أى لم ينقصهم ـ من أعمالهم شيئًا، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعًا وإن لم يكن لهم أعمال الآباء، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿**كُلُّ امْرِىءٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ**﴾. [الطور: ٢١]، وتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهَمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بإيمانٍ**﴾. [الطور: ٢١]. كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقًا بأمرين: أحدهما إيمان الآباء، والثاني اتباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الاتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ. وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: أُتى النبي ، ﷺ، بصبي من الأنصار يصلي عليه. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، لم يعمل شرًّا، ولم يدره. قال: «**او غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم. وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم**». فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ. فهذا وجه

(١) ٣٩٦ طريق الهجرتين.

الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الامام أحمد وقال: لا يصح. ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة؟ وتأوله قوم تأويلات بعيدة. . .

(١)**ومن** ذلك قوله ـ تعالى ـ **﴿والَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾**. [الطور: ٢١]. ولما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بأبائهم في الدرجة فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية فرفع هذا التوهم بقوله: **﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾** أي: ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله ـ تعالى ـ: **﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾**[الطور: ٢١]، ومن هذا قوله تعالى: **﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾**[النمل: ٩١]، فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله **﴿وله كل شيء﴾** ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بالغُ أمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شيْءٍ قَدْرًا﴾**[الطلاق: ٣]. فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: **﴿قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**، أى وقتًا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جدًا في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص.

(٢)...**ومن** ذلك قوله ـ تعالى ـ **﴿والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمان ألحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم** وَمَا أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِّن شيء كُلُّ أمرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

فتأمل كم في هذا الكلام من رفع إيهام. منها قوله **﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾** لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق أو غير ذلك.

ومنها قوله **﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** لرفع توهم أن الآباء تحط إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية. فأزال هذا الوهم بقوله: **﴿وما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ**

---

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤. (٢) ٧٠ مختصر الصواعق جـ١.

عَمَلِهِمْ﴾ أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئًا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم قرةً لعيونهم وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة.

ومنها قوله: ﴿كُلُّ امْرِىءِ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فلا يتوهم متوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يعذب أحدًا إلا بكسبه وقد يثيبه من غير كسبه.

ومنها قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾[الأحزاب: ٣٢]، فلما أمرهن بالتقوى التي شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول لئلا يطمع فيهن ذو المرض. ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف دفعًا لتوهم الإذن في الكلام المنكر. لما نهين عن الخضوع بالقول. ومنه قوله تعالى: ﴿وكُلوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[البقرة: ١٨٧]، فرفع توهم فهم الخيطين من الخيوط بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] فلما أثبت لهم مشيئة فلعل متوهمًا يتوهم استقلالهم بها فأزال ـ سبحانه ـ ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [التكوير: ٢٩][1].

فصل[2]

في ارتقاء العبد وهو في الجنة من درجة إلى درجة أعلى منها

قال الإمام أحمد ثنا يزيد أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب أنّىٰ لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**».

فصل

في إلحاق ذرية المؤمن به في الدرجة وإن لم يعملوا عمله

قال ـ تعالى ـ: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحقنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ومَا أَلَتْنَاهُم مِّن عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. [الطور: ٢١]. وروى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال، **قال رسول الله، ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في**

(١) هذا المبحث فيه فوائد كثيرة قبله وبعده. (ج)   (٢) ٢٨٥ حادي الأرواح.

العمل لتقربهم عينه ثم قرأ ﴿والَّذِينَ آمنوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وما أَلَتْنَاهُم مِّن عَمَلِهِم من شيْء﴾ قال: ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين»
(وذكر) ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «**إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم ثم تلا ابن عباس ﴿والَّذِينَ آمنوا وأَتْبَعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ﴾** إلى آخر الآية.

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبنى على أن قوله: ﴿**بإيمان**﴾ حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين فقالت طائفة: المعنى والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم، فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به ألحقناهم بهم في الدرجات.

قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ**﴾. [الطور: ٢١] **فجعل** الفعل في الاتباع لهم. قالوا: وقد أطلق الله ـ سبحانه ـ الذرية على الكبار كما قال: ﴿**ومن ذُرِّيَّتِه داودَ وسُلَيْمانَ**﴾[الأنعام: ٨٤]، وقال: ﴿**ذُرِّيَّةَ من حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ**﴾[الإسراء: ٣]، وقال: ﴿**وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهم أَفَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٣] وهذا قول الكبار العقلاء. قالوا: ويدل على ذلك مارواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «**إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرّبهم عينه**» فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها. قالوا: وأيضًا فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار.

وعلى هذا فيكون المعنى أن الله ـ سبحانه ـ يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وإن كانوا دونه في الإيمان رفعهم الله إلى درجته إقرارًا لعينه وتكميلاً لنعيمه وهذا كما أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعًا وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن. وقالت طائفة أخري: الذرية ههنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارًا في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم

والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك إلا فيما كان من أحكام البالغين ويكون قوله بإيمان على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين أي وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء. قالوا: ويدل على صحة هذا القول أن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا: ويدل عليه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ جعلهم معهم تبعًا في الدرجة كما جعلهم تبعًا معهم في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعًا بل إيمان استقلال. قالوا: ويدل عليه أن الله ـ سبحانه ـ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن الله ـ سبحانه ـ يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضًا فالحور العين والخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين، فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم. وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية على الصغار والكبار لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب. قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير والواحد والكثير والابن والأب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] أي: آباءهم. والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ [النساء: ٩٢]. فلو أعتق صغيرًا جاز. قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: **إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عيونهم»** ثم قرأ هذه الآية، وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك. وقال أبومجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب أن يجتمعوا في الدنيا. وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء. وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء،

وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا، قال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين فمن قرأ: ﴿واتبعتهم ذريتهم﴾ فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم كما قال تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُـون مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] ومن قرأ: ﴿وأتبعناهم ذرياتهم﴾ فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكمًا فدلت القرآءتان على النوعين. قلت: واختصاص الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] وقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة: اللحم» ومن حديث بريدة يرفعه «خير الإدام في الدنيا وأهل الجنة: اللحم» وفي الصحيح عنه ﷺ: «فضل عائشة على سائر النساء: كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد: الخبز واللحم. قال الشاعر(٢):

إذا ما الخبزَ تأدُمه بلحم	فذاك - أمانةَ الله - الثريد

وقال الزهري: أكل اللحم يزيد سبعين قوة. وقال محمد بن واسع: اللحم يزيد في البصر. ويروي عن علي بن أبي طالب «كلوا اللحم، فإنه يصفي اللون، ويُخْمِصُ البطن، ويُحسِّن الخلق» وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم، وإذا سافر لم يفته اللحم، ويذكر عن علي «من تركه أربعين ليلة ساء خلقه» وأما حديث عائشة الذي رواه أبوداود مرفوعًا «لاتقطعوا اللحم بالسكين: فإنه من صنيع الأعاجم، وانْهَسُوْه نَهْسًا، فإنه أهنأ وأمرأ»(٣) فرده الإمام أحمد بما صح عنه ﷺ من قطعه اللحم بالسكين في حديثين وقد تقدما.

(٤) قال الله - تعالى -: ﴿ولَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] وفي مسند البزار وغيره مرفوعًا: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخر مشويًا بين يديك» ومنه حلال، ومنه حرام. فالحرام: ذو المخلب كالصقر والبازي والشاهين،

(١) ٣٩١ زاد المعاد جـ٣.
(٢) وهو ابن برى، كما في اللسان.
(٣) قال المنذري (٥: ٤: ٣ حديث ٣٦٣٠) في إسناده: أبومعشر السدي المدني واسمه نجيح. كان يحيى بن سعيد القطان لايحدث عنه ويستضعفه جدًا.
(٤) ٣٩٧ زاد المعاد جـ٣.

ومايأكل الجيف كالنسر والرَّخم، واللقلق، والعقعق، والغراب الأبقع والأسود الكبير. وما نهى عن قتله، كالهدهد والصُّرَد، وماأمر بقتله كالحدأة، والغراب.

والحلال أصناف كثيرة، فمنه: الدَّجاج. ففي الصحيحين من حديث أبي موسى «**أن النبي ﷺ أكل لحم الدجاج**» وهو حار رطب في الأولى، خفيف على المعدة سريع الهضم، جيد الخلط، يزيد في الدماغ والمني، ويصفي الصوت. ويحسن اللون، ويقوي العقل، ويولد دمًا جيدًا، وهو مائل إلى الرطوبة، ويقال: إن مداومة أكله تورس النقرس ولا يثبت ذلك، ولحم الديك أسخن مزاجًا وأقل رطوبة، والعتيق منه دواء. ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة إذا طبخ بماء القرطم، والشبَت، وخصيها محمود الغذاء، سريع الانهضام، والفراريج: سريعة الهضم ملينة للطبع، والدم المتولد منها دم لطيف جدًا.

(1)**ثم** ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من الغلو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال: ﴿**لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ**﴾ [الطور: ٢٣] فنفى باللغو السباب، والتخاصم، والهجر والفحش في المقال، والعربدة. ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**ولا تأثيم**﴾ ولم يقل ولا إثم، أي: ليس فيها مايحملهم على الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضًا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا، ولم يقع منهم مايؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لاتدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة. بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿**إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً**﴾ [الإنسان: ١٩] ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مايتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿**إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا**

(١) ١٧٣ التبيان.

مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر. فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن مَنَّ الله علينا، فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورًا. فهذا كان مسرورًا مع إساءته. وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم. فبدل الله ـ سبحانه ـ إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف. فبالله سبحانه المستعان. ثم أخبر عن حالهم في الدنيا. وأنهم كانوا يعبدون الله فيها. فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته؛ فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم.

فصل(١)

في ارتفاع العبادات في الجنة إلا عبادة الذكر فإنها دائمة

روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحًا: كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس**». وفي رواية «**التسبيح والتكبير كما تلهمون**» بالتاء المثناة من فوق، أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس كما تلهمون أنتم النفس.

فصل

في تذاكر أهل الجنة ماكان بينهم في دار الدنيا

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قال قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ الآيات، وقد تقدم الكلام عليها وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُون * قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٧] وذكر ابن أبي الدنيا من حديث الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس يرفعه: «**إذا دخل أهل الجنة فيشتاق الأخوان بعضهم إلى بعض فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعًا فيتكىء هذا، ويتكىء هذا فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟**

(١) ٢٩١ حادي الأرواح.

فيقول صاحبه: نعم يوم كذا وكذا، في موضع كذا وكذا فدعونا الله، فغفر لنا» وإذا تذكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الأحاديث أولى وأحرى فإن المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذ من الطعام والشراب والجماع، فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذه لذة يختص بها أهل العلم ويتميزون بها على من عداهم.

(1)**وقال** تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتَساءَلُون * قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ في أهلنا مُشْفِقِين فَمَنَّ الله علينا ووَقَانَا عذابَ السَّمُوم * إنا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّه هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨] وقال الطبراني حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة، قال: سئل رسول الله ﷺ: أيتزاور أهل الجنة؟ قال: «**يزور الأعلى الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلى إلا الذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤا على النوق محتقبين الحشايا**»(٢) وقال الدورقي: حدثنا أبوسلمة التبوذكي حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: «بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولايزور الأسفل الأعلى» وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحيى بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب يرفعه «**إن أهل الجنة يتزاورون على النجائب**» وقد تقدم فأهل الجنة يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضًا، وبذلك تتم لذتهم وسرورهم ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: «**كيف أصبحت ياحارثة؟** قال: أصبحت مؤمنًا حقًا، قال: «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت(٣) نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نور الله قلبه**» وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبدالله حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق**

---

(١) ١٨٦ حادي الأرواح.　　(٢) أي جعلوا وراءهم الفرش، والحشايا الفرش واحدها حشية.

(٣) عزفت نفسي عن الدنيا أي كرهتها وعافتها ويروى عزفت بضم التاء أي منعتها وصرفتها.

الأخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»...

(١)...**وأما** قوله ـ تعالى ـ: **﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّه هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾** فهذا دعـاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبـادة وبهـذا استحثوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره فإن الله ـ سبحانه ـ يسأل من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي باخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

(٢)**ومن** هذا احتجاجه ـ سبحانه ـ على المشركين بقوله ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾** [الطور: ٣٥، ٣٦] فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأوضح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل عاقل. ثم قال ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُون﴾** وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد خالقًا لنفسه، فإن من لايقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقًا لنفسه؟ وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم فهو الإلٰه الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون إلٰهًا غيره وهو وحده الخالق لهم؟

فإن قيل: فما موقع قوله ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ﴾** من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا فاطرًا وبين بالقسم الثالث: أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفسوهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إلٰه غيره ولارب سواه هو الـذي خلقهم وخلق السمـوات والأرض، فهـو المتفـرد بخلق المسكن والساكن.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطور

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥ بدائع جـ٣.

(٢) ١١٠ مختصر الصواعق جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

ثم أُسْرِيَ برسول الله ﷺ ـ بجسده على الصحيح ـ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبا على البراق صحبة جبرائيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ. فنزل هناك وصلَّى بالأنبياء إمامًا، وربط البُراق بحلْقة باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل ببيت لحم وصلى فيه، ولم يصح ذلك عنه ألبتة. ثم عُرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل، ففتح له.

فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرد عليه السلام، ورحب به، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عُرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم. فلقيهما، وسلم عليهما فردًا عليه، ورحبا به، وأقرا بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف. فسلم عليه فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس. فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران. فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران. فسلّم عليه، فرد عليه ورحّب به، وأقرّ بنبوته. فلما جاوزه بكى موسى. فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي، لأن غلامًا بُعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثرُ مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم. فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم رُفع إلى سِدْرة المنتهى. ثم رفع له البيت المعمور.

ثم عُرج به إلى الجبار ـ جل جلاله ـ فدنا منه، حتى كان قاب قَوْسين أو أدنى. **فأوحى** إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة. فرجع حتى مرّ على

---

(١) ١٢٥ زاد المعاد جـ٢.

موسى، فقال له: «بِمَ أمرت؟ قال: بخمسين صلاة. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلكَ. ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل ـ كأنه يستشيره في ذلك ـ فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبرائيل، حتى أتى به الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وهو مكانه[1]ـ هذا لفظ البخاري في بعض الطرق ـ فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مرّ بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله ـ عز وجل ـ حتى جعلها خمساً: فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم. فلما بعد نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي».

واختلف الصحابة: هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس «أنه رأى ربه» وصح عنه أنه قال: «رآه بفؤاده» وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى**﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. إنما هو جبريل» وصح عن أبي ذرٍّ: أنه سأله: «هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور، أنّى أراه؟**» أي حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «**رأيت نورًا**» وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي إتفاق الصحابة على أنه لم يره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضًا لهذا، ولا قوله «رآه بفؤاده» وقد صح عنه أنه قال: «**رأيت ربي تبارك وتعالى**» ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتُبِس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ تلك الليلة في منامه. وعلى هذا بنى الإمام أحمد، وقال: «نعم، رآه حقًا، فإن رؤيا الأنبياء حق، ولابد» ولكن لم يقل أحمد: إنه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: «رآه» ومرة قال: «رآه بفؤاده» فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه «أنه رآه بعيني رأسه» وهذه نصوص أحمد

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد. وقد شرحه الحافظ في الفتح (ج ١٣ ص٣٦٨ـ٣٧٥) وذكر اعتراضات الخطابي وابن حزم وغيرهما على شريك في روايته لألفاظ في هذا الحديث تفرد بها: ومنها هذا الموضع. وقد أجاب الحافظ عن هذه الاعتراضات، واستظهر أن المقصود النبي، ﷺ، وأنه بقي في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه.

موجودة، ليس فيها ذلك. وأما قول ابن عباس: «إنه رآه بفؤاده مرتين» فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأى﴾ [النجم: ١١]. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، والظاهر أنه مستنده ـ فقد صح عنه ﷺ: أن هذا المرْئِيَّ جبريل، رآه مرتين في صورته التي خُلق عليها. وقول ابن عباس هذا، هو مستند الإمام أحمد في قوله: «رآه بفؤاده» والله أعلم.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدنو والتدلى في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم: هو دُنو جبريل وتَدَلِّيه، كما قالت عائشة وابن مسعود. والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَه شَدِيدُ القُوىٰ﴾ [النجم: ٥]، وهو جبريل ﴿ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٦-٨]. فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوي. وهو ذو المِرّة ـ أى القوة ـ وهو الذي استوى بالأفق الأعلى. وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قَدْر قاب قَوْسين أو أدنى، فأما الدنو والتدلى الذي في حديث الإسراء: فذلك صريح في أنه دنو الرب ـ تبارك وتعالى ـ وتدليه، ولا تَعَرُّضَ في سورة النجم لذلك، بل فيها: أنه «رآه نَزْلة أخرى، عند سِدْرة الْمُنْتَهىَ» وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرةً في الأرض، ومرةً عند سدرة المنتهى. والله أعلم.

فصل

فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه: أخبرهم بما أراه الله ـ عز وجل ـ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، وضراوتهم عليه، وسألوه: أن يصف لهم بيت المقدس؟ فجلَّاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا. وأخبرهم عن عِيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها. وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها. فكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا، وأبى الظالمون إلا كفورا.

(١)**قوله** تعالى: ﴿والنَّجْمِ إذا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ومَا غَوَى * ومَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٣]، أقسم ـ سبحانه ـ بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله

(١) ١٥٢ التبيان.

وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي. واختلف الناس في المراد بالنجم: فقال الكلبي، عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجما على رسوله: أربع آيات، وثلاثا، والسورة. وكان بين أوله وآخره عشرون سنة[1].

وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء. وعلى هذا فسمى القرآن نجما، لتفرقه في النزول. والعرب تسمى التفرق تنجما، والمفرق نجما، ونجوم الكتاب أقساطها، ويقول: جعلت مالى على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم - يريدون الثريا - حل عليك الدين. ومنه قول زهير، في دية جعلت نجوما على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ** ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقا وإن لم يكن موقتا بطلوع نجم. وقوله: (هوي) على هذا القول، أي: نزل من أعلى إلى أسفل. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوى هويا - بفتح الهاء - إذا انقضت على صيد أو غيره. وكذلك قال ابن الأعرابي. وفرق بين الهوى لقوله:

والدلو في أصعادها عجل الهوي.

وقال الليث: العامة تقول الهوى - بالضم - في مصد هوى يهوى وكذلك قال الأصمعي: هوى يهوى هو بفتح الهاء، إذا سقط إلى أسفل. قال. وكذلك الهوي في السير إذا مضى.

وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى الهوي بفتح الهاء واحتج بها في الصحيح، من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده «سبحان ربي الأعلى» الهوي. فظن أبو محمد: أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه رحمه الله. وإنما الهوي على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل. يقال: مضى هويّ من الليل، على وزن فعيل. ومضى هزيع منه، أي: طرف وجانب، وكان يقول: «سبحان ربي الأعلى» في قطعة من الليل

---

(١) كذا في الأصل والصواب هو ثلاث وعشرون سنة أ. هـ. (ج).

وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» الهوي من الليل.

عدنا إلى قوله: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**﴾ وقال ابن عباس، في رؤية علي بن أبي طلحة، وعطية: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد. والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا. قال: فباتت تعد النجم وقال أبو حمزة اليماني: يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقال ابن عباس، في رواية عكرمة: يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن. وهو أظهر الأقوال ويكون ـ سبحانه ـ قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله ـ سبحانه ـ آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لاسبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصدا بين يدي الوحي، وحرسا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويا. ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً، لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكروا البعث، فإنه ـ سبحانه ـ إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن. والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمى الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه، وأسماؤه، وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسًا لهذه النجوم الهاوية. ونفى ـ سبحانه ـ عن رسوله الضلال المنافِي للهدى، والغي المنافي للرشاد. ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد. فالهدى في علمه، والرشاد في علمه.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه. وبهما وصف

النبي، ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»(١).

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضـال الغـاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبًا، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ** إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاو في قصده وعمله. وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية(٢) ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث ضال في علمه، ولكن قصده الخير. وهو لا يشعر. الرابع مهتد في علمه راشد في قصده. وهؤلاء ورثة الأنبياء. وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثرون عند الله قدرًا، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال ـ سبحانه ـ: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢]. ولم يقل ما ضل محمـد. تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمـرًا واحدًا قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَم لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]. وبقوله ﴿وما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُون﴾ [التكوير: ٢٢].

فصـــل

ثم قال ـ سبحـانـه ـ: ﴿وَمَـا يَنْـطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤] ينـزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى. وبهذا الكمال هداه ورشده، وقال: ﴿وما ينطقُ عَنْ الهوى﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف

(١) هو من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) وهي أمة اليهود، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عند اللهِ من لَّعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ منهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٥٩].

ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه: فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن. فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى.

وقد احتج الشافعي لذلك، فقال: لعل من حجة من قال بهذا قوله: ﴿وأنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]. قال ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله، ﷺ لأبي الزاني بإمرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك**» الحديث[1]. وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله، ﷺ حين ينزل عليه الوحى، فلما كان بالجعرانة[2] ساله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته، بعد ما تضمخ بالخلوق فنظر إليه النبي، ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء، فأدخل رأسه، فإذا النبي، ﷺ محرم يغط. ثم سرى عنه. فقال: «**أين السائل آنفا؟**» فجيء به، فقال: «**انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك**».

وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقه وعقول[3] فإنما نزل به

---

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة، وزيد بن خالد أنهما قالا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله، ﷺ. فقال: يارسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله وقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ نعم فاقض بيننا بكتاب الله، وأئذن لي. فقال رسول الله، ﷺ: «**قل**» قال: إن ابني كان عسيفا على هذا، فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، وافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله، ﷺ: «**والذي نفسي بيده**ـ الحديث ـ إلى أن قال: «**وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغد يا أنيس** ـ لرجل من أسلم ـ **على امرأة هذا: فإن اعترفت فارجمها**» قال: فغدا عليها، فاعترفت فأمر بها رسول الله، ﷺ فرجمت.

(٢) مكان قريب من مكة نزله ﷺ في عودته من غزوة حنين ومنه أحرم ليعتمر في رجوعه إلى المدينة العمرة الثالثة.

(٣) جمع عقل، وهو الدية.

الوحي. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه. وذكر الأوزاعي أيضًا عن أبي عبيد، صاحب سليمان، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله ﷺ: سعِّر لنا. قال: «**لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها، ولكن سلوا الله من فضله**» وابن فضيلة هذا يسمى طلحة. وقد صح عنه أنه قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» وهذا هو السنة بلاشك، وقد قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة. وبالله التوفيق.

فصل

ثم أخبر - تعالى - عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية. فقال: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيْدُ القُوىٰ**﴾ [النجم: ٥] وهذا نظير قوله: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ**﴾ [التكوير: ٢٠] وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة. وقوله: ﴿**ذو مِرَّةٍ**﴾ [النجم: ٦] أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة. ليس شيطانا أقبح خلق الله وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله. وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له. كما تقدم نظيره في سورة التكوير. فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته. وهذه كانت أوصاف الرسول البشرى والملكى. فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك. فهم أقبح الخلق صورة ومعنى. وأجهل الخلق وأضعفهم هما ونفوسا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله، ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى. فصور - سبحانه - لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنا وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطًا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى. مستويا عليه، ثم نزل وقرب من محمد، ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلاً: ربك يقول لك كذا وكذا.

وأخبر - سبحانه - عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وأرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٤٧] تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلا واحدًا ونظيره قوله: ﴿ثم قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] أي تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي، وقول من جعلها بمعنى الواو. فتأمله انتهى.

فصـــل

ثم أخبر ـ تعالى ـ عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ماهو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان: إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها. يقال كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده، إذا أخلف ما ظنه وحدسه. قال الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط		غلس الظلام من الرباب خيالا

أي أرتك مالا حقيقة له. فنفى هذا عن رسوله. وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه، و(ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ماكذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ماكذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه. وهذا ظاهر جدًّا في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضًا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه. فإنه إذا كان الشيء في القلب معلومًا. فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين (أحدهما) أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ماهي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن مارآه الفؤاد فهو كما رآه. كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به.

فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني أن يكون الضمير في (رأى) عائدًا إلى الرأى لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ماكذب الفؤاد مارآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه. والمعنى ماكذب الفؤاد مارآه البصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره.

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على مارآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه. وفيها قراءتان أفتمارونه وأفتمرونه وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول مريت الرجل حقه إذا جحدته. كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ماكان يمريكا

ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة. ولهذا عدى هذا الفعل بعلى وهي على بابها، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر.

ورجح أبو عبيدة: قراءة من قرأ ﴿أَفتمرُونه﴾ [النجم: ١٢] قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعنى أن من قرأ ﴿أفتمارونه﴾ فمعناه أفتجادلونه؟ ومن قرأ ﴿أفتمرونه﴾ معناه أفتجحدونه؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له.

وخالفه أبو علي وغيره واختاروا قراءة: ﴿أفتمارونه﴾ قال أبو علي: من قرأ ﴿أفتمارونه﴾ فمعناه أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده؟ ويقوي هذا الوجه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]. ومن قرأ ﴿أفتمرونه﴾ كان المعنى أفتجحدونه؟ قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع لاجدال استرشاد وتبين للحق: وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلى يدل على المكابرة؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا، فهي أولى. وبالله التوفيق.

فصل

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى. فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى. والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى. وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم: ٩]. قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي، ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وفي الصحيحين أيضًا عن عبدالله بن مسعود ﴿**مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى**﴾ [النجم: ١١]. قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. وقال البخاري، عنه: رأى رفرفًا أخضر يسد الأفق[1]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ [النجم: ١٣] قال: رأى جبريل عليه السلام. وفي صحيحه أيضًا. عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله - عز وجل -: ﴿**وَلَقَدْ رَآه بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ [التكوير: ٢٣]. ﴿**وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله، ﷺ، فقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**»، فقالت: أو لم تسمع أن الله - عز وجل - يقول: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨: ٤٣٢ والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي ﷺ هو جبريل، كما ذهبت إلى ذلك عائشة. والتقدير على رأيه: فأوحى - أي جبريل - إلى عبده - أي عبدالله - محمد، لأنه يرى أن الذي دنا فتدلى هو جبريل، وأنه هو أوحى إلى محمد، ﷺ. وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله، أوحى إلى عبده محمد، ﷺ. ومنهم من قال: إلى جبريل.

قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ وإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه**﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمـٰوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلَّا اللهُ**﴾ [النمل: ٦٥] ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿**وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيْهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضًا قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله! لقد قف شعري مما قلت. وفيهما أيضًا قال، قلت لعائشة: فأين قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**ثم دَنَا فَتَدَلَّى * فكان قَابَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنىٰ**﴾ [النجم: ٨، ٩] قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال. وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق.

وفي صحيح مسلم: بأن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أَنَّى أراه**». وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله، ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له.

ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح: حديث الرؤية يوم القيامة «**فيكشف الحجاب، فينظرون إليه**» فإن النور الذي هو حجاب الرب ـ تعالى ـ يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يقم له شيء.

كما قال ابن عباس في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء. وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى. بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك. وإذا كانت أبصارنا

لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب ـ جل جلاله ـ أعظم وأعظم. ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: **«جنتان من ذهب: آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة: آنيتهما وحليتهما وما فيهما؛ وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن»**.

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه ـ تبارك وتعالى ـ هو المانع من رؤية الذات. ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى. فإذا تجلى ـ سبحانه ـ لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الاشارة في هذا المقام للمصدق الموقن، وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

وأما قول ابن عباس: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين، فالظاهر أن مستنده هذه الآية. وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة. فقال ـ في نقضه على بشر المريسي، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله، ﷺ قال: **«رأيت ربي البارحة في أحسن صورة»** فحكى تأويل المريسي الباطل ـ ثم قال: ويلك أن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه. أما أن رسول الله، ﷺ قال في حديث أبي ذر: **«إنه لم ير ربه»** وقال رسول الله ﷺ: **«لن تروا ربكم حتى تموتوا»**. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية».

وأجمع المسلمون على ذلك، مع قول الله: **﴿لا تدركه الأبصار﴾** يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك. وروى معاذ بن جبل عن النبي، ﷺ أنه قال: **«صليت ما شاء الله من

الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة». فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم. وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الاسراء أم لا على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه. قال المروزي: قلت لأبي عبدالله يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: **«رأيت ربي»** قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

وقال: وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبدالله ههنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة، ولا أقول إن محمدًا رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال هذا أهل أن يخفى يسلم الخبر كما جاء. قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال قلت لأبي عبدالله النبي ﷺ رأى ربه رؤيا حلم بقلبه؟ قال: فظاهر هذا نفي الرؤية، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبدالرحمن بن عابس عن النبي ﷺ: **«رأيت ربي في أحسن صورة»** فقال معمر مضطرب، لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبدالرحمن بن عابس عن النبي ﷺ ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس. ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس. ورواه عبدالرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبدالرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي، ﷺ. ورواه يحيى بن أبي كثير فقال: عن ابن عباس عن معاذ عن النبي ﷺ. وأصل الحديث واحد، قال الأثرم: فقلت لأبي عبدالله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه بقلبه. ونقل الأثرم أن رجلاً قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي، ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان، وقال: لم تقول رآه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه؟ كما جاء الحديث. فاستحسن ذلك الأشيب. فقال أبو عبدالله: حسن. قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه؟ فهذه نصوص أحمد. وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبدالرحمن بن عابس الحضرمي، ولا دلالة فيهما. لأنها رؤية منام فقط. واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن

الجراح مرفوعًا: «**لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال فيم يختصم الملأ الأعلى؟**» وذكر الحديث، وهذا غلط قطعًا فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس. ثم خرج فصلى بنا ثم قال: «**رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟**» وذكر الحديث. فهذا كان بالمدينة والإسراء كان بمكة. وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة، وإنما حمل القاضي كلام أحمد مالا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل بعينه. وإنما قال رآه، واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه، ولفظ الحديث «**رأيت ربى**» وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي، ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل. من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية، وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه، ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجيء ذلك في حديث قط. فأحمد إنما أتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وإنكاره قول من قال لم يره أصلاً لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧] قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يمينا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أُرِيَ من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما

أري، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب، وطمأنينته، وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي. فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

تلك المكارم لا قعبان من لبن ❊❊ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدًّا في القرآن وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف: ٩]، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لعلكُمْ تَهْتَدُونَ ❊ والذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ❊ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]. وهذا ليس من جوابهم، ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم. ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ❊ قال: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ❊ قال عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٢]. فهذا جواب موسى ثم استطرد ـ سبحانه ـ منه إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ❊ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٣-٥٥]. ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ❊ ثُمَّ جَعَلْنَاه نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]. إلى آخره فالأول آدم، والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم.

[(١)] **قال** الله ـ تعالى ـ: مخبراً عن كمال أدب رسوله [في] ليلة الإسراء: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]. وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً و[لا] شمالاً، ولا طمح متجاوزًا إلى ما هو رائيه ومقبل عليه كالمتشارف إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع من المصلي واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقًا إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

فصل[(٢)]

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله ـ تعالى ـ عن نبيه، ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة. ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته. وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

---

(١) ٢٨٢ روضة المحبين.　(٢) ٣٨٢ مدارج جـ٢.

ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونه عَلَى مَا يَرَى**﴾ [النجم: ١١، ١٢]. أي ما كذَب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأهـا أبو جعفر: «**ما كذّب الفؤاد ما رأى**» ـ بتشديد الذال ـ أي لم يكذب الفؤادُ البصرَ، بل صدقه وواطأه لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئى المشاهد بالبصر والبصيرة حقًّا.

وقرأ الجمهور «**ما كذَب الفؤاد**» بالتخفيف. وهو متعدّ. و «ما رأى» مفعوله: أي ما كذّب قلبُه ما رأته عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤادُ البصرَ. ولم يتجاوز البصر حَدَّه فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ماهو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ـ ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه. وقال: «**يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله، وهذا قد جاوزني وخَلَّفَني علوًّا. فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته**» وفي رواية للبخـاري: «**فلما جاوزتـه بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكى أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي**» ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مَسْراه يسبق خطوه الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكبه، وبُعْدِ شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق

لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيًا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، مازاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يسٓ * والقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ١-٤]. فإذا كان يومُ المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(١)**وسئل** ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى﴾ فقال: «إنما هو جبريل عليه السلام، لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين» ذكره مسلم.

(٢)**وقال** ـ تعالى ـ في وصفه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٥، ٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو منظر حسن» وقال قتادة: «ذو خلق حسن» وقال ابن جرير: «عَنَى بالمِرَّة صحةَ الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًا».

والمِرّة واحدة المِرَر، وإنما أُريد به ذو مِرَّة سَوِيَّة، ومنه قول النبي ﷺ: **«لا تَحِلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ»**.

قلت: هذا حجة من قال: المرة القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد، وهو قولٌ ضعيف. لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه (شَدِيدُ الْقُوَى).

ولا ريب أن المرَّة في الحديث هي القوَّة، لا المنظر الحسن، فإما أن يقال: المرة تقال على هذا وعلى هذا، وإما أن يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن المرة هي الصحة

---

(١) ٢٧٠ أعلام جـ٤.		(٢) ١٢٩ إغاثة جـ٢.

والسلامـة من الآفـات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها. فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب، فهي قوة وصحة تتضمن جمالاً وحسنًا. والله تعالى أعلم.

[1]**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٧-٩]. . . .

الشيخ[2] فهم من الآية: أن الذي دنى فتدلى. فكان ـ من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى: هو الله عز وجل. وهـذا ـ وإن قالـه جماعـة من المفسرين ـ فالصحيح: أن ذلك هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الموصوف بما ذكر من أول السـورة إلى قولـه: ﴿ولقـد رآه نَزْلَـةً أُخْرَىٰ * عِنْـدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَـىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. هكـذا فسره النبي ﷺ في الحـديث الصحيح. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: جبريل، لم أره في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين» ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه.

أحدها: أنه قال: ﴿عَلَّمَه شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير. فقال: ﴿إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثاني: أنه قال (ذو مِرَّة) أي حسن الخلق. وهو الكريم المذكور في التكوير[3].

الثالث: أنه قال: ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو ناحية السماء العليا. وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى. وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول الله، ﷺ[4]. وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج. فرسـول الله ﷺ كان فوق السموات. فهناك دنا الجبار جل جلاله منه

---

(١) ٣١٩ مدارج جـ٣.

(٢) يعني صاحب المنازل شيخ الإسلام الإمام الهروي ـ رحمه الله ـ (ج).

(٣) المرة: القوة التي حصلت للحبل ونحوه إذا ضمت الطاقات إلى بعضها مرة بعد مرة.

(٤) يعني حين كان يأتي رسول الله ﷺ في غار حراء. فقد رآه في المرة الأولى في الأفق الأعلى. ثم صار يدنو كل يوم منه شيئًا فشيئًا حتى دخل عليه الغار في تمام الستة الأشهر التي كانت جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

وتدلى. فالدنو والتدلي في الحديث: غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في اللفظ.

الخامس: أنه قال: **﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى﴾** والمرئي عند السدرة: هو جبريل قطعًا، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال لعائشة: **«ذاكِ جبريل»**.

السادس: أن مفسر الضمير في قوله: **«ولقد رآه»** وفي قوله: **«ثم دنى فتدلى»** وفي قوله: **«فاستوى»** وفي قوله: **«وهو بالأفق الأعلى»** واحد. ، فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسَّر من غير دليل.

السابع: أنه ـ سبحانه ـ ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين: الملكي، والبشري. ونزه البشري عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانًا قبيحًا ضعيفًا. بل هو قوي كريم حسن الخلق. وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك: أنه **«رآه بالأفق المبين»** وههنا أخبر: أنه **«رآه بالأفق الأعلى»** وهو واحد، وُصف بصفتين. فهو «مبين» وهو **«أعلى»** فإن الشيء كلما علا: بان وظهر.

التاسع: أنه قال: **«ذو مِرَّة»** و **«المرة»** الخلق الحسن المحكم. فأخبر عن حسن خلق الذي عَلَّم النبي ﷺ. ثم ساق الخبر كله عنه نَسَقًا واحدًا.

العاشر: أنه لو كان خبراً عن الرب ـ تعالى ـ لكان القرآن قد دل على أن رسول الله ﷺ رأى ربه ـ سبحانه ـ مرتين: مرة بالأفق. ومرة عند السدرة. ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبى ذر ـ وقد سأله **«هل رأيت ربك؟»** فقال: **«نور. أنَّى أراه؟»** فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول الله ﷺ: **«أنَّى أراه؟»** وهذا أبلغ من قوله: لم أره. لأنه ـ مع النفي ـ يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفى، وطرفا من الإنكار على السائل. كما إذا قال لرجل: هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟

الحادي عشر: أنه لم يتقدم للرب ـ جل جلاله ـ ذكر يعود الضمير عليه في قوله: **﴿ثم دَنَى فَتَدَلَّى﴾** والذي يعود الضمير عليه: لا يصلح له. وإنما هو لعبده.

الثاني عشر: أنه كيف يعود الضمير إلى مالم يذكر. ويترك عوده إلى المذكور، مع كونه أولى به؟.

الثالث عشر: أنه قد تقدم ذكر **«صَاحِبُكُمْ»** وأعاد عليه الضمائر التي تليق به.

ثم ذكر بعده «شديد القوى ذا المرة» وأعاد عليه الضمائر التي تليق به. والخبر كله عن هذين المفسرين. وهما الرسول الملكي، والرسول البشري.

الرابع عشر: أنه ـ سبحانه ـ أخبر: أن هذا الذي دنا فتدلى: كان بالأفق الأعلى وهو أفق السماء. بل هو تحتها قد دنا من رسول رب العالمين، ﷺ ودنو الرب ـ تعالى ـ وتدليه ـ على مافي حديث شريك ـ كان من فوق العرش لا إلى الأرض.

الخامس عشر: أنهم لم يماروه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على رؤية ربه. ولا أخبرهم بها، لتقع مماراتهم له عليها. وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها. ولو أخبرهم الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات.

السادس عشر: أنه ـ سبحانه ـ قرر صحة ما رآه الرسول، ﷺ، وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:١٨] فلو كان المرئي هو الرب ـ سبحانه وتعالى ـ والمماراة على ذلك منهم: لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج. والله أعلم.

(١)**الوجه** التاسع والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ سمى الحجة العلمية سلطانًا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبحانه هُوَ الغنيُّ له مَا فِي السَّموات وما في الأرضِ إن عندكم مِّن سُلطان بهذا أتقولون على اللهِ مَالاَ تَعْلَمونَ﴾ [يونس:٦٨] يعني ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم.

وقال تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُموهَا أَنْتُم وآباؤكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]. يعني ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَائْتُوا بِكتابِكُم إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. يعني حجة واضحة فائتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم.

إلا موضعًا واحدا اختلف فيه وهو قوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩]. فقيل: المراد به القدرة والملك، أي ذهب عني مالي

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

وملكي، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابه، أي انقطعت حجتي، وبطلت فلا حجة لي.

والمقصود أن الله ـ سبحانه ـ سمى علم الحجة سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها: قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة. ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له.

فصل(1)

وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون، ورجل ملمومٌ أي به لَمَمٌ. ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لَمَّةٌ، وهو المس، والشيء القليل، قاله الجوهري.

قلت: وأصل اللفظة من المقاربة ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. وهي الصغائر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما رأيت أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني. وزناه القُبَل، ومنه ألَمَّ بكذا أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمٌّ أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمّ»(2)، أي يقرب من ذلك.

(3)**وتوبة** العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذنًا وتوفيقًا، وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه؛ ثانيًا: قبولاً وإثابة...

---

(١) ٥٠ روضة المحبين. (٢) الحديث في الصحيحين. يقال: حبطت الدابة حبطًا بالتحريك إذا أصابت مرعى طيبًا فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. (٣) ٣١٢ مدارج جـ١.

[1]**والذنوب** تنقسم إلى: صغائر وكبائر، بنص القرآن، والسنة، وإجماع السلف، وبالاعتبار. قال الله ـ تعالى ـ: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾** [النساء: ٣١] وقال ـ تعالى ـ: **﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾** [النجم: ٣٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان ـ مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»**. وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الاسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر. فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء في الحرام. وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِي بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لَمَّا» و «مُحَقَّرات» كما في الحديث **«إياكم ومُحقَّرات الذنوب»** وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره. قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع. أي لكن يقع منهم اللمم. وحسنَ وقوع الانقطاع بعد الإيجاب ـ والغالب خلافه ـ أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحًا. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولاسيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين. أحدهما: في «اللمم» ماهو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حَدٌّ يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

---

(١) ٣١٥ مدارج جـ١.

فصــل

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعـود إليه. وإن كان كبـيرًا[(١)]. قال البغـوي: هذا قول أبي هريرة، ومجـاهـد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «اللمم مادون الشرك» قال السدى: قال أبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله ـ عز وجل ـ: «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» مادون الكبـائـر. وهو أصح الروايتين عن ابن عبـاس، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إنَّ الله كتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا، أدرك ذلـك لا محالـة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تَمَنَّي وتشتهي، والفـرجُ يصـدق ذلـك أو يكذِّبه»** رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة. وفيه «والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرِّجْلُ: زناها الخُطى».

وقال الكلبي «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حَدًّا في الدنيا. ولا عذابًـا في الآخرة. فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، مالم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المرة. فيتوب منه. قال سعيد بن المسيب: هو ما ألَمَّ بالقلب. أي ما خطر عليه.

قال الحسـين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد. فهو مغفور. فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا * * وأي عبـد لـك لا ألمـا»

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. فالله

---

(١) معرفة لغة العرب. وضم الآيات والنصوص إلى بعضها، مثل قول الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وأخواتها يدل على أن «اللمم» هوالذنب مهما كان يسـارع المؤمن إلى التخلص منه وانتزاع نفسه منه، كرهًا له، ورغبة في الإنابة والرجعة إلى الله ربه. والأظهر: أن الاستثناء متصل.

لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبي هريرة وعبدالله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشعبي. ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ـ ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره: باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارًا عديدة. وهذا من فقه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وغور علومهم.

ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف الْعَنَتَ على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارًا كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه «دُفع إليه سارق. فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ماسرقت غير هذه المرة. فقال: كذبت. فلما قطعت يده، قال: اصدقني كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة. فقال: صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم. فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين. والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينًا بعد حين. فإنه يقال: ألم بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القُبْلة والغَمْزة لَمَاً، لأنها تُلِمُّ بما بعدها. ويقال: فلان لا يزورنا إلا لمامًا. أي حينًا بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفَهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنًا مجزيًّا بإحسانه، ناجيًا من عذاب الله، إلا من

اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسُن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: **﴿لايَسْمَعُونَ فيها لَغْوًا إلاَّ سَلامًا﴾** [مريم: ٦٢] **فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ولاَ شَرَابًا * إلاَّ حَمِيمًا وغَسَّاقًا﴾**[النبأ: ٢٤-٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلاما. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميًا وغساقا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: **﴿مَـالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾**[النساء: ١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُم مِّنَ النِّساءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**[النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. **﴿وأن تَجْمَعُوا بيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**[النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال: «**إلا ما قد سلف**». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية....

(١)**وأما** الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغَموس»**. وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**؟ ـ ثلاثا ـ قالوا: بلى، يارسول الله. قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»** ـ وجلس وكان متكئًا ـ فقال: **«ألا وقول الزور»**، فما زال

---

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١.

يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شُرحبيل عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: «يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًا وهو خلقك**». قال قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يَطْعَم معك**». قال قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزاني بحليلة جارك**». فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿**والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالحَقِّ ولاَ يَزْنُونَ**﴾[الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي، ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يارسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبدالرحمن يحدث عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه**». قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويَسُبُّ أمه، فيسب أمه**». وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل في عِرض أخيه المسلم بغير حق**».

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «**أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمنُ من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شيء عُصِي الله به فهو كبيرة، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بالقدر».

وقال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿**إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ**

سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١]. فهو كبيرة» وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا، أو عظيمًا. نحو قوله: ﴿إنه كَانَ حُوبًا كَبِيراً﴾ [النساء: ٢] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]...

(١)**قوله** ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٩] فأخبر أنه ليس على أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه.

(٢)فصل

وأما المسألة السادسة عشرة: وهي هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟

فالجواب: إنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير (أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته (والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل، فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية: كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فمذهب الامام أحمد وجمهور السلف: وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال: قيل لأبي عبدالله: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها. وقال

---

(١) ١٠٨ مفتاح جـ٢. (٢) ١٤٥ الروح.

أيضًا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك إن ذلك لا يصل. وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام: أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لا دعاء ولا غيره.

(١)**الأمر** العاشر: أن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزي فيهما الذين أساؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول. والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح «**وتؤمن بالبعث الآخر**» فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب، وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ هاتين القيامتين: وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته إن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ المَوْتِ وإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكما له المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم؛ فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس.

ولما كانت هذه الدار: دار تكليف وامتحان، لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابها فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن

---

(١) ٩١ الروح.

والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع[1].

[2] **فالدليل** على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

فاستثناء هذه الثلاث من عمله، يدل على أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله، ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته**». وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث جرير بن عبد الله قال، قال رسول الله، ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**». وهذا المعنى روي عن النبي، ﷺ، من عدة وجوه صحاح وحسان. وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله، ﷺ، فأمسك القوم، ثم أن رجلًا أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي، ﷺ: «**من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئًا، ومن سن شرًا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئًا**».

وقد دل على هذا قوله، ﷺ، لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل والثواب أولى وأحرى.

فصل

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه: القرآن، والسنة، والإجماع، وقواعد الشرع. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا**

(١) تقدم بقية البحث في سورة المؤمنين (ج).

(٢) ١٤٦ الروح.

ولإخوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمانِ﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى الله ـ سبحانه ـ عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سنُّوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم، لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي السنن من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله، ﷺ: **«إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»**.

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال، صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، وأوسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطاء كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيراً من داره وأهلاً خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار. وفي السنن عن واثلة بن الأسقع قال صلى رسول الله، ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: **«اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له، وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم»**.

وهذا كثير في الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن. وفي السنن من حديث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي، ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: **«استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»**.

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال كان رسول الله، ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: **السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية. . .**[1]

---

(١) استطرد المؤلف رحمه الله في البحث حول وصول الثواب أو عدمه قرابة كراسة وذكر حجج الموصلين والنافين بما لا مزيد عليه لباحث (ج).

[1]**وبالجملة:** فأفضل ما يهدى إلى الميت: العتق، والصدقة، والاستغفار له، والدعاء له، والحج عنه. وأما قراءة القرآن، وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج. فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار. قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت، فهو محجوج بالكتاب والسنة والاجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده[2] كما يفعله الناس اليوم ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بايصال ثوابها إلى أمواتهم.

فان قيل: فرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة. قيل: هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم. فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له. وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له. وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر.

---

(١) ١٧٥ الروح.

(٢) قلت ـ قد مر في أول هذا الكتاب أي كتاب الروح عن الشعبي قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون القرآن.

والقائل: إن أحدا من السلف لم يفعل ذلك قائل مالا علم له به، فإن هذه شهادة على نفي مالم يعلمه، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم.

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فاذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله اليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وكل هدى وعلم فإنما ناله أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه: أهداه إليه، أو لم يهده، والله أعلم.

(١)... **﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾** [النجم:٤٢]. فانتهت إليه الغايات والنهايات. وليس له ـ سبحانه ـ غاية ولا نهاية: لا في وجوده، ولا في مزيد جوده. إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء. و«الآخر» الذي ليس بعده شيء. ولا نهاية لحمده وعطائه. بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته مالم يشاهده قبل ذلك. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية. ولهذا جاء **«إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء»** فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه. فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: **﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ﴾** [ص:٥٤]، **«ياعبادي، لو أن أَوَّلَكُمْ وَآخِرِكم وإنسَكُم وَجِنَّكُمْ قاموا في صعيد**

---

(١) ٢٦٨ مدارج جـ٢.

واحد. فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر».

[١]**قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾** [النجم:٤٣]، والضحك والبكاء فعلان اختياريان فهو ـ سبحانه ـ المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة، وتأويل الآية، بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه بل الجميع حق.

[٢]**قال** تعالى: **﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾** [النجم: ٥٩-٦١]. قال عكرمة عن ابن عباس «السُّمود: الغناء في لغة حِمْيَر». يقال: اسمُدي لنا، أي غَنِّي لنا، وقال أبو زَبيد:

وكأن العَزيف فيها غناء ** للندامَى من شارب مَسْمُود

قال أبو عُبيدة: المسمود: الذي غُنِّي له»، وقال عكرمة: «كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. فنزلت هذه الآية».

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن: «السُّمود»: الغفلة والسهو عن الشيء، قال المبرِّد: هو الاشتغال عن الشيء بهَمٍّ أو فرح، يتشاغل به. وأنشد:

رَمى الحَدَثانُ نِسوة آلِ حَرْب ** بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا

وقال ابن الأنباري: السامد اللاهي، والسامد الساهي، والسامد المتكبر، والسامد القائم. وقال ابن عباس، في الآية: وأنتم مستكبرون وقال الضحاك: «أشِرون بَطِرون» وقال مجاهد «غِضَابٌ مُبَرْطمون» وقال غيره: «لا هُون غافلون معرضون».

فالغناء يجمع هذا كله، ويوجبه. فهذه أربعة عشر اسمًا، سوى اسم الغناء.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النجم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٩ شفاء.　　(٢) ٢٥٨ إغاثة جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

فائـــدة[1]

الأجداث: القبور، وفيها لغتان بالثاء والفاء. أهل العالية تقوله بالثاء، وأهل السافلة بالفاء.

[2]... **والثالث**: أن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وَخبره. ولم يوجب الله ـ سبحانه ـ من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادها، وَبإهمال ذلك تضيع مصالحها وَتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل، وَلا عمارته إلا بالعلم. وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد. ومَنْ لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورا.

قال الإمام أحمد: ولولا العلم كان الناس كالبهائم، وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الرابع: أن الواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف مالا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصالح الخلق ولا تعطيل لمعاشهم؛ فقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قائمين بمصالحهم ومعاشهم وعمارة حروثهم والقيام على مواشيهم والضرب في الأرض لمتاجرهم والصفق بالأسواق، وهم أهدى العلماء الذين لا يُشَقُّ في العلم غبارهم.

الخامس: أن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول دون مقدرات الأذهان ومسائل الخَرْصِ والألغاز، وذلك بحمد الله ـ تعالى ـ أيسر شيء على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يَسَّره للذكر كما قال ـ تعالى ـ: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** [القمر: ١٧].

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤.　(٢) ٢٣٨ أعلام جـ٢.

وَلم يقل فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل معايشه عليه، وسنة رسوله وهي بحمد الله ـ تعالى ـ مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان التي كلٌّ مالها في نمو وزيادة وتوليد، والدين كل ماله في غربة ونقصان، والله المستعان.

(١) **الاصطبار:** افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ، وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر، كأنه صار سجية وملكة: فإن هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب، قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]. فالاصطبار أبلغ من الصبر، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، ولهذا كان في العمل الذي يكون على صاحبه، والكسب فيما له، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] تنبيها على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعي وكسب، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه. وإذا علم هذا فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار، بل يكون مع الصبر ومع التصبر. ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى. والله أعلم.

(٢)... **ومن** هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على مَنْ سَلَكَ سبيلهم واتصف بصفتهم. وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذِّبة لرسلهم وما حل بهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. فهذا مَحْض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثلة لما لزمت التعدية ولما تمت الحجة.

فصل (٣)

وهذان الضلالان أعني: الضلال والشقاء، يذكرهما ـ سبحانه ـ كثيراً في كلامه، ويخبر أنهما حظ أعدائه. ويذكر ضدهما وهما: الهدى والفلاح كثيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه.

---

(١) ٢٧ طريق الهجرتين. (٢) ١٣١ أعلام جـ١. (٣) ٣٧ مفتاح جـ١.

أما الأول: فكقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال: الضلال والسعر، هو الشقاء والعذاب، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ الله وَمَاكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وأما الثاني: فكقوله ـ تعالى ـ في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم: ﴿أُولَٓئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِم وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وكذلك في أول لقمان.

وقال في الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأفرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد وأعمها نفعًا ذكر فيها الأمرين.

فأمرنا أن نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح.

ثم قال: ﴿غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء، والضالين وهم أهل الضلال، وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء، لكن ذكر الوصفين معًا لتكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه. وأيضًا فإنه ذكر ماهو أظهر الوصفين في كل طائفة. فإن الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته. والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

(١)**قال** سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبوهريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُجْـرِمِينَ في ضَلالٍ وَسُعُـر * يَوْمَ يُسْحَبُـونَ في النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُـوا مَسَّ سَقَـرَ* إِنَّا كُلَّ شيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩] رواه مسلم.

وقد روى الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين خصماء الله؟ وهم القدرية، ولكن حبيب هذا قال الدارقطني: مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولايثبت.

والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره: كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَآ آبَاؤُنَا﴾[الأنعام: ١٤٨].

(١) ٢٨ شفاء.

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق والطائفتان خصماء الله، قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قدر أقدارًا وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى. قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم. وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

(١)**وقال** علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩] خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق الخير والشر، فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة.

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت: لا، بل فيما قضي عليهم ومضى. قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال ففزعت فزعًا شديدًا وقلت: إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه: ﴿**ولايُسْأَلُ عمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فقال: سددك الله إنما سألتك لأحرز عقلك، إن رجلًا من مزينة ـ أو جهينة ـ أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، أرأيت مايعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «**فيما قضي عليهم ومضى**». فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «**من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها**». وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿**ونَفْسٍ وماسَوَّاها * فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا**﴾

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوه في الزُّبُرِ**﴾ [القمر: ٥٢] قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي ﴿**وكُلُّ شيءٍ فَعَلُوه في الزُّبُرِ**﴾ [القمر: ٥٢] قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

(١) ٦٦ طريق الهجرتين. (٢) ٤٢ شفاء.

وقالت طائفة: المعنى أنه يحصي عليهم في كتب أعمالهم. وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح، وبالله التوفيق. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: مارأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة: فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه»**.

وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والاذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق الفرج ذلك كله ويكذبه»**.

وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: **«اقبلوا البشري يابني تميم»** قالوا: قد بشرتنا فاعطنا. مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال: **«اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم»** قالوا: قد قبلنا يارسول الله، قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر. قال: **«كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض»** فنادى مناد: ذهبت ناقتك ياابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي ينقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني تركتها.

فالرب ـ سبحانه ـ كتب مايقوله ومايفعله ومايكون بقوله وفعله، وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها كما في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»**.

(1)**الاسم** الحادي عشر والثاني عشر: مقعد الصدق، وقدم الصدق. قال تعالى: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾** [القمر: ٥٤، ٥٥].

فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل مايراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه

---

(١) ٧٦ حادي الأرواح.

الكلام الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث، والصدق في العمل، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَدق بالفتح : الصلب من الرماح، ويقال للرجال الشجاع : إنه لذو مصدق، أي صادق الحملة، وهذا مصداق هذا أي مايصدقه.

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة : ومنه صدقني القتال، وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لاشيء تحته وهو لا يتضمن أمرًا ثابتًا قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق أن الجميع حق، فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وادخر لهم جزاءها يوم القيامة.

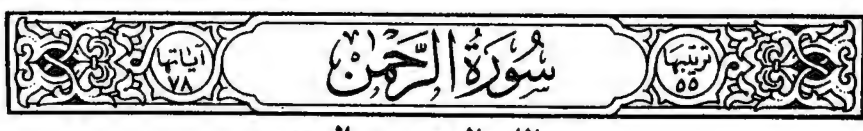
ولسان الصدق وهو: لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق.

وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو: المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنًا على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلًا في أمر وخارجًا من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك، كان قد أدخل مدخل صدق، وأخرج مخرج صدق، والله المستعان اهـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القمر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * علَّمه البَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] دلت هذه الكلمات على إعطائه - سبحانه - مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لما تقدم. وقوله: ﴿علم القرآن﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه. ثم قال: ﴿علمه البيان﴾، والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا.

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ. فيتبين الناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيراً ما يجمع - سبحانه - بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] وقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[البقرة: ٧]. وقد تقدم بسط هذا الكلام.

تنبيه: ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم مالا حاجة له به، فجهله به لا يضر وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلاً. ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي

(١) ٢٧٩ مفتاح جـ١

تنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح، فلكما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك، فهو دليل على الرب - تبارك وتعالى - فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله - سبحانه - ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة.

ثم بعث الرسل مذكرين به، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] وهو كثير في القرآن ومفصلين[1] لما في الفطرة والعقل العلم به جملة.

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله، ومجازات المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مودعًا في الفطرة مركوزًا فيها، فلو خليت على ماخلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه، ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب. ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت...

[2]**وقد** جمع - سبحانه - بين الأمرين - أعني القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]. فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من

(١) قوله: «ومفصلين» معطوف على قوله: مذكرين. من قوله: ثم بعث الرسل مذكرين ا. هـ.

(٢) ١٢٧ التبيان.

نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان. ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولاعصب. فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف[1].

[2] **وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: ﴿الرَّحمٰنُ عَلَّمَ القُرآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة متعلقًا باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ والإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكى وخلي منه اسمه كان ميتة، وإن كان طعامًا شارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلًا دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم، ولما خلق ـ سبحانه ـ الرحم واشتق لها اسمًا من اسمه فأراد إنزالها إلى الأرض وتعلقت به ـ سبحانه ـ فقال: «مه» «فقالت: هذا المقام العائذ بك من القطيعة»، فقال: «**ألا ترضين أن أقطع من قطعك، وأصل من وصلك**» وهي متعلقة بالعرش لها حنحنة كحنحنة المغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه بها، وإنزالها إلى الأرض رحمة بخلقه.

ولما علم ـ سبحانه ـ ماتلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشتقت (منه) رحمها بتعلقها بالعرش واتصالها به، وقوله: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك**» ولذلك كان من وصل رحمه لقربه من الرحمن ورعاية حرمة الرحم قد عمر دنياه، واتسعت له معيشته، وبورك له في عمره، ونسيء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ـ جل جلاله ـ مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة

(١) هذا جزء من البحث الكامل وسيأتي في سورة القلم إن شاء الله (ج). (٢) ١٢٣ مختصر الصواعق جـ٢.

والإحسان تم له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين الرحمن أفسد عليه أمر دنياه وآخرته ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة يوم القيامة من: البغي، وقطيعة الرحم»** فالبغي معاملة الخلق بضد الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وأن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وأن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم، ويقل عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة، وقلة نصيب هؤلاء منها.

وفي الحديث **«أن صلة الرحم تزيد في العمر»** وإذا أراد الله بأهل الأرض خيراً نشر عليهم أثرًا من آثار اسمه الرحمن، فعمر به البلاد، وأحيا به البلاد، وإذا أراد بهم شرًّا أمسك عنهم ذلك الأثر، فحل بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن، ولهذا إذا أراد الله ـ سبحانه ـ أن يخرب هذه الدار ويقيم القيامة أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم وقبضه شيئًا فشيئًا حتى إذا جاء وعده قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض؛ فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها. فيضيف ـ سبحانه ـ تلك الرحمة التي رفعها وقبضها إلى ما عنده من الرحمة فيكمل بها مائة رحمة فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله وتابعيهم، وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضى قوه: **«سبقت رحمتي غضبي»** فالمسبوق لابد لاحق. وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز.

فصل[1]

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها[2] جعلت زينة للشجر، وسترًا ولباسًا للثمرة، ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس، فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسي لباسًا

(١) ٢٢٦ مفتاح جـ١. (٢) يعني ورق الشجر الذي ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ قبل ذلك في الأصل (ح).

جديدًا أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت، وأنها لم تخلق سدًى. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر. وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر ـ تعالى ـ ذلك في كتابه، فتارة يخبر عنها بالتسبيح، وتارة بالسجود، وتارة بالصلاة كقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية، قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا، وفرق بينهما، وعطف أحدهما على الآخر، وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿يَاجِبَال أَوِّبِي مَعَه﴾ [سبأ: ١٠] وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشي والإشراق، أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلاً على بطلانه والحمد لله.

(١)**...ومن** هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] والثاني كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨] والثالث كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها يطلعك على عظمة

---

(١) ١٢١ بدائع جـ١.

القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، فحيث جمعت كان المراد بها: مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة، وهي متعددة. وحيث أفردا كان المراد: أفقي المشرق والمغرب. وحيث ثنيا كان المراد: مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدىء صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدا، ويقابلها مغرباها فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع. وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدًا تعرض له ولا فتح بابه وهو بحمد الله بيِّنٌ من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن.

لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولًا نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما النجم والشجر. ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل، ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السوة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما اللفظ مفردًا ومجموعًا تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم، ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار فأمر رسوله بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلًا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب الذين هما مظهر الليل والنهار فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدًا يظهر من المشرق، والليل أبدًا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: **﴿فَلا أُقسِمُ بربِّ المشارِقِ والمغارِبِ إنَّا لقادرون * على أن نُّبدِّلَ خيراً مِّنهُمْ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾**

[المعارج: ٤٠، ٤١] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء وينقل إلى أمكنتهم خيراً منهم.

وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وقد جعل الله ـ تعالى ـ ذلك بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد، والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيراً منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع، ثم تأمل كيف جاءت أيضًا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما وربُّ المَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٥]. لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما كان الأحسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد، ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال لذلك فإن المشارق مظهر الأنوار وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب نبيه من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت، ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق ههنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، والله أعلم.

(١)«الفناء» مصدر فَنِيَ يَفْنَى فَنَاءً إذا اضْمحَلَّ وتلاشَى وعُدم. وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي هالك ذاهب.

...(٢)الفناء في الآية الهلاك والعدم. أخبر سبحانه: أن كل من على الأرض يعدم ويموت، ويبقى وجهه سبحانه، وهذا مثل قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهم

(١) ١٥٤ مدارج جـ١. (٢) ٣٦٨ مدارج جـ٣.

مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ومثل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض. فلما قال ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه﴾ [القصص: ٨٨] أيقنت الملائكة بالهلاك، قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ من عليها فانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ويَبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه. إذ المقصود: الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه ـ سبحانه ـ فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه. إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه. فهي نظير قوله: ﴿كُلّ شيَءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

(١)**وأما** المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده. فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: ﴿كُلُّ من عليها فانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ ربِّك ذُو الجَلَالِ والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شيَءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا: وقد قال ـ تعالى ـ عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتينْ وأَحْيَيْتَنا اثنَتَينْ﴾ [غافر: ١١] فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والأخرى للروح. وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، إنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح عذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع نها النعيم والعذاب، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ الله وَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ ربِّهِمْ يُرزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون لَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القطع بأن واحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن يد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير ـما محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في

---

(١) ٤٠ الروح.

عذاب، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فقد استثنى الله ـ سبحانه ـ بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير ـ وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره . . .(١)

...(٢)**قال** الله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل مايشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويرفع آخرين، دخل كلام بعضهم في بعض. وقد ذكر الطبراني في المعجم والستة وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي عن عبدالله بن مسعود قال: إن ربكم ـ عز وجل ـ ليس عنده ليل ولا نهار، نوّر السموات والأرض نور وجهه، وأن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتى عشرة ساعة فيعرض عليه أعمالكم فيها على ما يكره فيغضبه ذلك، وأول من يعلم غضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة

(١) بحث المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا بحثًا مطولاً لمن أراده (ج).

(٢) ٢٣ شفاء.

المقربون وسائر الملائكة ثم ينفخ جبريل في القرن، فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحـون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن ـ عز وجل ـ رحمة، فتلك ست ساعات ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله في كتابه: ﴿هو الذي يُصوِّركم في الأرحام كَيفَ يَشَاء﴾ وقوله: ﴿يهب لمن يشاء إناثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُم ذُكْرَانًا وإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فتلك تسع ساعـات ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال: هذا شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى. . .

. . .**قال** عثمان بن سعيد الدارمي ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن الزبير بن أبي عبدالسلام عن أيوب بن عبيدالله الفهري أن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. فذكر الحديث إلى قوله: فيسبحه حملة العرش، وسرادقـات العـرش، والمـلائكة المقربون، وسائر الملائكة. فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السموات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السـابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

(١)**وقـال** تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمواتِ والأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويكشف غمًا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفـك عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعزّ ذليلًا، ويذل عزيزًا، ويعطي سائلا، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين النـاس، ويرفـع أقوامًا، ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرى به قلمه،

(١) ١٢٣ طريق الهجرتين.

ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني: حدثنا إسحاق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ، فقال: «**من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين**».

[١]...**ثم** خوف ـ سبحانه ـ الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل مافي الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع ـ سبحانه ـ بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ، في قوله: «**ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**» فإن الإنسان يواري صدره مافيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ**﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ [القلم: ١٦].

[٢] الباب الثاني والعشرون

في عدد الجنات وأنها نوعان: جنتان من ذهب، وجنتان من فضة

الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور وهي جنات كثيرة جدًا، كما روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة «أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يانبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ قال: «**ياأم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**». وفي الصحيحين من حديث أبي موسى

(١) ٥٢ التبيان.		(٢) ٧٧ حادي الأرواح.

الأشعري عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**». وقد قال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦] فذكرهما ثم قال: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢] فهذه أربع، وقد اختلف في قوله: ﴿**ومن دونهما**﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما على قولين، فقالت طائفة: من دونهما، أي أقرب منهما إلى العرش، فيكونان فوقهما. وقالت طائفة: بل معنى من دونهما: تحتهما. قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذا قالوا هذا دون هذا أي دونه في المنزلة، كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه، أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك. وفي الصحاح دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية، ثم قال ويقال: هذا دون هذا، أي أقرب منه، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه.

(**أحدها**) قوله: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ [الرحمن:٤٨] وفيه قولان: أحدهما: أنه جمع فنن، وهو الغصن. والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

(**الثاني**) قوله: ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**﴾ [الرحمن: ٥٠] وفي الأخريين ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٦] والنضاخة هي الفوارة. والجارية: السارحة، وهي أحسن من الفوارة، فإنها تتضمن الفوران والجريان.

(**الثالث**) أنه قال: ﴿ **فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ [الرحمن:٥٢] وفي الأخريين: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ [الرحمن:٦٨] ولاريب أن وصف الأوليين أكمل، واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان.

فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب، وهو يتمتع به كما يتمتع باليابس، وفيه نظر لا يخفى. وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب. وقالت طائفة: نوعان ولم تزد. والظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

(**الرابع**) أنه قال ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ**﴾ [الرحمن: ٥٤] وهذا

تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وفسر الرفرف بالمحابس والبسط وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين.

(الخامس) أنه قال ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا ولم يذكر ذلك في الأخريين.

(السادس) أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

(السابع) أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

(الثامن) أنه قال ـ سبحانه وتعالى ـ في الجنتين الأولين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

(التاسع) أنه بدأ بوصف الجنتين الأولين وجعلهما جزاءًا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

(العاشر) أنه قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] والسياق يدل على أنه نقيض فوق، كما قال الجوهري، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه قيل لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما. فإن قيل: فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان وهما البستانان؟ قيل: هذا فيه قولان للمفسرين، ورجح القول الثاني بوجهين: (أحدهما) من جهة النقل و(الثاني) من جهة المعنى. فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا

عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة» وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر. والثانية جزاء اجتناب المحارم «فإن قيل» فكيف قال في ذكر النساء «فيهن» في الموضعين ولما ذكر غيرهن قال «فيهما» قيل: لما ذكر الفرش. قال بعدها: فيهن خيرات حسان، ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ليتشاكل اللفظ والمعنى، والله أعلم.

فصل(١)

وأما الفرش فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين (أحدهما) أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض، وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة ابن مريم عن عبدالله في قوله: ﴿بطائنها من إستبرق﴾ قال: هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر؟ (الثاني) يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة. وقد روى في سمكها وارتفاعها آثار إن كانت محفوظة فالمراد ارتفاع محلها كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾[الواقعة: ٣٤] قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام، قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قيل: ومعناه أن الارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها. قلت: رشدين بن سعد عنده مناكير. قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال أحمد: لا يبالي عمن روى وليس به بأس في الرقاق، وقال: أرجو أنه صالح الحديث، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال أبوزرعة: ضعيف، وقال الجوزجاني: عنده مناكير، ولا ريب أنه كان سيء الحفظ، فلا يعتمد على ما ينفرد به. وقد قال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ، في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ فالله أعلم. وقال الطبراني حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن

(١) ١٤٧ حادي الأرواح.

موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف عن عبدالله بن الشخير عن كعب في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وفُرُشٍ مَرفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] قال: مسيرة أربعين سنة. قال الطبراني حدثنا إبراهيم بن نائلة حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: «**سئل** رسول الله ﷺ، عن الفرش المرفوعة قال: «**لو طرح فراش من أعلاها هوى إلى قرارها مائة خريف**». وفي رفع هذا الحديث نظر، فقد قال ابن أبي الدنيا حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ بن هشام، قال: وجدت في كتاب أبي عن القاسم عن أبي أمامة (في قوله عز وجل: ﴿**وفرش مرفوعة**﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفًا).

(١)**أعظم** الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالاً، ومهابة، وحياء، ومحبة وخشية. فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ، وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» وإذا كان هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إلـه إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ، إلا الجنة وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ، ﴿**هل جَزاء الإحسانِ إلا الإحسان**﴾ [الرحمن: ٦٠] ثم قال هل تدرون ما قال ربكم قالوا: الله ورسوله أعلم قال: يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.

(٢)**ومن** منازل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: منزلة الإحسان، وهي لب الإيمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان.

---

(١) ١٨ بدائع جـ٣. (٢) ٤٥٩ مدارج جـ٢.

فالاحسان: جامع لجميع أبواب الحقائق. وهو أن تعبد الله كأنك تراه. أما الآية: فقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ، إلا الجنة. وقد روي عن النبي ﷺ، أنه قرأ ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمن: ٦٠] ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»(١).

وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله - عز وجل - ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

(٢)**قال** - تعالى -: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ [الرحمن: ٦٨] ويذكر عن ابن عباس موقوفا ومرفوعًا: «**ما من رمانكم هذا إلا وهو ملقَّح بحبة من رمان الجنة**» والموقوف أشبه. وذكر حرب بن إسماعيل الكرماني وغيره عن علي أنه قال: «كلوا الرمان بشحمه. فإنه دباغ المعدة» حلو الرمان: حار رطب جيد للمعدة، مقو لها بما فيه من قبض لطيف. نافع للحلق والصدر والرئة. جيد للسعال. وماؤه ملين للبطن، يغذو البدن غذاء فاضلاً يسيرًا، سريع التحلل لرقته ولطافته. ويولد حرارة يسيرة في المعدة وريحًا. ولذلك يعين على الباه. ولا يصلح للمحمومين. وله خاصية عجيبة إذا أكل بالخبز، يمنعه من الفساد في المعدة. وحامضه بارد يابس. قابض لطيف. ينفع المعدة الملتهبة، ويدر البول أكثر من غيره من الرمان، ويسكن الصفراء. ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويلطف الفضول، ويطفىء حرارة الكبد. ويقوي الأعضاء. نافع من الخفقان الصفراوي والآلام العارضة للقلب وفم المعدة، ويقوي المعدة، ويدفع الفضول عنها، ويطفىء المرة الصفراء والدم، وإذا استخرج ماؤه بشحمه، وطبخ بيسير من العسل، حتى يصير كالمرهم، واكتحل به: قطع الصفرة من العين، ونَقَّها من الرطوبات الغليظة، وإذا لطخ على اللِّثة نفع من الأكلة العارضة لها، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما أطلق البطن وأحدر الرطوبات العفنة الرية، ونفع من حميات الغب المتطاولة.

وأما الرمان المزُّ فمتوسط طبعًا وفعلا بين النوعين. وهذا أميل إلى لطافة

---

(١) تقدم في سورة الأعراف على قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ قريبًا من هذا (ج).

(٢) ٣٥١ زاد المعاد جـ٣.

الحامض قليلا وحب الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة. وأقماعه للجراحات. قالوا: ومن ابتلع ثلاثة من جنبذ الرمان في كل سنة أمن من الرمد سنته كلها.

(١)**وصف** الحور قال تعالى في وصفهن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] المقصورات المحبوسات. قال أبوعبيدة: خدرن في الخيام. وكذلك قال مقاتل، وفيه معنى آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن لا يرون غيرهم وهم في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم ولا يطمحن إلى من سواهم. وذكره الفراء «قلت» وهذا معنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] لكن أولئك قاصرات بأنفسهن، وهؤلاء مقصورات، وقوله: في الخيام على هذا القول صفة لحور، أي: هن في الخيام، وليس معمولاً لمقصورات، وكأن أرباب هذا القول فسروا: بأن يكن محبوسات في الخيام لا تفارقنها إلى الغرف والبساتين، وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا بأن الله ـ سبحانه ـ وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت، ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها، وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن: قاصرات الطرف. وهؤلاء بكونهن: مقصورات. والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز الظهور للرجال.

تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيرَاتٌ حِسَانٌ﴾ فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة: كسيدة ولينة. وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه قال وكيع: حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب

---

(١) ١٥٩ حادي الأرواح.

يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك؛ لا ترحات ولا ذفرات ولا بخرات ولا طماحات» ا. هـ.

(١) **وأما** البسط والزرابي، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ**﴾ [الرحمن: ٧٦] وقال تعالى: ﴿**فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [الغاشية: ١٣-١٦] وذكر هشام عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: (الرفرف) رياض الجنة (والعبقري) عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان**﴾ قال: هي البسط قال وأهل المدينة يقولون هي البسط وأما النمارق فقال الواحدي هي الوسائد في قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون وحكى الفراء نمرقة بكسرها وأنشد أبوعبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت　　للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض. وقال مقاتل: هو الوسائد مصفوفة على الطنافس وزرابي بمعنى البسط والطنافس واحدها زربية في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة: مبسوطة منشورة.

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر، تبسط الواحد رفرفة. وقال أبوعبيدة الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل:

وأنا لنزالون تغشى نعالنا　　سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق قالوا: الرفرف ههنا رياض الجنة وقالوا: الرفرف الوسائد وقالوا: الرفرف المحابس وقالوا: فضول المحابس للفرش. وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره. قال الواحدي وكان الأقرب: هذا لأن العرب تسمي كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء رفرفًا. ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ، «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة» قال ابن الأعرابي: الرفرف ههنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمي رفرفًا. «قلت» أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط، ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة

(١) ١٤٨ حادي الأرواح.

رفـرفـة، ومنه: رفرف الطير، إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فثنى وعطف فهو رفرف. وفي حديث ابن مسعود، في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨] قال: رأى رفرفًا أخضر سد الأفق وهو في الصحيحين. ا. هـ.

فصل

وأما العبقري فقال أبوعبيدة: كل شيء من البسط عبقري قال ويرون أنها أرض توشي فيها، وقال الليث: عبقر موضع بالبادية كثير الجن، يقال: كأنهم جن عبقر ـ قال أبوعبيدة في حديث النبي ﷺ، حين ذكر عمر: فلم أر عبقريا يفري فريه، وإنما أصل هذا فيما يقال: إنه نسب إلى عبقر وهي أرض يسكنها الجن فصار مثلاً منسوب إلى شيء رفيع وأنشد لزهير:

نخـال عليهـا جبة عبقريـة ... جديرون يومًا أن ينالوا فيستعلوا

وقال أبو الحسن الواحدي: وهذا القول هو الصحيح في العبقري.

وذلك أن العرب إذ بالغت في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم، ومنه قول لبيد:

* جن الندا رواسيا أقدامها *

وقال آخر يصف امرأة:

جنـية ولهـا جن يعـلمـهـا ... رمي القلوب بقـوس ما لها وتـر

وذلك أنهم يعتقدون في الجن كل صفة عجيبة، وأنهم يأتون بكل أمر عجيب، ولما كان عبقر معروفا بسكناهم نسبوا كل شيء يبالغ فيه إليها، يريدون بذلك أنه من عملهم وصنعهم هذا هو الأصل، ثم صار العبقري اسمًا ونعتًا لكل ما بولغ في صفته. ويشهد لما ذكرنا بيت زهير فإنه نسب الجن إلى عبقر، ثم رأينا أشياء كثيرة نسبت إلى عبقر غير البسط والثياب كقوله في صفة عمر عبقر.

وروى سلمة عن الفراء قال العبقري: السيد من الرجال، وهو الفاخر من الحيوان والجوهر، فلو كانت عبقر مخصوصة بالوشي لما نسب إليها غير الموشى، وإنما ينسب إليها البسط الموشية العجيبة الصنعة كما ذكرنا، كما نسب إليها كل ما بولغ في وصفه. قال ابن عباس: وعبقري يريد البسط والطنافس، وقال الكلبي: هي

الطنافس المجملة. وقال قتادة: هي عتاق الزرابي، وقال مجاهد: الديباج الغليظ، وعبقري جمع واحده عبقرية، ولهذا وصف بالجمع, فتأمل كيف وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفرش بأنها مرفوعة، والزرابي بأنها مبثوثة، والنمارق بأنها مصفوفة، فرفع الفرش دال على سمكها ولينها، وبث الزرابي دال على كثرتها، وأنها في كل موضع لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه، ووصف المساند يدل على أنها مهيأة للاستناد إليها دائمًا، ليست مخبأة تصف في وقت دون وقت، والله أعلم.

(١)**ذكر** خيامهم وسررهم وأرائكهم وبشخاناتهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾[الرحمن: ٧٢]. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا**» وفي لفظ لهما «**في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن**» وفي لفظ آخر لهما أيضًا: «**الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون**» وللبخاري وحده في لفظ: «**طولها ثلاثون ميلاً**» وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطىء الأنهار. وقال ابن أبي الدنيا حدثنا الحسين بن عبدالرحمن عن أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان قال: «ينشأ خلق الحور العين انشأ، فإذا تكامل خلقهن ضربت عليهم الملائكة الخيام». وقال بعضهم: لما كن أبكارًا وعادة البكر أن تكون مقصورة في خدرها حتى يأخذها بعلها، أنشأ الله ـ تعالى ـ الحور وقصرهن في خدور الخيام حتى يجمع بينهن وبين أوليائه في الجنة، وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم بن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لامزجات ولا زفرات ولابخرات ولا طماحات، حور عين كأنهن بيض مكنون» حدثنا علي بن الجعد حدثنا شعبة عن عبدالملك بن ميسرة قال: سمعت أبا الأحوص يحدث عن عبدالله بن

(١) ١٥٠ حادي الأرواح.

مسعود (في قوله ـ تعالى ـ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] قال در مجوف).

وقال عبدالله بن المبارك: أنبأنا سليمان التيمي عن قتادة عن خليد القصري عن أبي الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابًا كلها من درة». قال ابن المبارك وأخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب». وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبدالوهاب حدثنا شريك عن منصور عن مجاهد ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢]. قال في خيام اللؤلؤ، والخيمة: لؤلؤة واحدة». حدثني محمد بن جعفر حدثنا منصور حدثنا يوسف بن الصباح عن أبي صالح عن ابن عباس حور مقصورات في الخيام قال الخيمة درة من لؤلؤة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ، ولها ألف باب من ذهب حولها سرادق دوره خمسون فرسخًا يدخل عليه من كل باب منها مالك بهدية من عند الله ـ عز وجل ـ وذلك قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ والله أعلم.

[1]**وأما** السرر فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٦] وقال تعالى: ﴿فيها سُرر مَرفوعة﴾ فأخبر ـ تعالى ـ عن سررهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا من بعض، وأخبر أنها موضونة. والوضن في اللغة: النضيد والنسج المضاعف، يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون. وقال الليث: الوضن نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقاربة النسج. وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت أي قاربي بعضه من بعض، قال أبوعبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة: موضونة منسوجة مضاعفة متداخلة بعضها على بعض، كما توضن حلق الدرع، ومنه سمي الوضين، وهو نطاق من سيور تنسج فيدخل بعضها في بعض، وأنشدوا للأعشى:

ومن نسج داود موضونة	تساق مع الحي عيرًا فعيرًا

قالوا: موضونة: منسوجة بقضبان الذهب مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد.

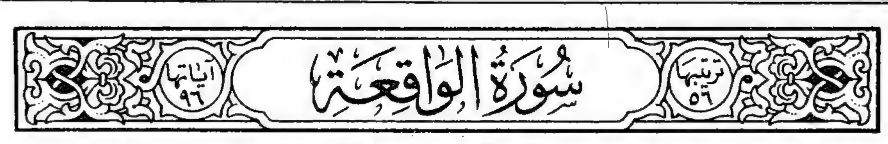
---

(١) حادي الأرواح.

قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب، وقال مجاهـد: موصولة بالذهب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: موضونة: مصفوفة. فأخبر ـ سبحانه ـ أنها مرفوعة. قال عطاء عن ابن عباس قال: سرر من ذهب، مكللة بالزبرجد والدر والياقوت. والسرير مثل ما بين مكة وأيلة. وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع، فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه، فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه.

وأما الأرائك فهي جمع أريكة قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الإنسان:١٣] قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة، فإذا كان سريرًا بغير حجلة لا يكون أريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة، فإذا اجتمعا كانت أريكة. وقال مجاهد: هي الأسرة في الحجال. قال الليث: الأريكة: سرير حجلة، فالحجلة والسرير أريكة، وجمعها أرائك وقال أبو إسحاق: الأرائك: الفرش في الحجال. قلت: ها هنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير و(الثانية) الحجلة وهي البشخانة التي تعلق فوقه و(الثالث) الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذلك كله. وفي الصحاح الأريكة سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة. والجمع: الأرائك. وفي الحديث أن خاتم النبي ﷺ، كان مثل زر الحجلة وهو الزر الذي يجمع بين طرفيها من جملة أزرارها، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرحمن
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(1)**ذكر** الله ـ تعالى ـ أصناف بني آدم: سعيدهم وشقيهم. قسّم سعيدهم إلى قسمين: سابقين، وأصحاب يمين. فقال: ﴿**والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠] اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من باب التوكيد اللفظي، ويكون الخبر قوله: ﴿**أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة: ١١]. والثاني: أن يكون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبر له على حد قولك: زيد زيد. أي زيد الذي سمعت به هو زيد كما قال:

* أنا أبو النجم وشعري شعري *

وكقول الآخر:

* إذ الناس ناس، والزمان زمان *

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه. والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنى: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان، وهذا أظهر، والله أعلم. فإن قيل: فما تقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث بريدة بن الحصيب قال: «أصبح رسول الله ﷺ، فدعا بلالاً، فقال: «**يابلال بم سبقتني إلى الجنة؟! فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، ودخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: أنا محمد، لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر بن الخطاب**»، فقال بلال: يارسول الله ما أذنت قط إلا وصليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله علي ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «**فبذلك**». قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل على أن أحدًا يسبق رسول الله ﷺ، إلى الجنة، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله ﷺ، في الجنة فلأن بلالاً كان يدعو إلى الله أولاً بالأذان،

(1) ٨٥ حادي الأرواح.

فيتقدم أذانه بين يدي النبي ﷺ، فتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم. وقد روي في حديث **«أن النبي ﷺ، يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان»** فتقدمه بين يديه ﷺ، كرامة لرسوله، وإظهارًا لشرفه وفضله؛ لا سبقًا من بلال له، بل هذا السبق من جنس سبقه إلى الوضوء ودخول المسجد ونحوه، والله أعلم.

(١)**قال تعالى: ﴿وأَصْحابُ اليَمِين ماأَصحابُ اليَمِينِ * في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وماءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثيرةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾** [الواقعة: ٢٧-٣٣] وقال تعالى: **﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾** [الرحمن: ٤٨] وهو جمع فنن، وهو الغصن. وقال: **﴿فِيهِما فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾** [الرحمن: ٦٨] والمخضود: الذي قد خضد شوكة أي: نزع وقطع، فلا شوك فيه. هذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع، وكل رطب قضبته فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكة، فهو خضيد ومخضود، ومنه الخضد على مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب، خضد بمعنى: مخضود، كقبض وسلب، والخضاد شجر رخو لا شوك فيه. الحجة الثانية: قال ابن أبي داود حدثنا محمد بن مصفى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا ثور بن يزيد حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة بن عبد السلمي قال: «كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يارسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها! يعني الطلح، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود(٢) فيها سبعون لونًا من الطعام لا يشبه لون آخر»** (الملبود) الذي قد اجتمع شعره بعضه. على بعض وقال عبدالله بن المبارك أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ، يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يومًا فقال: يارسول الله! ذكر الله في الجنة شجرة

---

(١) ١١٧ حادي الأرواح.

(٢) في النهاية خصوة التيس الملبود أي المكتنز اللحم الذي لزم بعضه بعضًا فتلبد، ا.هـ. قال شمر: لم نسمع واحد الخصى إلا خصية بالياء، لأن أصله من الياء كذا في اللسان في مادة خ ص ى ولم يتعرض له صاحب النهاية ا.هـ.

مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «**وما هي**»؟ قال: السدر فإن له شوكًا مؤذيًا، قال: «**أليس الله يقول: ﴿في سدر مخضود﴾؟! أخضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة**». وقالت طائفة: المخضود هو الموقر حملاً، وأنكر عليهم هذا القول. وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح وأربابه ذهبوا إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما خضد شوكه وأذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة أو قرت بالحمل، والحديثان المذكوران يجمعان القولين، وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك، ولا أذى فيه؛ فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفردًا من أفراده تارة، ومثالاً من أمثلته فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة ولا اختلاف بينها.

فصل

في وصف طلح الجنة

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز. قال مجاهد: أعجبهم طلح وج وحسنه، فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري. وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال، وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب، قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا　　غدا ترين الطلح والجبالا

ولهذا الشجر نور ورائحة وظل ظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك. وقال ابن قتيبة: هو الذي نضد بالحمل أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره فليس له ساق بارز. وقال مسروق: ورق الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها، وأنهارها تجري من غير أخدود. وقال الليث: الطلح: شجر أم غيلان، ليس له شوك أحجن، من أعظم العضاه شوكًا، وأصلبه عودًا، وأجوده صمغًا. قال أبو إسحاق: يجوز أن يعني به شجر أم غيلان، لأن له نورًا طيب الرائحة جدًا، فوعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على سائر ما في الدنيا، فإنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسامي، والظاهر أن من

فسر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيل به لحسن نضده، وإلا فالطلح في اللغة هو الشجر العظام من شجر البوادي، والله أعلم. وفي الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾** ».

(١)**قال** تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ قال أكثر المفسرين: هو الموز. والمنضود: هو الذي قد نُضِّد بعضه على بعض، كالمشط وقيل الطلح: الشجر ذو الشوك نُضِّد مكان كل شوكة ثمرة. فثمرة قد نضد بعضه إلى بعض. فهو مثل الموز. وهذا القول أصح. ويكون مَن ذكر الموز من السلف: أراد التمثيل، لا التخصيص، والله أعلم. وهو حار رطب، أجوده النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين والمثانة، ويدر البول، ويزيد في المني، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم، ودفع ضرره بالسكر أو العسل.

(٢)الباب الثلاثون

في أن أكثر أهل الجنة هم أمة محمد ﷺ

في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**»؟ فكبرنا، ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»؟ فكبرنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض**» هذا لفظ مسلم، وعند البخاري: «**وكشعرة سوداء في ثور أبيض**» بغير ألف، وعن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الأمة منها ثمانون صفا**» رواه الإمام أحمد والترمذي وإسناده على شرط الصحيح، ورواه الطبراني في معجمه من حديث عبدالله بن عباس وفي إسناده خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه، ورواه أيضا من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم وربع الجنة لكم، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها**»؟ قالوا: الله ورسوله

---

(١) ٣٦٦ زاد المعاد جـ٣.	(٢) ٩٠ حادي الأرواح.

أعلم، قال: **«كيف أنتم وثلثها»**؟ قالوا: ذاك أكثر، قال: **«كيف أنتم والشطر لكم»**؟ قالوا: ذاك أكثر، فقال رسول الله ﷺ: **«أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًا»** قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن القاسم بن عبدالرحمن، إلا الحارث بن خضيرة، تفرد به عبدالواحد بن زياد، وقال عبدالله بن أحمد حدثنا موسى بن غيلان بن هاشم بن مخلد حدثنا عبدالله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت **﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾** [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: **«أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلاثا أهل الجنة»** قال الطبراني تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري. وقال خثيمة بن سليمان القرشي حدثنا أبوقلابة هو عبدالملك بن محمد بن بكار الصيرفي حدثنا حماد بن عيسى حدثنا سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، قال: **«أهل الجنة عشرون ومائة صف أنتم منها ثمانون صفًا»** وهذه الأحاديث قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وصح سند بعضها، ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر لأنه ﷺ، رجا أولاً أن يكونوا شطر أهل الجنة، فأعطاه الله ـ سبحانه ـ رجاءه وزاد عليه سدسًا آخر. وقد روى أحمد في مسنده من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«أرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة»**، قال فكبرنا، ثم قال: **«فأرجو أن تكونوا الشطر»** وإسناده على شرط مسلم.

(١)**قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أترابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾** [الواقعة: ٣٥-٣٨] أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن إذ هي محلهن. وقيل: الفرش في قوله: **﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾** [الواقعة: ٣٤] كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها، ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد رفعة القدر، وقد تقدم تفسير النبي ﷺ، للفرش وارتفاعها، فالصواب أنها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالبًا. قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقًا جديدًا. وقال ابن عباس: يريد

(١) ١٦٠ حادي الأرواح.

نسـاء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط، يقول ـ تعالى ـ خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا، ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع «**هن عجائزكم العمش الرمض**» رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه. ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول الله ﷺ، دخل عليها وعندها عجـوز فقـال: من هذه؟ فقالت إحدى خالاتي، قال: أما إنه لا يدخل الجنة العجـوز، فدخـل على العجـوز من ذلك ماشاء الله، فقال النبي ﷺ: « **﴿إِنَّا أَنشأناهُنَّ إِنْشَاء﴾** [الواقعة: ٣٥]. **خلقا آخر، يحشرون يوم القيامة: حفاة عراة غرلاً وأول من يكسى إبراهيم خليل الله**»، ثم قرأ النبي ﷺ: **﴿إِنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً﴾** قال آدم بن أبي إياس حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عني زيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال سمعت رسول الله ﷺ، يقول في قوله: **﴿إِنَّا أنشأناهن إنشَـاء﴾** قال: «**يعني الثيب والإبكـار الـلاتي كن في الـدنيـا**» قال آدم وحـدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة العجز**» فبكت عجوز، فقال رسول الله ﷺ: «**أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز، إنها يومئذ شابة، إن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿إنا أنشأهن إنشاء﴾**» وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشـة: «أن النبي ﷺ، أتتـه عجـوز من الأنصـار فقالت: يارسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها عجوز**»، فذهب نبي الله ﷺ، فصلى ثم رجع إلى عائشة، فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «**إن ذلك كذلك إن الله ـ تعالى ـ إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكار**» **وذكر مقاتل قولاً آخر وهو اختيار الزجاج: أنهن الحور العين التي ذكرهن، قيل أنشأهن الله ـ عز وجل ـ لأوليائه، لم يقع عليهن ولادة**» والظاهر أن المراد أنشأهن الله ـ تعالى ـ في الجنة، إنشاء ويدل عليه وجوه:

أحـدها: أنـه قد قال في حق السـابقـين **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْـوَابٍ﴾** إلى قولـه: **﴿كَـأَمْثَـالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾** [الواقعة: ١٧-٢٢] فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب

الميمنـة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان، لأنه ـ سبحانه ـ حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم:٤٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة:٦٢]

الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة:٧] إلى آخره للذكور والإنـاث، والنشـأة الثانية أيضًا عامة للنوعين. وقوله: ﴿إِنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً﴾ [الواقعة:٣٥] ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر، والحديث لايدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم.

وقـولـه (عربا) جمع عروب، وهن المتحببات إلى أزواجهن. قال ابن الأعرابي: العروب من النساء: المطيعة لزوجها، المتحببة إليه، وقال أبو عبيدة: العروب: الحسنة التبعل. «قلت» يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع، وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحـدوج[1] عروب غير فاحشة ريا الـروادف يعـشى دونها البصر

وذكـر المفسرون في تفسير «العُرُب» أنهن العواشق: المتحببات، الغنجات، الشكـلات، المتعشقـات، الغلمات، المغنـوجات، كل ذلك من ألفاظه. وقال البخاري في صحيحه: عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكـة: العـربـة. وأهـل المـدينة: الغنجة. وأهل العراق: الشكلة. والعرب: المتحببات إلى أزواجهن، هكذا ذكره في كتاب بدء الخلق. وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة: عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة: العـربـة. وأهـل المـدينـة: الغنجـة. وأهل العراق: الشكلة. قلت: فجمع ـ سبحانه ـ بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن. وفي قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٧٤]

---

(١) الحدوج جمع حدج بكسر الحاء مراكب النساء. (ع)

إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه لها فضل على لذته بغيرها. وكذلك هي أيضاً.

(١)وقد قرئت الآية بالوجوه الثلاثة، فمن قرأ بالضم أو الفتح فهو: مصدر. ومن قرأ بالكسر فهو بمعنى: المشروب، وعلى الأول يقع التشبيه بين الفعلين، وهو المقصود بالذكر، شبه شربهم من الحميم بشرب الإبل العطاش، التي قد أصابها الهيام وهو داء تشرب منه ولا تروى، وهو جمع أهيم، وأصله هيم بضم الهاء: كأحمر وحمر، ثم قلبوا الضمة كسرة لأجل الياء فقالوا هيم. وأما قراءة الكسر فوجهها أنه شبه مشروبهم بمشروب الإبل الهيم في كثرته وعدم الري به، والله أعلم.

(٢)...قوله ـ تعالى ـ في الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أأنتم تَخْلُقُونَهُ أم نحن الخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب ـ تعالى ـ ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا، وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. . .

(٣)وكذلك الحكمة في خلق النار على ما هي عليه كامنة في حاملها، فإنها لو كانت ظاهرة: كالهواء، والماء، والتراب؛ لأحرقت العالم وما فيه، ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين للحاجة إليها، فجعلت مخزونة في الأجسام تورى عند الحاجة إليها، فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها، ثم تخبو إذا استغني عنها، فجعلت على خلقة وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع بها والانتفاع مع السلامة من ضررها، ثم في النار خلة أخرى وهي أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان، فإن الحيوانات لا تستعمل النار ولا تستمتع بها، ولما اقتضت الحكمة

(١) ٩٧ بدائع جـ٢. (٢) ١٢٤ التبيان. (٣) ٢٣٦ شفاء العليل.

الباهرة ذلك اغتنت الحيوانات عنها في لباسها وأقواتها فأعطيت من الشعور والأوبار مايغنيها عنها وجعلت أغذيتها بالمفردات التي لا تحتاج إلى طبخ وخبز لما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الآلات والأسباب مايتمكن من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها.

ومن حكمها هذه المصابيح التي يوقدها الناس فيتمكنون بها من كثير حاجاتهم، ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور. وما منافعها في إنضاج الأغذية والأدوية والدفء فلا يخفى، وقد نبه ـ تعالى ـ على ذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣] أي تذكر بنار الآخرة، فيحترز منها، ويستمتع بها المقوون، وهم النازلون بالفيفاء وهي الأرض الخالية، وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها في خبزهم وطبخهم حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عن ما يصنعونه بالنار.

(١)﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَى وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر. والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أشهدهم في هذه [الدار] ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات، وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها: رحمة منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة، وتنبيها.

(٢)...**وقال** أبوداود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن

---

(١) ١٤١ طريق الهجرتين.		(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، قال: «**من ادعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**». وقد أشهد الله ـ سبحانه ـ عباده في هذه الدار آثارًا من آثار الجنة وأنموذجًا منها من: الرائحة الطيبة، واللذات المشتهاة، والمناظر البهية، والفاكهة الحسنة، والنعيم، والسرور، وقرة العين. وقد روى أبو نعيم من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ـ عز وجل ـ للجنة: طيبي لأهلك. فتزداد طيبًا، فذلك البرد الذي يجده الناس بالسحر من ذلك، كما جعل ـ سبحانه ـ نار الدنيا وآلامها وغمومها وأحزانها: تذكرة بنار الآخرة. قال ـ تعالى ـ في هذه النار: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾** » وأخبر النبي ﷺ، أن شدة الحر والبرد من أنفاس جهنم، فلابد أن يشهد عباده أنفاس جنته وما يذكرهم بها، والله المستعان.

فصل(1)

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء، كانت تحرق العالم، وتنتشر، ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر. قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**﴾ [الواقعة: ٧١] إلى قوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٧٤] فسبحان ربنا العظيم! لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها، ونهرب إليه منها، ومتاعًا للمقوين وهم: المسافرون، النازلون بالقواء، والقواء هي الأرض الخالية، وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والإنس وغير ذلك.

---

(١) ٢١٥ مفتاح جـ١.

فصل

ثم تأمل حكمته ـ تعالى ـ في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها، وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي: هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفًا في ظلمة الليل الداجي، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل، فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حولك كله، فترى به القريب والبعيد. ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف.

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية، وتجفيف مالا ينتفع إلا بجفافه، وتحليل مالا ينتفع إلا بتحليله، وعقد مالا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى. ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً، فمن أعطى هذا: القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره، وأعطى هذه: القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها، وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم.

(1)**سبحانه** يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم هذا القسم كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضًا فإنه لم تجر عادته ـ سبحانه ـ باستعمال النجوم في آيات القرآن، ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية، وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

القرآن. وأيضًا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوي النجم في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. وأيضًا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، ﴿يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢] ونظائره. والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

(١)**قوله** تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ـ٨٠] ذكر ـ سبحانه ـ هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى، وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى، وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار. ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن. وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن، وأنه تنزيله.

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها، فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء. وهذا قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء، وقول سعيد بن جبير، والكلبي، ومقاتل، وقتادة. وقيل: النجوم هي: الكواكب، ومواقعها: مساقطها عند غروبها. هذا قول أبي عبيدة وغيره. وقيل: مواقعها: انتشارها وانكدارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن. ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه، فإنه مفاعل من الوقوع، وهو السقوط. فلكل نجم موقع، وجمعها مواقع. ومن حجة قول من قال: هي مساقطها عند الغروب، أن الرب ـ تعالى ـ يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث: آية، وعبرة، ودلالة كما تقدم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]. ويرجح هذ االقول أيضًا أن

---

(١) ١٣٧ التبيان.

النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب: كقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وقوله: ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة. والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الأفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدًا أفردت، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته. فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

فصل

والمقسم عليه ههنا قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وإنَّه لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]. ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لو تعلمون عظيم﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعًا. وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا. كقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لا نُكَلِّفُ نفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَها﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسعَهَا﴾ [الأعراف: ٤٢] وهذا أحسن من قول من قال: أنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر. فهما خبران عن مخبر واحد. فإن عدم التكليف

فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسًا منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك.

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن الباخلين ـ وأنت منهم ـ رأوك تعلموا منك المطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجره يبدو ـ وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فقوله: وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو جعد بأني ـ وقد كذبوا ـ كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت ـ ولم أخلق من الطير ـ إن بدا سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله: ولم أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال فكدت أطير فيقال له: وهل خلقت من الطير، فاحترز بهذا الاعتراض. وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، فلا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه فتأمله.

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية حذار هذا الصدود والغضب

إن تم ذا الهجر يا ظلوم ـ ولا تم ـ فما لي في العيش من أرب

وقول الآخر:

إن سليمـي ـ والله يكـلؤهـا ـ ضنـت بشيء ما كان يرزؤهـا

وقول الآخر:

إن الـثـمانـين ـ وبـلغـتـهـا ـ قد أحـوجت سمعي إلى ترجمـان

ومنه الاعتراض بالقسم، كقوله:

ذاك الذي ـ وأبيك ـ يعرف مالكا والحق يدفـع ترهـات البـاطـل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله:

فمـن لي بعـين الـتي كنـت مرة إلي بها ـ نفسي فداؤك ـ تنـظر

فاعترض بقوله: نفسي فداؤك، استعطافًا.

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ**﴾ [النحل: ١٠١] فقوله: ﴿**والله أعلم بما يُنزِّلُ**﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا: منها الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه ـ تبارك وتعالى ـ، وأن كلا منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإنسـانَ بِوَالِـدَيْهِ حَمَلَتْه أُمُّـهُ وَهْنًـا عَلى وَهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

ومنه قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿**وإذ قَتَلْتُمْ نَفْسًـا فَادَّارأْتُمْ فيها والله مُخْرِجٌ مَّا كُنتُم تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣] فاعترض بقوله: ﴿**والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون**﴾ [البقرة: ٧٢] بين الجمل المعطوف بعضها على بعض، إعلامًا بأن تدارؤهم وتـدافعهم في شأن القتيل ليس نافعًا لهم في كتمانه، فالله يظهره ولابد ولاتستطل هذا الفصل وأمثاله؛ فإنه يعطيك ميزانًا، وينهج لك طريقًا يعينك على فهم الكتاب، والله المستعان.

فصل

ثم قال: ﴿إِنَّه لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه، وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله - سبحانه - وصف نفسه بالكرم. ووصف به كلامه ووصف به عرشه. ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم: بالحسن. قال الكلبي: إنه لقرآن كريم، أي حسن كريم على الله، وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه، وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة، وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

فصل

ثم قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فهذا يدل عى أنه بأيديهم يمسونه. وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر. والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيهًا للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه. فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه. فنفى عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

[عبس: ١٣ ـ ١٦] فوصف محله بهذه الصفات بيانًا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به. وتقدير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة. وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

الوجه الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ. وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] وهكذا قال السلف. قال الكلبي: مكنون من الشياطين، وقال مقاتل: مستور وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه.

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله: ﴿قرآن كريم في كتاب مكنون﴾ كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى. ولو كان نهيا لكان مفتوحًا. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي. والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته. وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إلا المُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وفي الحديث: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**[1]» فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضىء متطهر، والملائكة مطهرون.

(١) رواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني عن عمر عن النبي ﷺ، قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم** =

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونًا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونًا في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنُونًا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبوالأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: المطهرون: الملائكة. وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة. والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن. ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية. وقوله: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**» رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ، إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحًا. وقال أيضًا: لا أشك أن رسول الله ﷺ، كتبه.

= قال: **أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**». قال الترمذي: وهذا حديث في إسناده اضطراب. ولا يصح عن النبي ﷺ، في هذا الباب كثير شيء. قال البخاري: أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا ا.هـ.

وقال أبو عمر بن عبدالبر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم. معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد. لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة. ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً. وقد رواه ابن حبان في صحيحه، ومالك في موطئه، وفي المسألة آثار آخر مذكورة في غير هذا الموضع.

فصل

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم بها حقا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه. فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله ـ سبحانه ـ تكلم به وحيا، وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطنًا يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعمله، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج، ومن سلط عليه آل الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يحكمه ظاهرًا وباطنا في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره

بمشاكلة، وتأملت المشابهة التي عقدها الله - سبحانه - وربطها بين الظاهر والباطن - فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

فصل

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريما في كتاب مكنون فهو ملزوم له. فهو دليل عليه مدلول له. وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتلكم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: منه بدأ. ونظيره: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله - سبحانه - فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر: هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل. والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم. وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

وقد أشار - سبحانه - إلى الطريقين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به. وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى. والأول أعم وأشمل. وقد تقدم بيانها عند قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] وأين الاستدلال بأوصاف الرب - تعالى - وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة ـ رضي الله عنها ـ بصفات الرب ـ تعالى ـ وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته، وأنه رسول الله حقًّا. وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه، وأنه يؤيده، ويعليه، ويتم نعمته عليه(١).

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق مالا يخفى، وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال، والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع، وأتمه، وقد بينا في كتابنا المعالم(٢) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات. فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؛ إذا ليست حكمة الرب ـ تعالى ـ وكمال علمه وأسمائه وصفاته، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه. فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي. وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة. والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وبه التوفيق.

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور

---

(١) روى البخاري في بدء الوحي من حديث عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ فرجع بها ﷺ، يرجف، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ «لقد خشيت على نفسي»، فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(٢) كذا، ولعله كتاب إعلام الموقعين الذي لم يؤلف في أصول الدين مثله ولم ينسج أحد على منواله.

البصـائر، فكيف تطلب المداهنة بها هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق. والمـداهنـة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به؟.

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه، والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب ـ أنعم ـ سبحـانه ـ على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبـدانهم وقلوبهم بهما. ، ثم فاوت ـ سبحـانـه ـ بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته: فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما. ومنهم من قتر عليه في الرزقين.

ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس. وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر. والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه. وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن الله ـ تعالى ـ تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه، ولابد أن يسليها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر ولإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبًا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الـرزق وهمـا رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذ االرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب. وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقـدير، وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير، وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون. فحذف مضافين معا. وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى. ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا[١] فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى. والله أعلم.

---

(١) النوء: النجم مال للغروب، أو سقوط النجم في الغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله. وكانت العرب تقول: إن انتقال الكواكب هو المؤثر في الأمطار.

فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة. وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك، يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره. فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] أي وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب ـ تعالى ـ أقرب إلى المختضر من حاضريه من الأنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلو لا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون، عبيد لمالك، قادر، متصرف فيهم، قاهر، آمر؛ ناه، أو لا يقرون بذلك: فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندًّا، ولا شريكا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه. وإن أنكروا ذلك، وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين، ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم. فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له. ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وإنقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية.

ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان، وما أحسن إعادة

«لولا» ثانيًا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول. وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاءً واحدا. وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل، ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان: من وجود الخالق - سبحانه - وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق، وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين - منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقًا بعضها ببعض. وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء: وأجيبت ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ [الواقعة: ٨٣] و﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦] بجواب واحد وهو ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٧] قال: ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان. قال الجرجاني: قوله: (ترجعونها) جواب قوله (فلولا) المتقدمة والمتأخرة، على تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون. يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر، متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه، فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون كما يقول قائلكم: ﴿لَو أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] و﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلاً فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت.

قلت: وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**﴾ [الإسراء: ٥٠] أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقًا جديدًا، فكونوا خلقًا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا أن لكم ربًّا متصرفًا فيكم، ومالكًا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء. ويحييكم إذا شاء. فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقًا جديدًا بعدما أماتكم. وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقًا لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقًا يموت، ويحيا، أن يحييكم بعد ما أتاكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقًا لا يموت. والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت. وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون، مجزيون محاسبون ـ ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين، فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة: فالروح: الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان: الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة: المسكن الجامع لذلك كله. فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال: ﴿**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] والسلام مصدر من سلم، أي فلك السلامة. والخطاب له نفسه. أي: يقال لك السلامة. كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو

ذلك، فهذه تحية عند اللقاء. قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك. وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك. وفي الآية أقوال أخر، فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها.

ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم. ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون.

(1)**وأنت** إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روحٌ مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أختَ قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر. . .

(2)...**قلت**: مثاله قوله - تعالى -: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].

قال(3): والصحيح في الآية، أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة منها: أنه وصفه بأنه «مكنون» و«المكنون» المستور عن العيون. وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها: أنه قال: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] وهم الملائكة. ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فالملائكة مطهرون. والمؤمنون متطهرون.

ومنها: أن هذا إخبار. ولو كان نهيًا لقال: لا يمسَسْه بالجزم. والأصل في الخبر: أن يكون خبرًا صورة ومعنى.

---

(1) ٢٢٥ أعلام جـ١. (2) ٤١٦ مدارج جـ٢. (3) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن. فأخبر ـ تعالى ـ: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين. ولا وصول لها إليه، كما قال ـ تعالى ـ في آية الشعراء: ﴿**وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ * وما يَنبَغِي لَهُم وما يَستَطِيعُونَ**﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرامٍ بَرَرةٍ**﴾ [عبس: ١٢-١٦]. قال مالك في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿**لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٩] أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس. ومنها: أن الآية مكية من سورة مكية. تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات الصانع، والرد على الكفار. وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي. وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة. إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقًا أو باطلاً. بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله. لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية. فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر. لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلى المطهرون، لكرامتها على الله. فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر. وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**» إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت. فكيف تلج معرفة الله ـ عز وجل ـ ومحبته وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلىء بكلاب الشهوات وصورها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة والاعتداد بها. فإذا أخل بها كانت فاسدة. فكيف إذا كان القلب نجسًا، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يُعْتَدُّ له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها. وهي بيت الرب. فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط. فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت.

وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن، وصحة البصيرة، وحسن التأمل، والله أعلم.

(1)**وقال** تعالى ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين. وهذه الآية تحتاج إلى تفسير، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليلاً على لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث. والجزاء، فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم ربًّا قاهرًا متصرفًا فيهم، يميتهم إذا يشاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما ألا يقروا برب هذا شأنه. فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم. وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته. أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف وليسوا بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليهم أحكامه وينفذ فيهم أوامره، وهذه غاية التعجيز لهم إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته ـ سبحانه ـ وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم.

والدين: دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده. فالدين كله أمرًا أو جزاء لله، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه الله وأمر به، فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه

---

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

ويرضاه، فهو يحب ضده. فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه. ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى، كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً**» وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما بعدله وفضله. وكلاهما من صفات كماله....

(١)**قال** تعالى: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. وقال تعالى: ﴿**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ**﴾ [الرحمن: ١٢]. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة**». وفي سنن ابن ماجه من حديث أسامة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**ألا مشمِّر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مَشيد، ونهر مُطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية**». قالوا: نعم يارسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «**قولوا: إن شاء الله تعالى**». فقال القوم: إن شاء الله تعالى».

الريحان: كل نبت طيب الريح. فكل أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك. فأهل الغرب: يخصونه بالآس. وهو الذي يعرفه العرب من الريحان. وأهل العراق والشام: يخصونه بالحَبق. فأما الآس: فمزاجه بارد في الأولى، يابس في الثاينة. وهو مع ذلك: مركب من قوى متضادة. والأكثر فيه: الجوهر الأرضي البارد. وفيه شيء حار لطيف. وهو يجفف تجفيفًا قويًا. وأجزاؤه متقاربة القوة، وهي قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معًا، وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الحار الرطب إذا شُمَّ، مفرح للقلب تفريحًا شديدًا، وشمه مانع للوباء، وكذلك افتراشه في البيت، ويبرىء الأروام الحادثة في الحالبين إذا وضع عليها. وإذا دق ورقه وهو غض، وضرب بالخل، ووضع على الرأس قطع الرعاف. وإذا سحق ورقه اليابس وذُرَّ على القروح ذوات الرطوبة نفعها. ويقوي الأعضاء الواهية إذا ضمد به.

(١) ٣٤٩ زاد المعاد جـ٣.

وينفع دال الداحس. وإذا ذر على البثور والقروح التي في اليدين والرجلين نفعها. وإذا دُلك به البدن قطع العَرق، ونشف الرطوبات الفضلية، وأذهب نتن الإبط. وإذا جلس في طبيخه نفع من خراريج المقعدة والرحم. ومن استرخاء المفاصل. وإذا صُبَّ على كسور العظام التي لم تلتحم نفعها، ويجلو قشور الرأس وقروحه الرطبة وبثوره، ويمسك الشعر المتساقط ويسوده. وإذا دق ورقه وصب عليه ماء يسير، وخلط به شيء من زيت أو دهن الورد وضمد به: وافق القروح الرطبة، والنِملة والحمرة، والأورام الحادة، والشرى والبواسير، وحبه نافع من نفث الدم العارض في الصدر والرئة، دابغ للمعدة. وليس بضار للصدر، ولا الرئة لجلاوته.

وخاصيته: النفع من استطلاق البطن مع السعال. وذلك نادر في الأدوية. وهو مدر للبول، نافع من لذع المثانة، وعَض الرتيلاء، ولسع العقارب، والتخلخل بعرقه مضر، فليحذر.

أما الريحان الفارسي الذي يسمى الحبق: فحار في أحد القولين. ينفع شمه من الصداع الحار إذا رش عليه الماء. ويبرد ويرطب بالعَرَض، وبارد في الآخر. وهل هو رطب أو يابس؟ على قولين. والصحيح: أن فيه من الطبائع الأربع. ويجلب النوم، وبزره حابس للإسهال الصفراوي. ومسكن للمغص، ومقو للقلب، نافع للأمراض السوداوية.

[1]**المرتبة** التاسعة من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورائه فضاءً وروحًا وريحانًا وراحةً. نسبة هذه الدار إليه: كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لِتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة. قال الله ـ تعالى ـ في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾

ويكفي في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعِشْرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم....

---

(١) ٢٧٤ مدارج جـ ٣.

(١) **فأما** من قال: هي في الجنة، فاحتج بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] قال وهذا ذكره ـ سبحانه ـ عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسّم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها في جنة النعيم. وأصحاب يمين حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب. ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر ـ سبحانه ـ حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ [الفجر: ٢٧]. . . .

(٢) **ومنها** قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٦]. فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما اجعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

ومنها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك، فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء، فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ، بقوله في حديث البراء وغيره: «**فقال لها: اخرجي راضية مرضيًا عنك**»، وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله ـ تعالى ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ [الفجر: ٢٩] مطابق لقوله ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

---

(١) ١١٥ الروح.		(٢) ٩٤ حادي الأرواح.

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دلّ عليه القرآن، وبالله التوفيق.

[(1)]**وأما** قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه، كما قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿**سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ**﴾ [الصافات: ٧٩] ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا. وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة. فإن قيل: فهذا فرق صحيح لكن ما معنى اللام في قوله: لك، ومن هو المخاطب بهذا الخطاب، وما معنى حرف [من] في قوله: ﴿**من أصحاب اليمين**﴾؟ فهذه ثلاثة أسئلة في الآية. قيل: قد وفينا بحمد الله بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالاً للفائدة بحول الله وقوته، وإن كنا لم نر أحدًا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول: المعنى فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له. ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ [الرعد: ٢٥] ولم يقل عليهم اللعنة إيذانًا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿**وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٨] ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام، ومنه هذه الآية: ﴿**فَسَلَامٌ لَكَ**﴾ أي ثبت لك السلام وحصل لك. وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يامن هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا

(١) ١٤٦ بدائع جـ٢.

لك يامن هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف [من] في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائنًا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من أتباع رسول الله وحزبه، أي كائنًا منهم. والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال، كما تقول أحببتك من أهل الدين والعلم أي كائنًا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير، فقد حام عليه منهم من حام وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، والله الموفق المانّ بفضله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الواقعة

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**القاعدة** أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو. والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم: كذبًا ومينا، فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني، وإن خفي عنك، ولهذا يبعد جدًا أن يجيء في كلامهم جاءني عمر وأبو حفص ورضي الله عن أبي بكـر وعتيقه، فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيراً في العطف وتركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول، فعلى الوجه الأول تقول: زيد فقيه، شاعر، كاتب، وعلى الثاني: فقيه وشاعر وكاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر. وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول، لأنه هو هو من حيث اتحد الحامل للصفات، وأما في أسماء الرب ـ تبارك وتعالى ـ فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو السميع العليم، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، الملك القدوس السلام إلى آخرها، وجاءت معطوفة في موضعين. أحدهما في أربعة أسماء وهي: الأول والآخر والظاهر والباطن. والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * والذي أَخْرَجَ المَرْعَى﴾. [الأعلى: ٢-٤]. ونـظيره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وجَعَلَ لَكُمْ فيها سُبُلاً لَّعَلَّكُم تهتـدونَ * والَّـذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا به بَلْدَةً مَّيتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾. [الزخرف: ١٠، ١٢]. فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول. ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك

---

(١) ١٨٩ بدائع جـ١.

﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وأما تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني متطابقة في حق الرب ـ تعالى ـ لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن. ولا يناقض بعضها بعضًا في حقه، فكان دخول الواو صرفًا لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال واحتمال الأضداد؛ لأن الشيء لا يكون ظاهرًا باطنًا من وجه واحد؛ وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف ههنا أحسن من تركه لهذه الحكمة هذا جواب السهيلي. وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذانًا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها. ووجه آخر وهو أحسن منها وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل مثلاً أربع صفات هو: عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقرّ به، ويعجب من اجتماع هذه الصفت في رجل، فإذا قلت: زيد عالم وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد ـ أي وهو مع ذلك جواد ـ فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع ـ أي وهو مع ذلك شجاع وغني ـ فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار، وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول، ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره، لأن الأولية والآخرية من المتضادات، وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل: هو ظاهر، ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها. والذي يوضح لك ذلك أنه لما كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل حسن أن تقول زيد هو الخطيب والقاضي والأمير، وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد فعطف الصفات ههنا أحسن قطعًا لوهم متوهم أن الخطيب غيره وأن الأمير غيره.

(١)**قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأرضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أين ما كُنتم والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**. [الحديد: ٤]. من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم، وينفذهم بصره، ويحيط بهم: علمًا، وقدرة، وإرادة، وسمعًا، وبصرًا، فهذا معنى كونه ـ سبحانه ـ معهم أينما كانوا، وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى بين قوله: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾**. [الأنعام: ١٠٣]. فإنه ـ سبحانه ـ لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾**. [الشورى: ١١]. **﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾**. [الأنعام: ١٠٣](٢).

(٣)**ثم تأمل** الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله ـ تعالى ـ: **﴿يُولِجُ الليلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ في الليلِ﴾**. [الحديد: ٦].

وفيه قولان: أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة. وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار، في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي. الزيادة خمس عشرة ساعة،

---

(١) ٢٠٩ حادي الأرواح.

(٢) تقدم البحث بكامله في سورة الأنعام (ج).

(٣) ٢٠٩ مفتاح جـ١.

فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس: لا يعيش فيه حيوان، ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان: خريفين وربيعين.

(١)**كيف** تكون حقيقة المعية في حق الرب - تعالى - ذلك حتى يدعى أنها مجاز لا حقيقة؟ فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته - تعالى - فيهم، ولا ملاصقة لهم، ولا مخالطة، ولا مجاورة بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه [مع] المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور، وذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه.

فإذا قيل: الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك: علمه بهم، وتدبيره لهم، وقدرته عليهم، وإذا كان ذلك خاصًا كقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾. [النحل: ١٢٨]. كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة؛ فمعية الله - تعالى - مع عبده نوعان: عامة وخاصة، وقد اشتمل القرآن على النوعين، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة، وقد أخبر الله - تعالى - أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أين ما كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾. [الحديد: ٤]. فأخبر أنه خلق ا لسموات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «**والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه**». فعلوّه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق، فمن المعية الخاصة قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾. [البقرة: ١٥٣]. ﴿**وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. [العنكبوت: ٦٩]. ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾.

---

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ٢.

[النحل: ١٢٨]. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ١٩٤]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾. [التوبة: ٤٠]. ومن العامة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. [الحديد: ٤]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. [المجادلة: ٧]. فنبه - سبحانه - بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين فيكون مع كل العددين.

فالمشتركون في النجوى: إما شفع أو وتر فقط، أو كلا القسمين. وأقل أقسام الوتر المتناجين: ثلاثة، وأقل أنواع الشفع: اثنان. وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر، وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم - سبحانه - بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. [المائدة: ٧٣]. فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الآلهية.

والعرب تقول: أربع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾. [التوبة: ٤٠]. رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس، قالوا: رابع ثلاثة، وخامس أربعة، وسادس خمسة.

وقال - تعالى - في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. [طه: ٤٦]. وقال في العامة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾. [الشعراء: ١٥]. فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون، وكيف جمع الضمير لما دخل فرعون معهما في الذكر! فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة. وأما قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. [ق: ١٦]. فهذه الآية لها شأن[1].

[2]... **وترسل** الأمانة والرحم على جنبي الصراط، فلا يجوزه خائن ولا قاطع، ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في

---

(١) تكملة البحث تقدم في بسورة (ق) ويأتي قريباً في المجادلة ما يوضح المعنى إن شاء الله. (ج).

(٢) ١٨٩ تحفة المودود.

الـدنيا: فمار كالـبرق، وكـالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، وساعٍ وماشٍ، وزاحفٍ، وحابٍ حبوًا. وينصب على جنبيه كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله ـ عز وجل ـ تعوق من علقت به عن العبور على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعـة الله ومـرضـاتـه وعبـوديته، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومقطع بتلك الكلاليب، ومكردس في النار، وقد طفأ نور المنافقين على الجسر أحوج ما كانوا إليه، كما طفأ في الدنيا من قلوبهم، وأعطوا دون الكفار نورًا في الظاهر، كما كان إسلامهم في الظاهر دون الباطن، فيقولون للمؤمنين: قفوا لنا نقتبس من نوركم ما نجوز به، فيقول لهم المؤمنون والملائكة: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا.

قيل المعنى: ارجعـوا إلى الدنيا فخذوا من الإيمان نورًا تجوزون به كما فعل المؤمنـون، وقيل: ارجعـوا وراءكم حيث قسمت الأنـوار، فالتمسـوا هناك نورًا تجوزون به. ثم ضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يليهم ﴿مِن قَبلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُم وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. [الحديد: ١٣-١٥].

فإذا جاوز المؤمنـون الصراط، ولا يجوزه إلا مؤمن، أمنـوا من دخول النار، فيحبسون هنالك على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة. . .

(١)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جاءَ أمرُ اللهِ وغرَّكم باللهِ الغَرُورُ﴾. [الحديد: ١٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ﴾. [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لي. أي أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقـال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنـدَهُ لَلْحُسْنَى﴾. [فصلت: ٥٠]. يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر

---

(١) ٢٩٨ الروح.

بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(١)...**ولما** كان الايمان موجبًا للخشوع وداعيًا إليه قال الله ـ تعالى ـ: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾**. [الحديد: ١٦]. **دعاهم** من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان. يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟

(٢)**قال الله تعالى**: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾**. [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين». وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى: **﴿قَد أَفلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ﴾**. [المؤمنون: ١، ٢].

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال ـ تعالى ـ **﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ﴾**. [طه: ١٠٨]. أي سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال ـ تعالى ـ: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾**. [فصلت: ٣٩].

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه. وقيل: الخشوع الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل: الخشوع: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع: تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. ورأى النبي ﷺ، رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**. وقال النبي ﷺ: **«التقوى ههنا»** وأشار إلى صدره ثلاث مرات. وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لا ههنا. وأشار إلى منكبيه.

---

(١) ٥٠٩ مدارج جـ٢.　　(٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

وكان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع». ورأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب». ورأت عائشة - رضي الله عنها - شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال: أسمع، وإذا ضرب: أوجع، وإذا أطعم: أشبع، وكان هو الناسك حقًا». وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة - رضي الله عنه -: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا. وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان». ا. هـ.

(١) **وقال** الله - تعالى -: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾. [الحديد: ١٩].

وقيل: إن الوقف على قوله - تعالى -: ﴿**هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ ثم يبتدىء ﴿**والشُّهداءُ عندَ ربِّهم**﴾ فيكون الكلام جملتين: أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه، وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدمًا على الشهداء في كلام النبي ﷺ، في قوله: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد**»، ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له رضي الله عنه.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة، وأخبر عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس

(١) ٣٥١ طريق الهجرتين.

يوم القيامة، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. [البقرة: ١٤٣]. وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفًا لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله: ﴿والشهداء﴾ مبتدأ خبره ما بعده، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدًا في سبيل الله.

ويرجحه أيضًا أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر، لكان قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. [الحديد: ١٩]. داخلاً أيضًا في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء: أحدها أنهم هم الصديقون، والثاني أنهم هم الشهداء، والثالث أن لهم أجرهم ونورهم. وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول. ثم ذكر الخبر الثالث مجردًا عن العطف، وهذا كما تقول: زيد كريم وعالم له مال، والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعًا فتقول: زيد كريم عالم له مال، أو كريم وعالم وله مال. فتأمله.

ويرجحه أيضًا أن الكلام يصير جملاً مستقلة، قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون، وهم المذكورون في الآية، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا، فهؤلاء ثلاثة أصناف. ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾. [الحديد: ٢٥]. فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء، فهؤلاء هم السعداء. ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار، ومنافقون، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. [الحديد: ١٩]. وذُكر المنافقون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. [الحديد: ١٣]. فهؤلاء أصناف العالم كلهم، وترك ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر المخلط صاحب الشائبتين، على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالبًا لسر اقتضته حكمته. فليحذر صاحب التخليط، فإنه لا ضمان له على الله، ولا هو من أهل وعده المطلق. ولا ييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه إلى

موجبه لأنه أتى بسببه. وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين[1] ولكن غلطوا في تخليده في النار، ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه إلى المشيئة، وقالوا: بأنه يخرج من النار بتوحيده وإيمانه لأصابوا، ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد في النار! مما لا يقتضيه عقل ولا سمع، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم، والله أعلم. وأيضًا فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ رتب على كل عمل جزاء في الخير والشر، فإذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءين، والله لا يضيع مثقال ذرة: فإن كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير، وإن لم يسقطه كالمعصية ترتب في حقه الأثران، ما لم يسقط أحدهما بسبب من الأسباب التي نذكرها إن شاء الله فيما بعد. والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره مادام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ، أنه قال لعلي بن أبي طالب: **«والله لإن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النعم»**، وصح عنه ﷺ، أنه قال: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئًا»**. وصح عنه ﷺ، أيضًا أنه قال: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**، وصح عنه ﷺ، أنه قال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**. وفي السنن عنه ﷺ، أنه قال: **«إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في حجرها»** وعنه ﷺ أنه قال: **«إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»**، وعنه ﷺ: **«العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»**، وعنه ﷺ، أنه قال: **«نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»**، والأحاديث في هذا كثيرة. وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها! ومنقبة ما أجلّها وأسناها!

---

(١) أي المعتزلة وأذنابهم.

أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات، وتتوجه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه. وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من عَلِمَ وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقًّا بتعديل رسول الله ﷺ، لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضًا: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدول، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**». وما أحسن ما قال الإمام أحمد في خطبة كتابه في (الرد على الجهمية): «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل: بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه. فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم: ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين». وذكر ابن وضَّاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب.

(1)... **مدح** الله ـ سبحانه ـ في كتابه أعمالاً، وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغناء: كالزكاة، والإنفاق في وجوه البر، والجهاد في سبيل الله بالمال، وتجهيز الغزاة، وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغني ونصره على فقره ومخمصته؟ وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟ وأين صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام حين قال النبي

(١) ٢٧٦ عدة الصابرين.

ﷺ: «ما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر».

وأين صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله ﷺ، في بعضها: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم». ثم قال: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت» أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ، بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسر اليد العليا بالمعطية والسفلى بالسائلة. وقد عدد الله ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ، من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه.

وقد قيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. المراد به الحالتان، أي كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. فهذا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة، قالوا: والغناء مع الشكر زيادة فضل ورحمة، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان إليهم، وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعتهم التي تخصهم كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، وذكر شهر رمضان فقال: «من فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء». فقد حاز الغني الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذي فطّره.

قالوا: ولو لم يكن للغني الشاكر إلا فضل الصدقة التي لمّا تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر النضر بن شميل عن قرة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم. قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روى عمر وابن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الصدقة لتطفىء على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته**».

وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه: «**كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «**والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**». وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه: «**باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة**». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «**إذا تصدق العبد من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا، أخذها الله بيمينه، فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل العظيم**». وفي لفظ للبيهقي في هذا الحديث: «**حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد**». وقال محمد بن المنكدر: من موجبات المغفرة: إطعام المسلم السغبان. وقد روي مرفوعًا من غير وجه.

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمائه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشقٍّ، تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**». فجعل الكلم الطيب عوضًا عن الصدقة لمن لا يقدر عليها. قالوا وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريحهما للقلب وتقويتهما إياه، وما يلقي الله ـ سبحانه ـ للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم من أجر الصبر على الفقر؟ ونعم أن له لأجرًا عظيمًا لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضًا فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب ـ تعالى ـ وأحب عباده إليه من اتصف بذلك، كما قال النبي ﷺ: «**الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إليه أنفعهم لعياله**». قالوا: وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ أصناف السعداء فبدأ بالمتصدقين أولهم فقال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**

والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُم ونُورُهُمْ﴾. [الحديد: ١٨، ١٩]. فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات، قالوا وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله.

فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم، قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم، وتطفىء الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان ـ يعني الصدقة ـ وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه، وتستر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتهوِّن عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر، فلا تستعصى عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك. قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو ـ سبحانه ـ يحب من اتصف بموجب صفاته وأثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف..

(١)**الوجه** الرابع: أن الزهد على أربعة أقسام: أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخلّ به انعقد سبب العقاب، فلابد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده. الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة. الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن، وهم المشمرون في السير إلى الله وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية: فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبدالعزيز الذي يُضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال

---

(١) ٢٥١ طريق الهجرتين.

تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ، حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهدًا فيها. ومن هذا الأثر المشهور وقد روي مرفوعًا وموقوفًا: «**ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك**». والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء: أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾. [الحديد: ٢٠]. وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. [يونس: ٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنزَلناهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**﴾. [الكهف: ٤٥]. وسماها سبحانه: ﴿متاع الغرور﴾ ونهى عن الاغترار بها.

وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذمّ من رضي بها، واطمأن إليها. وقال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال في ظلِّ شجرة ثم راح وتركها**». وفي المسند عنه ﷺ، **حديث معناه: إن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا فإنه وإن فوَّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية، وعقل حقير، وقدر خسيس. الثاني: علمه أن وراءها دارًا أعظم منها قدرًا وأجل خطرًا وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي** ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**». فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه فلك عوضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها. الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له مالم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك

وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعًا، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك، فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاء. . .

(١)**وقال** ـ تعالى ـ: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزينة وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكاثُرٌ في الأَموالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطامًا**﴾. [الحديد: ٢٠]. فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدًا لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو، تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللهو واللعب لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعًا في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

قال الإمام: حدثنا وكيع حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها**».

وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرًا منها شربة ماء**» قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «**ماالدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بما يرجع وأشار بالسبابة**» وفي الترمذي من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلها حتى القوها**» قالوا: ومن هوانها القوها يارسول الله. قال: «**فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**».

---

(١) ١٧٩ عدة الصابرين.

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة مافيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا» والحديثان حسنان.

وقال الإمام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش عن عبدالله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحوارين بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق أقول لكم أن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله.

وقال أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق قال: اخبرني سعيد بن عبدالعزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ يامعشر الحواريين أيكم يستطيع أن تُبنى على موج البحر دار قالوا: ياروح الله ومن يقدر على ذلك قال: إياكم والدنيا فلا نتخذوها قرارًا.

وفي كتاب الزهد لأحد أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ كان يقول: بحق أقول لكم إن أكل الخبر وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لم يريد أن يرث الفردوس.

وفي المسند عنه ﷺ: **«إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وأن قزَّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير.**

فصل

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخره من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة فهذه من جنس المنافسة المأمور بها وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك والتنافس تفاعل من ذلك كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه. وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

فصل

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموار والأولاد فيحب كل واحد أن يكثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالاً وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم مايلهي النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**. [التكاثر: ١-٤].

والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة، فهو داخل في حكم هذه الآية. فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

فصل

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح ـ إن شاء الله ـ أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خصَّ الكفار به لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم، فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها، وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفًا وتحذيرًا وترغيبًا، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها

آخرون، ذكرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا، فيأيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك، بل متى غرتك؟ أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلا؟ كم رأيت موروثًا؟ كم عللت بكفيك عليلاً؟ كم مرضت مريضًا بيديك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء؟ ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك، ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر، فقال: ياأهل الغربة! وياأهل التربة! أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ماعندنا، فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم: أن خير الزاد التقوى. فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره وابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلاً لأولياء الله، فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم: بذكره، ومعرفته، ومحبته، وعبادته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والأنس به، والفرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده. ولهذا فضّل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا هذا حق الله عليهم، وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم. قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه. والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفتين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل، والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله ـ جل جلاله ـ وسماع كلامه، والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى، ولا يصح أن يُقال: فأي الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

فصـــل

ولما وصف ـ سبحانه ـ حقيقة الدنيا، وبيّن غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب، أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص. ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال ـ تعالى ـ: **﴿واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أنزَلْناه مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾**.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه. وقال تعالى: **﴿إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ به نَبَاتُ الأرضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أهلُها أنَّهم قادِرونَ عليها أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نهارًا فَجَعَلْناهَا حَصِيدًا كأن لَّمْ تَغْنَ بالأمسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾**. [يونس: ٢٤]. ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلاً وخصَّ من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر سبحانه ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم. وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة لا من قلَّ ماله وولده في الدنيا.

ونهى نبيه ﷺ، أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي متعوا به، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعًا له من مد عينيه إلى ذلك، فهذا العطاء في الدنيا وما ادّخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا؛ فلا تمدنّ عينيك.

(١)**وقال** أبو داود الطيالسي ثنا عبدالمؤمن هو ابن عبدالله قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا فقال: ياأبا سعيد! أخبرني عن

(١) ٧ شفاء.

قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ [الحديد:٢٢]. فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلًا أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة، حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. قال: ياأبا سعيد والله لقد أخذتها وإني عنها لغني، ثم لا صبر لي عنها، قال الحسن: أو لا ترى.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿**من قبل أن نبرأها**﴾ فقيل: هو عائد على الأنفس لقربها منه. وقيل: هو عائد على الأرض، وقيل: عائد على المصيبة.

والتحقيق أن يقال: هو عائد على البرية التي تعم هذا كله، ودل عليه السياق. وقوله نبرأها فينتظم التقادير الثلاثة انتظامًا واحدًا والله أعلم. وقال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبدالله بن مسعود: إن أول شيء خلقه الله ـ عز وجل ـ من خلقه القلم، فقال له: اكتب فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة، فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد، فلا يخالف ألِفًا ولا واواً وميمًا.

وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن الله ـ عز وجل ـ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل**»، قال عبدالله: فلذلك أقول: جف القلم بما هو كائن. رواه الإمام أحمد، وقال أبو داود: حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: حدثني عبدالله بن فيروز الديلمي قال: دخلت على عبدالله بن عمرو بن العاص وهو في حائط له بالطائف، يقال له: الوهط، فقلت: خصال بلغتني عنك تحدث بها عن رسول الله، ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه**». وقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل**» فلذلك أقول جف القلم على علم الله. ورواه الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا عن عبدالله بن فيروز الديلمي.

[(١)] **وقوله:** سبحانه: ﴿مَا أَصابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس، أو المصيبة، أو الأرض، أو المجموع، وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ولابد قد كتبت قبل خلقهم؛ هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه.

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله، وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ هانت عليه، وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد.

فصل [(٢)]

والفرق بين رقة القلب والجزع: أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد: كان الجزع عناء محضًا ومصيبة ثانية، قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلاَ تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣]. فمتى آمن العبد بالقدر، وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله ـ سبحانه ـ إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) ١٩٤ شفاء.

(٢) ٣٠٥ الروح.

وسلم، أرق الناس قلبًا، وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة، فأخذ بأنفاسه، وضيّق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسالك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله: رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيمًا، رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلاً عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أرحم الناس بالعيال، والله ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يرحم عبد أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفه، وأبدله بهما الغلظة والقسوة، وفي الحديث الثابت: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»، وفيه: «**من لا يَرحم لا يُرحم**». وفيه: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**». وفيه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**». والصديق ـ رضي الله عنه ـ إنما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقاماته حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم، مثلاً بعيسى وإبراهيم، والرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو الرؤوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم.

(١)...**الأصل** في العقود كلها إنما هو العدل، الذي بعثت به الرسل، وأنزلت به الكتب، قال ـ تعالى ـ: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾. [الحديد: ٢٥]. والشارع نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، والقرآن جاء بتحريم هذا وهذا؛ وكلاهما أكل المال بالباطل، وما نهى عنه النبي، ﷺ، من المعاملات ـ كبيع الغرر، وبيع الثمر قبل بُدُوِّ صلاحه، وبيع السِّنين، وبيع حبل الحبلة، وبيع المزابنة،

(١) ٣٨٧ أعلام جـ١.

والمحاقلة، وبيع الحصاة، وبيع الملاقيح والمضامين، ونحو ذلك ـ هي داخلة إما في الربا وإما في الميسر؛ فالإجارة بالأجرة المجهولة مثل أن يكريه الدار بما يكسبه المكتري في حانوته من المال هو من الميسر، وأما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر، بل هي من أقوم العدل. . .

[1]**ورأيت** لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ في ذلك جواب سؤال:

هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين في الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا؟ وإذا كانت من الشرع فمن يستحق ذلك، ومن لا يستحقه؟ وما قدر الضرب ومدة الحبس؟

فأجاب: الدعاوى التي يحكم فيها ولاة الأمور ـ سواء سموا قضاة أو ولاة الأحداث، أو ولاة المظالم أو غير ذلك من الأسماء العرفية الاصطلاحية ـ فإن حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ شامل لجميع الخلائق، وعلى كل من ولي أمرًا من أمور الناس، أو حكم بين اثنين: أن يحكم بالعدل: فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله. وهذا هو الشرع المنزل من عند الله. قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. [النساء: ٥٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. [المائدة: ٤٨].

فالدعاوى قسمان: دعوى تهمة، ودعوى غير تهمة. فدعوى التهمة: أن يُدَّعى فعل محرم على المطلوب يوجب عقوبته مثل: قتل، أو قطع طريق، أو سرقة، أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال، أو غير تهمة كأن يدعي عقدًا من بيع أو قرض أو رهن أو ضمان أو غير ذلك[2] . . .

[3]... **فالواجب** على ولي الأمر فعل ما أمره الله به، وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله، وقمع أعدائه، وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم، ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام؛ ولا يلتفت في ذلك إلى

(١) ٩٣ الطرق الحكمية. (٢) بقية البحث مطولة مفيدة جدًّا لمن هو راغب في تحقيق معلوماته (ج).
(٣) ٦٨٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.

مرجف أو مخذل يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم، فإن الله - تعالى - يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. [الحج: ٤٠]. وإذا كان فوروز[1] في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله، فحزب الله المنصور، وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق، فإن النبي ﷺ، أخبر أنهم لايزالون ظاهرين إلى يوم القيامة[2]، ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله ﷺ، حيث قال: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»، ويكون من أجرى الله ذلك على يديه وأعان عليه، من أهل القرآن والحديث، داخلين في هذا الحديث النبوي، فإن الله بهم يقيم دينه، كما قال: ﴿**لقد أرسلنَا رُسُلنا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليعلَمَ اللهُ من يَنصُرُه ورُسُلَه بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾. [الحديد: ٢٥].

[3]**فصل**: ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين فلم يصادف عنده مايشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه بداويه فسطا به ضربًا وقال هذا هو الجواب! فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب! فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب، فشمّر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد وقام لله قيام مستعين به مفرض إليه متكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما

---

(١) في الأصل (فوروز) أو (نورور) غير واضحة.

(٢) واضح هنا أن ابن القيم يوصي ولي الأمر في عهده بهدم الكنائس المحدثة، ولا ريب أن هذا يستغرب للوهلة الأولى، ولكن ابن القيم كان يعيش في عصر كثرت فيه ضروب التحدي من أهل الذمة للمسلمين. وكان من العسير أن ينسى أهل دمشق ولو امتد الزمان ما فعله النصارى يوم غزا المغول مدينتهم سنة ٦٥٨، فقد أراقوا الخمر على ملابس المسلمين وعلى مساجدهم، وأرغموا أصحاب الحوانيت الوقوف لهم ولصلبانهم، وراحوا يهتفون: «اليوم انتصر دين المسيح» انظر المقريزي. السلوك ٩٨/١ طبعة كاترمير.

(٣) ١٠ هداية الحيارى.

يعاملون بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، واخلاد إلى العجز والضعف، وقو أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة وإزاحة للعذر ﴿ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بَيْنَةً وَيَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنِ بَيِّنة﴾ [الأنفال: ٤٢] والسيف إنما جاء منفذًا للحجة، مقومًا للمعاند، وحدًا للجاحد، قال تعالى: ﴿لقد أَرْسَلْنا رُسلَنا بالبيِّنَاتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمْ الكِتَابَ والمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأَنْزَلْنا الْحَدِيدَ فيه بَأْسٌ شديدٌ ومَنَافعُ لِلّناس ولِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ ورُسُلَه بالغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيز﴾ فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الماضي.

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف　　يقيم ضباهُ أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل　　وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.

(١) **الوجه** الخمسون ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، رواه بعضهم فلم يرفعه، وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه. قال ـ تعالى ـ في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قريَةٍ نذيرًا * فَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبيراً﴾. [الفرقان: ٥١، ٥٢]. فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّها النبيُّ جاهدِ الكفَّارَ والمُنافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. [التحريم: ٩]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن. والمقصود أن سبيل الله هي: الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله. ولهذا قال معاذ ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بطلب العلم، فإن تعلمه لله

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.

خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهمُ الكِتابَ والميزانَ ليقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وَأَنْزَلْنا الحديدَ فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليعلمَ اللهُ من يَنْصُرُه ورُسُلَهُ بالغيب إنَّ اللهَ قَوِي عَزِيزٌ﴾. [الحديد: ٢٥]. فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل.

[1]**الوجه** التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. فالكتاب كلامه، والميزان عدله، فأخبر أنه أنزلها مع رسله، ثم قال: ﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شَدِيدٌ﴾. ولم يقل وأنزلنا معهم الحديد، فلما ذكر كلامه وعدله أخبر أنه أنزلها مع رسله، ولما ذكر مخلوقه الناصر لكتابه وعدله أطلق إنزاله ولم يقيده بها قيد به إنزال كلامه، فالمسوي بين الإنزالين مخطىء في اللفظ والمعنى.

[2]**والمقصود** الفرق بين الحجج والبينات فنقول: الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة وهي صفة في الأصل يقال آية بينة وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي. قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزانَ﴾. [الحديد: ٢٥]. فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمُ﴾. [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار. ومن من آيات الله الموجودة في العالم...[3]

[4]**وقال** تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطًا، وأن الله ـ سبحانه ـ أنزل كتابه، وأنزل الميزان، وهو العدل ليقوم الناس بالقسط، أنزل الكتاب لأجله والميزان، فعلم أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل: حسن، ومخالفته: قبيحة. وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله.

---

(١) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ٢.　　(٢) ١٤٦ مفتاح جـ١.

(٣) تقدمت تكملة هذا في سورة الأعراف (ج).　　(٤) ٩ مفتاح جـ٢.

ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطًا وعدلاً بالأمر فقط. ونحن لا ننكر أن الأمر كساه حسنًا وعدلاً إلى حسنه وعدله في نفسه، فهو في نفسه قسط حسن، وكساه الأمر حسنًا آخر يضاعف به كونه عدلاً حسنًا، فصار ذلك ثابتًا له من الوجهين جميعًا.

(1)**وقد** ذكر الله ـ سبحانه ـ هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ. والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسوله ﷺ، ولهذا يصف ـ سبحانه ـ هذا الضرب من الناس بأنهم: أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة، ترى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبروهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم، وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولاً، فمن أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل**»، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله. وكان النبي ﷺ، يسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظامه ودمه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا. فطلب ﷺ، النور لذاته ولأبعضاه ولحواسه الظاهرة والباطنة، ولجهاته الست.

وقال أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور. وهذا النور بحسب قوته وضعفه يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعى بين يديه ويمينه. فمن الناس من يكون نوره كالشمس وآخر كالنجم،

---

(1) ٥ اجتماع الجيوش الإسلامية.

وآخر كالنخلة السحوق. وآخر دون ذلك حتى أن منهم من يعطى نورًا على رأس إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا كذلك، فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾. [الشورى: ٥٢]. فسمى وحيه وأمره روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا لما يحصل به من الهدى واستنارة القلوب والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**ولكن جعلناه نورًا**﴾. فقيل: يعود على الكتاب، وقيل: على الإيمان، والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿**روحًا من أمرنا**﴾.

فأخبر تعالى أنه جعل أمره: روحًا ونورًا وهدى، ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة». وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾. [البقرة: ٢٥٧]. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خُلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾. [الأنعام: ١٢٢]. فإحياؤه ـ سبحانه وتعالى ـ بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظلمة، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

فصل

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى. وظلمة القول. وظلمة العمل. وظلمة المدخل. وظلمة المخرج، وظلمة القبر. وظلمة القيامة.

وظلمة دار القرار. فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ماليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره، فإن لكل نبي منهم نورين، ولنبينا ﷺ تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحديد: ٢٨]. وفي قوله: ﴿**تمشون به**﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور، وإن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشى في الناس ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم، وفي قوله: ﴿**تَمْشُون به**﴾ نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشى أحوج ما يكون إليه.

(١)**قال** تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ**﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها**﴾[الأنعام: ١٢٢]. وقوله تعالى ﴿**يَهدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[المائدة: ١٦]. وقوله: ﴿**وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نشاءُ مِنَ عِبادِنَا**﴾[الشورى: ٥٢].

فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل، فإن الحق متى استقر في القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه. ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانًا، وقد تقدم ذلك. فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه.

(١) ١٢٧ مفتاح جـ١.

(١)**وقال** تعالى: ﴿يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُمْ نورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الحديد: ٢٨]. فضمن لهم ـ سبحانه ـ بالتقوى ثلاثة أمور: أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبا في الدنيا، ونصيبا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين. الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات. الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل ـ سبحانه ـ التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

(٢)**ومراتب** العلم والعمل: ثلاثة: «رواية، وهي مجرد النقل وحمل المروى. ودراية، وهي فهمه وتعقل معناه. ورعاية، وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه. فالنَّقَلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا في قُلُوب الَّذِينَ اتَّبَعُوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً، وَرْهَبانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْناهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧].

«**رهبانية**» منصوب «بابتدعوها» على الاشتغال. إما بنفس الفعل المذكور ـ على قول الكوفيين ـ وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور ـ على قول البصريين ـ أى وابتدعوا رهبانية. وليس منصوبًا بوقوع الجَعْل عليه. فالوقف التام عند قوله «ورحمة» ثم يبتدىء «ورهبانية ابتدعوها» أى لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم. وفي نصب قوله: ﴿إلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أى لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد، فإنه لم يكتبها عليهم ـ سبحانه ـ كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة. وأيضًا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه. فيتحد السبب والغاية. نحو: قمت إكرامًا. فالقائم هو المكرم. وفعل الفاعل المعلل هٰهنا هو «الكتابة» و «ابتغاء رضوان الله» فعلهم، لا فعل الله. فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله. لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول «كتبناها» أى ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضًا. إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية. فتكون بدل الشيء

(١) ٣٧ التبيان. (٢) ٦٠ مدارج جـ٢.

من الشيء ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع. أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها. إذ من التزم لله شيئًا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع ـ أو كالإجماع ـ في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول. فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتمامًا.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذَمَّ من لم يَرْعَ قُرْبَةً ابتدعها لله ـ تعالى ـ حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحَثَّ عليها(١).

كتاب(٢) للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: يكتب على جبهته ﴿وقيل يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ ويَاسماءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤] وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، قال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعف، كما يفعله الجهال، فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى.

كتاب آخر له: خرج موسى عليه السلام برداء، فوجد شعيبًا، فشده بردائه: ﴿يَمْحُو اللهُ مايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

---

(١) ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى ابن مريم وهداه ﷺ، وأكذبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام بريء منها. فإنها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يضاد الفطرة، ولا يحبه. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا ـ أن يرعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها. ففي أديرة الرهبان وأديرة الراهبات آيات بينات على ذلك من ثمرات الفسوق عن أمر الله. وكذلك الصوفية يستنون بسنن هؤلاء المترهبين الفاسقين.

(٢) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٣.

كتاب آخر للحزاز: يكتب عليه: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] بحول الله وقوته.

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس يكتب عليه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

كتاب آخر للحمى المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرت، بسم الله مرت، بسم الله قلت. ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت النسا، فلا تسلطه على بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقما، لا شافي إلا أنت.

كتاب للعرق الضارب: روى الترمذي في جامعه من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن رسول الله، ﷺ، كان يعلمهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقولوا: بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر عرق نَعَّار، ومن شر حر النار».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحديد

والحمد لله رب العالمين

فهرس المجلد الخامس

فهـرس سورة الأحزاب

فهـــرس سورة سبأ

فهرس سورة فاطـــر

فهـــرس سورة يسٓ

فهرس سورة الصافات

فهرس سورة صٓ

فهرس سورة الزمر

فهرس سورة غافر

فهرس سورة فصلت

فهرس سورة الشورى

فهرس سورة الزخرف

فهرس سورة الدخان

فهرس سورة الجاثية

فهرس سورة الأحقاف

فهرس سورة محمد

فهرس سورة الفتح

فهرس سورة الحجرات

فهرس سورة قٓ

فهرس سورة الذاريات

فهرس سورة الطور

فهرس سورة النجم

فهــرس سورة القمر

فهــرس سورة الرحمٰن

فهـــرس سورة الواقعة

فهـــرس سورة الحديد

انتهى بحمد الله تعالى

المجلد الخامس ويليه إن شاء الله المجلد السادس